هـــورايـزن



لؤي الفردوسي



هورايزن

تأليف: لؤي الفردوسي

الطبعة الأولى: ٢٠٠٧.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

الإخراج الفني وتصميم الغلاف: فيصل حفيان

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ـ تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

المؤلف لؤي الفردوسي ـ هاتف: ٥٧٤٢٥٣٢

إن أحداث هذا الكتاب كلها حقيقية كما حصلت في الواقع، بالنسبة للوقائع الأساسية، وأغلب الحوادث التفصيلية، لكن بعض التفاصيل كانت درامية، وقد أضيفت لأسباب فنية، ولكي يبصر القارئ الصورة بأكملها عن عالم هو بعيد عنه قد لا يفهمه لولاها.

قافلة الذهب

على طول ميناء سان فرانسيسكو المطل على المحيط الباسيفيكي غرب الولايات المتحدة، تجمعت حشود غريبة من الفقراء والمتشردين، والبحارة وعمال فعالة عاطلون عن العمل، وهنا وهناك تناثر عدد من الصحفيين وتجار الأكشاك الصغيرة، والحشريين وكانوا جميعاً يحسون بالتوتر وهم يراقبون الأفق بانتظار شيء ما، كان الوقت صباحاً والجو رائق ومعتدل، إذ لم تكن الشمس قد ارتفعت كثيراً، أما الوقت فكان شهر تموز من العام ١٨٩٧، وكانت قد وصلت أخبار عن أن باخرة اسمها (إكسلسيور) قد أبحرت قبل تسعة أيام من ميناء قرب مصب نهر يوكان بألاسكا وهي.. محملة بالذهب!؟ الذي وجده المستكشفون الذين كانوا يتدفقون طوال تسعينات القرن التاسع عشر على ألاسكا، مما ألصق اسم (التسعينات المرحة) بهذا العقد الأخير، في غرب الويسترن الأمريكي.

وقبل حلول الظهيرة كان الناس قد بدأوا يتململون. وسرت الهمهمات كالعادة حين انتشار إشاعة قوية، فالبعض كان يكذب والبعض يخترع قصصاً خرافية عن اكتشاف قبيلة جديدة من الهنود تدعى الإسكيمو، آكلة للحوم البشر، وعن حيتان ضخمة تظهر بالمحيط الباسفيكي يظنها الإنسان بالبداية كتل جليد طافية حتى تقترب من البواخر بعد أن تحس بالدفء ثم يزعجها الدفء الزائد، فتنتفض وترفع الحوتة رأسها لتنظر الشيء الذي جعلها تدفأ، فتظهر رأسها للركاب وتفغر فمها ثم تحاول استكشافه بعضه، فيخاف الناس ويقفزون على المحيط. فيما أحس آخرون بثقل في الرأس وقد سكروا قبل العاشرة صباحاً، وفجأة صاح أحدهم وكان واقفاً على سطح

سارية باخرة: السفينة.. السفينة.. إنها قادمة! واشرأب الناس وتدافعوا ليروا ما ينتظرونه منذ تسعة أيام، فاستطاع بعضهم أن يتبين عند الأفق الشمالي مداخن السفينة من بعيد.

ومع اقتراب الباخرة ارتفعت بين الحشود المتجمعة على الرصيف همهمة مسموعة، وظهر على حافة الباخرة صف طويل من الرجال اعتمروا برانيط واقية خاصة بالمنقبين بالمناجم.

ولما اقتربوا أكثر وتبين للناس ملامحهم بدوا ثلاثة رجال هزيلين، ذقونهم غير محلوقة وشعثه، وقد تغضنت وجوههم بالألوان، ينظرون بعيون محمومة في وجوه لفحتها الشمس، وطالع الجميع بعد ذلك منظر غريب، كان الرجال يعبرون إلى البر مترنحين وهم يصارعون شناتي جلدية بالية، تكاد تتفتق حول مفاصلها، وصناديق مغلقة ضاقت بما فيها وبطانيات مربوطة بغير إحكام ناؤوا بحملها فتعاونوا على رفعها إلى الرصيف، وسرعان ما تجلى للأعين المفتونة أن تلك الأمتعة لم تكن عادية، فالشناتي والصناديق والأكياس كانت محشوة بالذهب! وما إن شاع نبأ اكتشاف الذهب قرب نهر يوكان بألاسكا. حتى سرت بين الناس حمى ظلت تستعر طوال سنين، بدءاً بمنتصف صيف ١٨٩٧ مع وصول الخبر إلى العالم الخارجي، وتلك الفترة الوجيزة اختصرت حياة ألوف من الناس وقعوا في أشراك أحلام جامحة استبدت بهم، فقاسموا المشقات الرهيبة وضحوا بكل شيء في سبيل هذا الحلم.

تقع ولاية ألاسكا بأقصى شمال غربي القارة الأمريكية الشمالية، وهي ولاية كانت حكومة الولايات المتحدة قد اشترتها من الحكومة الروسية القيصرية في زمان سابق، ويفصلها عن الوطن الأم براري كندا الغربية، وهي مساحات واسعة من البراري تتخللها غابات التوندرا الواسعة، أما ألاسكا نفسها فتكاد تكون بلداً مستقلاً بذاته يخترقه نهر يوكان الكبير، فمناخه

قاس إلى حد الموت وتتحول الأرض فيها بموسمي الربيع والخريف إلى وحول وسبخات، تتضافر مع لفحات النسائم الصقيعية القطبية لتحويل شبه الجزيرة العملاقة إلى جحيم بارد.

هستيريا

انتقلت الأخبار عن عودة المنقبين في كل أنحاء الولايات المتحدة، وبالأخص نصفها الغربي، أي غرب المسيسبي، بطريقة هستيرية فسرت نار الإشاعات عن ذهاب معدم لا يحمل سوى عدة التنقيب بكيس خيش، وعودته مليونيراً ولم يلبث المغامرون أن قدموا بالآلاف إلى موانئ سان فرانسيسكو وسياتل، وبلغت تجمعاتهم حد الحشر، وكلهم جاهزون للرحيل ولكن..

كانوا على استعداد لتحمل التأخير الطويل بسبب العواصف الثلجية، وقلة البواخر الجاهزة لهذا (الظرف الطارئ)، فقد وصل الفقر ببعض الناس أن قضوا جوعاً في الأزقة، وعجت مدن سان فرانسيسكو وسياتل وبورتلاند وفيكتوريا بالرجال وضاقت الأوتيلات بالنزلاء، وبالقرب من أرصفة الموانئ كانت الكتل البشرية تتحرك بتثاقل بين أكياس المؤن، وغصت الطرق بأناس حرصوا على الظهور بالزي الرائج آنذاك: بدلة من الجوخ الماكيناوي المبهرج وقبعة ذات حافة عريضة وجزمة مقواة من جهة النعل بالحديد لوقايتها من البري، واستغل النصابون والمقامرون الغشاشون الناس المتسكعين في انتظار سفن تنقلهم شمالاً وقد ازداد توترهم خشية ألا يتوفر لأحدهم مكان على متنها، فصاروا يقضون الوقت بالقمار ويستنزفون مدخراتهم، أما الحديث عن الذهب فلم ينقطع، والكلام عن الذهب تضمن رقة ومناجاة، وأبدعت في وصفه تعابير وكلمات كأنه غاية في ذاته وليس وسيلة لحياة أفضل، وانتقلت العدوى إلى الصحف فراحت تطلق عليه أوصافاً مستحدثة فهو: الذهب النفيس

الأصفر.. والذهب الأصفر النقي، والذهب اللماع، ذلك الذهب كان في مكان ما على الأرض بين الطحالب.

البريق

لم يكن لدى الوافدين الجدد الذين أعمتهم صورة الذهب المرسومة في أذهانهم أي فكرة عما كان ينتظرهم، فجميع الذين كافحوا في سبيل الحصول على بطاقات سفر زخرت صدورهم بأمل العودة بالثروة، حتى أن البعض منهم حملوا أكياساً من الخيش لالتقاط كتل الذهب التي توقعوا أن يغرفوها من حصى الجداول في بونانزا وإلدورادو.

والخريف في يوكان حمل عبيراً ملأ الجو، واكتست المنحدرات بأشجار البتولا المصفرة وأعالي الجبال بتموجات أرجوانية في انعكاسات الشمس بأشعتها الضعيفة على أعالي ذرى الجبال، وعلى صفحات البرك الضحلة خلف الصباح طبقة رقيقة من الجليد، وانتشر هنا وهناك المصورون المتنقلون مع كاميراتهم ليلتقطوا صوراً فوتوغرافية للساعين إلى كلونDايك، أظهرتهم ملتفين بالفراء، فلا بد إذاً أنه كانت لديهم فكرة وإن بسيطة عن الظروف التي كانت في انتظارهم: البرد القارس على الشواطئ، والريح التي تصفر بين الشعب والمجازات والضباب المخيف في مواسم الشتاء الشمالية، ومع ذلك أطلقوا لمخيلاتهم العنان كأن لمعان الذهب وحده كفيل ببعث الدفء في أجسادهم، وطغى هدير الزحف على كل أصوات التحذير من الأصدقاء والأقارب بعدم المبالغة بالأحلام.

ولقد عرفت التسعينات بزمن الإنسان الواثق بنفسه، وكل من انضم إلى الجموع الزاحفة ذلك الشتاء فعل ذلك مدفوعاً بالإيمان بأنه حتماً حاصل على ما سعى إليه، وإلا لما أقدم وهو بكامل وعيه على التخلي عن عمله وعائلته في موطنه من أجل نزوة عابرة.

والـذي صـار أن مـا لم يكـن وارداً علـى الإطـلاق هـو عـدم الـذهاب إلى كلونـدايك وليس العكس، ففي تلك الفترة الـتي تميـزت بعـدم الاسـتقرار، بـات لزاماً على كل من انضم إلى الصفوف الزاحفة لأن يؤمن ليس فقط بالمستقبل، بل بنفسه كذلك.

ثـم أقبلـت حمـى الزحـف إلى كلونـدايك لتمحـوا أزمـة الثقـة مـن قـارة بكاملها، وكانت الهتافات تنطلق مـن الجمـوع وكـأنها صـلاة صـوفية جماعيـة وثنية، تحمل الأمل لغد أفضل.

هـؤلاء الـساعون إلى (الـسـسبينس)، كـانوا يترجحـون بـين التـصديق والتكذيب لهذه الأساطير اللماعة، لكنهم مضوا على كل حـال، وبينـهم مـن انطلق في رحلته إلى أرض الـذهب الغامـضة ببهجـة ومـرح وكـأنـه في الطريـق إلى باريس أو بومباي فأخذوا معهم عصافير الكناري والببغـاوات، ومـنهم مـن حمـل غيتـاراً أو بيـانو أو مجـازاً خـشبياً للعبـة البولنـغ أو عـدة كاملـة للتـنس وفـانوس كـراكوز، والطريف أن بعضاً من هذا العفش وصـل إلى مـدن الـذهب بالـشمال حيث لا يزال إلى اليوم بين يدي الهواة كقطع أنتيكة.

في قلب الكولورادو

كـان ريتـشارد دوغـلاس، صـانع أسـلحة بإحـدى الورشـات بمدينـة فرجينيـا الغربيـة، لكـن كـساداً ألم بالورشـة بعـد انفـصال أحـد الـشركاء المـاهرين والـدقيقي الـصنعة، عـن العمـل ورغبتـه بتأسـيس ورشـة جديـدة، ومـع الـزمن تكـدس الكـساد وتراكمـت الـديون علـى الورشـة، حتـى أفلـست وحـين بيعـت بالمزاد العلني لم يبقى لريتشارد سوى ثمانية علب رصاص، وأربعـة بنـادق أخـذها من صاحب الورشة المفلس عوضاً عمـا لـه بذمتـه مـن أجـور متراكمـة عـن تـسعة أشهر من الكساد.

ولم يلبث ريتشارد أن انخرط في عصابة جمعها بنفسه للسطو على القوافل الذاهبة، إلى الغرب الأميركي وعلى المحاسبين ناقلي صرر الأموال، على ضفاف جبال الأبالاش المترامية، لكن ولقلة هؤلاء على الطرقات بدأ يتوجه هو وعصابته باتجاه الغرب حيث الفيافي الواسعة وإمكانية الاختباء بجرود جبلية، ميزة قطاع الطرق بذلك الزمان.

ولم يكن رأسمال العصابة بالبداية سوى مجموعة من الخيول والأسلحة التي وزعها عليهم حين فصله رئيسه من العمل، واستمر هو وعصابته يتنقلون من ولاية إلى ولاية باتجاه الغرب وهم يفلتون من كل جريمة يعملونها، لأنهم كانوا لا يكررون سطوهم في مكان واحد مرتين، حتى وصلوا إلى الكولورادو بفيافيها الواسعة المهجورة وجبال الروكي الوعرة التي ترتفع بها على قمم شاهقة ووديان مشلوحة بعيدة يصعب النفاذ لها.

وهناك قرر ريتشارد دوغلاس أن يستقر ولما أعلم باقي العصابة بقراره كانوا متعبين لدرجة أنهم لم يدروا ماذا يعني ذلك.

وبعد قسط من الراحة بأحد المغاور جمعهم ذات صباح وأعلمهم بأن هناك قافلة من العربات الفخمة تقترب من منطقتهم يرافقها عدد من الحراس، وكان يراقب معبراً بين الجبال منذ الصباح بمنظاره الفخم المثبت على رواكز، وهو يعطيه مدى لعشرات الكيلومترات بالأيام الصاحية.

أسرج رجال العصابة خيولهم وكانوا تسعة بمن فيهم ريتشارد، وتركوا مخيمهم كما هو على أمل العودة بالغنيمة، غير مكترثين بأن يكشفه أحد بهذا المكان المنعزل، فخرج يقودهم عبر المفارز، وبعد حوالي الساعة أشرفوا على مخرج بين الجبال مكون من كتل صخرية كبيرة تتخللها الأحراش فربضوا هناك بخيولهم موزعين بين هذه الكتل فيما وقف هو عند المخرج فوق حصانه مختفياً بجانب جدار صخري ناتئ من الجبل، ومرت دقائق كأنها دهر

وإذا به يلمح القافلة قادمة وقد أولته ورجاله جانبها باتجاه زاوية خلفية، فما أن عبرت حتى أعطى إشارة لماركو أحد معاونيه ونخس حصانه فخرج هو ورجاله بأقصى سرعة وما مرت دقائق إلا وكانوا قد أحاطوا بالقافلة من الخلف بزوايا جانبية، وما أن أبصرهم أحد الحراس حتى امتشق بندقيته لكنه وقع على الأرض مضرجاً بدمائه حتى قبل أن ينبه باقي الحراس، وبلحظات اشتبك الرجال مع بعضهم وسط فوضى ألمت بالحراس، وقد أذهلتهم المفاجأة فيما كانوا يتطوحون فوق العربات التي أجفلت أحصنتها غير المدربة على السير مع صوت طلقات الرصاص فلم يتمكنوا من التصويب وما مرت خمس دقائق حتى كان الحراس ما بين قتيل وجريح، فيم سيطرت العصابة على العربات الجامحة بإطلاق الرصاص أمامها.

لم تكن العربات تحتوي على ثروة، لكن ما جنوه منها كان يعادل أجورهم لمدة عشرة أشهر بولاية كولورادو، فأخذوا ما أرادوه وانطلقوا تاركين العربات تتابع طريقها.

صارت كولورادو وسيلة عيش بالنسبة لهم فمن الصعب بزمن لم تكن السيارات والطرق المزفتة قد انتشرت به بعد، أن يتم الإمساك بعصابة قطاع طرق محترفة متماسكة، وإن كان عدد من المليشيات الارتجالية كادت أن تمسك بهم عدة مرات لكن الحظ واتاهم، ولكن مع اقتراب سنة ١٨٩٧ قارب حظهم على النفاذ فمع جماعات المهاجرين بفورة الذهب، حمل الناس مزيداً من السلاح وكثر عدد المهاجرين الشباب بل وكان عدد كبير منهم من المجرمين.

وهنا واجه ريتشارد وعصابته تحدياً جديداً لم يعرفوه من قبل فما أصعب على قاطع الطريق أن ينهب قاطع طريق آخر لكن المفاجأة كانت..

بأحد الصباحات الربيعية، إذ بينما كانت خيولهم ترعى بأحد الفسحات بين الجبال تحت مخيمهم الشتوي مباشرة حيث كان العشب الربيعي بلسماً

لها، وفيما كانوا يستمتعون بشمس الربيع الدافئة توزع رجال العصابة بين من يستحم وآخر يعد الطعام وثالث يجمع الحطب وآخرون يغسلون ملابسهم، فيم أنعش منظر الورود أحدهم فراح يجمع منها باقة بين المروج، وعلى حين غرة أحاطت بهم عصابة من قطاع الطرق، وما إن أبصر الرجال الفاغرو الأفواه العصابة المسلحة حتى أسقط بيدهم، وبعد عملية نهب لم تطلق بها رصاصة واحدة، لم تبق لهم العصابة سوى الخيام وملابسهم الداخلية المهترئة وحبال خيامهم، فيما نجا مسدس ماركو الوحيد الذي كان يحتفظ به تحت ملابسه بالصدفة، ولما غادرت العصابة المكان، لم يكن قد بقي لعصابة دوغلاس حتى الماء فقد صادروا حتى الكانتينات بل ولف أحدهم ديك الحبش المشوي النصف نيئ والذي لم يكتمل شيه بعد ببطانية ووضعه بِخُرْج سرجه قبل أن يغادروا المكان جذلين ليس فقط لأن الغنيمة سهلة بل لأنهم سرقوا عصابة ثانية كانوا يعتبرونها منافسة، اسقط بيد رجال العصابة والتفوا حول ريتشارد ساخطين، ولم يلبث أن دب شجار بينهم حول من المسؤول عن عدم التنبه لاقتراب العصابة الثانية منهم، وفيما اقتعد ريتشارد جذع شجرة وهو غير مصدق لما جرى، أحس برغبته بالضحك فجأة فقد تذكر السعادة التي كان يحس بها قبل نصف ساعة فقط وسط الربيع السعيد ولم يمض على نهبهم لآخر غنيمة سوى أربعة أيام وهم يتمتعون منذ ذلك الحين، فعلت وجهه ضحكه مجنونة.. ثم تحول الجدال المر بين الرجال إلى المعركة كانت نتيجتها أن استل ماريو مسدسه فقتل ثلاثة وجرح اثنين، واستدار نحو ريتشارد وقال له: مزمجراً أنا الزعيم الآن، وصوب مسدسه نحوه وهو بحالة هستيرية، وصار يكيل له كل أنواع التهم والشتائم، ولم يكن أفراد العصابة سوى شرذمة من الرعاع الأوباش والمجرمين الذين لا يتورعون عن عمل شيء، ولم يكونوا يفكرون في لحظات الغضب، ولم يلبث نذر السوء فقد أطلق ماريو رصاصة نحو ريتشارد أصابت الأرض على مسافة سنتيمترات منه فجفل وقفز هارباً وهو حافي

بالملابس الداخلية، ثم لم يلبث أن استشاط ماريو غضباً فأطلق رصاصة ثانية نتشت طرف ملابس ريتشارد ومرت بقربه فخدشته خدشاً خفيفاً برجله، فتابع هروبه فيما حاول ماريو الاستمرار بإطلاق النار لكن المسدس كان قد فرغ فصار يدور كالمحموم على رصاص فلم يجد فرمى المسدس من يده وعدا كالمجنون نحو الخيم يفتشها بحثاً عن رصاص قد يكون المعتدون قد تركوه لكن بدون جدوى، فيما فر ريتشارد إلى حرش قريب.

واستمر يتنقل حتى لاحظ من بعيد قرب العصر مجموعة من العربات المخيمة وسط أحد الحقول المترامية، فتسلل عبر النباتات العالية أكثر من طول الإنسان وقد أنهكه الجوع والعطش، حتى اقترب من إحداها وصار يتلصص من شق بالقماش فاكتشف أنهم عدة عائلات فقيرة تنوي الانتقال باتجاه الغرب، ولما واتته الفرصة قفز على إحدى العربات وسرق ملابس وحذاءاً مهترءاً قديماً جداً، ودور على شيء آخر يسرقه فلم يجد سوى أغراض بيتية قديمة، فخشي إن حملها أن تقرقع وتكشفه، فصار يدور على شيء يأكله أو يشربه فلم يجد غير برميل بيرة صغير ففتحه وصار يعب منه، وأراد حمله معه قبل أن يكشفه أحد، فوجده ثقيلاً رغم أنه لا يزيد عن الشنطة حجماً، فقفز من العربة وهو مغتاظ لأنه لم يجد سلاحاً وهو أكثر شيء كان يفتش عنه كأي قاطع طريق بالويسترن قد يستغني عن أي شيء عدا حصانه ومسدسه.

ولما صار بين العربات حار فيما يفعل فصار يتنقل خلفها محاولاً الوثوب إلى عربة أخرى قبل أن تنتهي حصة الغداء، أو يكشفه أحد الأولاد فوجد أن كل مداخل العربات الأخرى مكشوفة، كما لاحظ أن عدداً من الرجال كان مسلحاً فاستدار ولاحظ حصاناً شارداً قليلاً عن الباقين وقد فك رباطه فصار يرعى فاقترب نحوه، وشد الحبل وانسل بهدوء بعيداً.

ولقرابة شهر كامل عاش ريتشارد شبه متسول إذ لم يشتر أحد منه الحصان ولا حتى لا بدولار ونصف، فاشتد غيظه فغافل أحد الجزارين بإحدى الضياع وسرق من دكانه سكيناً وراح، فجر الحصان نحو البرية وذبحه ثم قطعه وشواه، وعند العصر بعد وجبة غداء سبقها جوع استمر أسابيع نظر ريتشارد نحو الحقول المزهرة وصار يتذكر أيام صباه حين كان يعيش في تشارلستون عيشة فقر مدقع وكيف أن حاله لم يتحسن إلا عندما اشتغل بورشة السلاح، كان التعب قد هده فلم يعد يقدر على فعل شيء سوى أن أنسطح على العشب الوثير ولم يلبث الكرى أن غالب عينيه فاستغرق في نوم عميق.

الرعب

حوالي منتصف الليل أفاق ريتشارد على صوت كركبة، كان الظلام دامساً ولا وجود للقمر، فيما لم تخبو جذوة النار بالفرن الحجري الذي صنعه ليشوي عليه الحصان، وكانت لا تزال ترسل لهبات صغيرة بين الفروع الغليظة، حدق بما حوله فلم يلاحظ شيئاً فأخذ جذعاً ناشفاً وأمرره بقلب النار ثم رفعه لينظر ما حوله فلم يبصر غير أطراف المكان، واقترب من مكان الكركبة فرأى آثار دعسات كبيرة بين الطين! فأجفل قليلاً.. فجأة أحس بشيء قوي جداً يدفعه من الخلف، وقع على الأرض فراح يدور على الجذع المشتعل ولما رفعه أبصر أمامه دباً كبيراً أسمراً، بلغت الدب ولكنه لم يلبث أن زمجر بوجهه وهذه المرة ولدهشة ريتشارد الشديدة حاول الدب أن ينقض على الفرع المشتعل ويقضمه!

أفلت ريتشارد الفرع وأدار ظهره للدب وانطلق يعدو كالمجنون وأحياناً كان يلتفت وراءه ليبحلق بالظلام ليرى ما إذا كان يطارده أم لا، فكان يعجز عن تمييز أي شيء، وبعد عدة دقائق اصطدم بشجرة كبيرة، فآلمه ذلك الاصطدام

كثيراً وجرحه في صدره، فأحس بالدم يخرج من جسمه ويختلط مع عرقه، فالتصق قميصه بجسمه لكنه لم يكترث، وتابع طريقه لا يلوي على شيء.

وكانت رائحة الحصان المشوي قد اجتذبت الدب الجائع جداً بعد فترة من البيات الشتوي، فلم يكترث للنار التي شهرها ريتشارد بوجهه، ومضى ريتشارد يشق طريقه عبر الغابة التي دخلها وسط الظلام الدامس وسكون الليل الذي يمزقه بين الحين والحين صوت بومة كبيرة، وحين وصل قرب مستنقع دار حوله فتجنبه، وأكمل طريقه داخل الغابة لا يلوي على شيء.

طلع صباح اليوم التالي على ريتشارد وهو غاف قرب بحيرة وسط خميلة من الأشجار، فأيقظته الشمس عندما داعبت وجهه ففتح عينيه ليبصر صباحاً ربيعياً خلاباً، فألقى نفسه عند طرف بحيرة كبيرة وتحتها مصطبة يوجد سهل فسيح يتفرع منه وأدل، وقد اكتسيا بالورود والأزاهير من كل نوع، فيما أصوات الطيور تملأ الفضاء.

وبعد أن اغتسل قعد على جذع شجرة يفكر، بماذا يمكن أن يكون مصيره فقد أفلس وخسر كل شيء والألعن من ذلك.. لم يكن أحد يعرفه بتلك البقاع، ما عدا بضعة أشخاص قد يتذكرون أنه كان.. من أهم قطاع الطرق بالكولورادو.

أربعة أيام مرت على ريتشارد وهو هائم بالبراري، وباليوم الخامس خرج من منطقة جبلية بالروكي، فشاهد عند المخرج وادياً ضيقاً تحف به الصخور الكبيرة، ولحظ مزراب ماء صغير يسيل بين الصخور فشرب وقعد وقد هده التعب، إذ لم يذق طعاماً طوال هذه الأيام الأربعة وكان الوقت صباحاً، وبعد مرور حوالي الساعتين شاهد قافلة قادمة من طرف الوادي فانتظرها حتى اقتربت وأخذ يلوح لهم حتى توقفوا فاقترب منهم ولم ينتبه لازدرائهم له بسبب منظره البالي، رغم أنهم كانوا بضعة عشرات من المسافرين الفقراء بل والمعدمين لكن لم يكن واحد منهم بذاك المنظر المزري الذي بدا عليه.

تقدم منهم وطلب طعاماً، وتوسل لهم بدت عليهم علامات الشك به بأن يعطوه مجرد رغيف من الخبز أو أي شيء يؤكل، فأخبروه أنهم لم يخبزوا منذ مدة فأعطاه أحدهم تفاحة، وأخرج آخر سكيناً وقرصاً من الجبن وقص له قطعة وأعطاه إياها، ثم هموا بالرحيل فترجاهم ريتشارد أن يأخذوه معهم فصاح به رجل قوي مسلح: نأخذك إلى أين أيها الأهبل.

ريتشارد: أينما كنتم ذاهبين واجعلوني أعمل عندكم أنا مستعد لعمل أي شيء.

فخاطبه رجل عجوز كان على إحدى العربات: إننا منقبون وذاهبون لألاسكا للتنقيب عن الذهب فهل تفهم بهذا الكار، جفل ريتشارد قليلاً وكان قد سمع بفورة الذهب، وكان رجل قد اخبره بالماضي بأن هناك ولاية بعيدة بالشمال اسمها ألاسكا باردة جداً، وإن قلة من الرجال الشجعان يرحلون إليها ولا يعودون، أو يعودوا ومعهم القليل من الذهب.

أجفل ريتشارد ثانية عندما صاح به الرجل: هه هل تذكرت كارك؟! فصاح رجل من المؤخرة هل يجب أن ننتظر الإذن من المتسول هيا فلنمضي لن نمضي النهار هنا، فحرك العربجية عرباتهم دفعة واحدة فعلت أصوات همهمة الخيول وجلبة طرقعة الخشب وطناجر الطبخ وعدة التنقيب داخل العربات، تبعهم ريتشارد وهو يصيح خذوني معكم سأشتغل أي شيء، صار يكرر ذلك وهم لا يصغون له، بل إن بعضهم رمقه بنظرات ازدراء ثم تابع طريقه، انقلب رجائه إلى توسل وصياح ولكن القافلة مضت مخلفة وراءها الغبار.

في قلب المفاوز

وقف ريتشارد يتأمل القافلة والحسرة تملأ قلبه وقد نسي جوعه للحظات، ثم تذكر التفاحة وقطعة الجبنة فصار يقضم منهما كالمفجوع من شدة جوعه،

وبلقمات كان قد ازدردهما، ووقف جامداً يتابع بنظره غبار القافلة، وفجأة ركض خلف عربة من العربات بدت له فارغة ولما قارب منها رفع غطائها الكتاني فأبصر بالداخل صناديق من أحجام مختلفة فعرف أنها عربة الصناديق الخاصة وهي التي يودع بها المسافرون عادة الصناديق الكبيرة كأمانات يستلمونها عند نهاية السفر لأنها تكون قوية عادة وتحتمل الأثقال الكبيرة دون أن تتكسر فقفز إلى الداخل.

وما أن ألقى ريتشارد نفسه داخل العربة حتى بدأ يحاول فتح أحد الصناديق لعله يجد به ويسكي أو تفاح لكنه ألفاها كلها مغلقة بالأقفال فتسلل إلى مقدمة العربة وأبصر من خلال الشق بالقماش الذي يفصلها عن الخارج، رجلاً واحداً غير مسلح يقودها بمهارة وألفاه عجوزاً ففهم أن باقي المسافرين اختاروه عجوزاً وغير مسلح حتى يأمنوا محاولة فراره بأمتعتهم، فالتفت وصار يدور بين الصناديق حتى وجد فسحة صغيرة بين عدد منها، كانت مغطاة بقماشة من الخيش، فاختبأ تحتها ثم أعاد القماشة كما كانت.

إلى المحيط

هدأ الليل واقترب من أن ينتصف وريتشارد قابع في مكانه يستمع إلى أحاديث المسافرين وكانوا كلهم من الرجال المطحونين الذين بدا عليهم أنهم قد واجهوا مصاعب جمة بحياتهم وفهم أنهم ذاهبون باتجاه سان فرانسيسكو عن طريق مدينة غامضة بصحراء نيفادا اسمها تونابا، وشدّه حديثهم عن الذهب وتوفره بكميات كبيرة بعد أن أرسى أقارب لعدد منهم أسساً للتنقيب بألاسكا قرب أنهر البونانزا والإلدورادو، وهزه هذا الاسم كثيراً فالإلدورادوا هو اسم شائع بأميركا الشمالية أو الجنوبية عن مدينة أسطورية بحث عنها الأسبان كثيراً لدى وصولهم إلى أميركا، وهي تتحدث عن مدينة يستخرج بها

الذهب ويودع بمعابدها الهندية القديمة، ويتعامل سكانها بالذهب كما يتعاملون بالعفش والمحاصيل الزراعية لوفرته الأسطورية، وكان يفترض بأن هذه المدينة أصلاً وحسب الرواية موجودة ببلاد الأنكا القديمة وتقابل اليوم دولتي البيرو والإكوادور، ورغم كل جهود الإسبان لم يعثر على المدينة، لكن الإسبان رحلوا وبقيت الأسطورة.

لم يكن ريتشارد يدرك من كل ذلك شيئاً سوى أن ما أيقظ حسه كقاطع طريق متمرس هو كلمة الإلدورادو، وكإنسان تعود طول حياته على التعاطي مع المجرمين والفارين من السلطات ببيعهم الأسلحة بالورشة التي كان يعمل بها بالنيابة عن رئيسه وأحياناً لحسابه الخاص.

ومع اقتراب منتصف الليل انتهت قدرة الرجال المتعبين من السفر على تبادل الأحاديث حول العثور على الذهب، وكانوا قد تعشوا وشرب بعضهم قليلاً من الرم والويسكي المعتق، فخلدوا إلى النوم جميعاً.

أطل ريتشارد برأسه من شق بالعربة فألفى نار المخيم تكاد تخبو، والحراس المجتمعين حولها قد اتكأوا على بنادقهم وسروجهم وراحوا في نوم متقطع خفيف، فيما غط الرجال النائمون على الأرض بنوم عميق وتعالت أصوات الشخير كأنها أوركسترا بشعة لتشق سكون الليل مع عواء الذئاب الآتي من بعيد انسل ريتشارد لخارج العربة وكانت بعيدة بما يقارب الخمسة عشر متراً عن مركز المخيم ففك رسن البغل النائم المتعب وشده إلى سهل قريب من المكان وكان يدرك أنه جائع فأخرج من عبه كشة من التبن أخرجها من خرج كان معلقاً بجانب العربة وصار يغريه بها فلحقه البغل بهدوء رغم تعبه، وما إن ابتعد بضعة مئات من الأمتار عن المعسكر حتى أدرك أنهم سيطاردونه بالصباح فور اكتشافهم السرقة وأدرك أيضاً أنه لن يستطيع الإبتعاد كثيراً بالبغل المهدود الجائع وحتى لو ابتعد فلن يكون له قدرة على المتابعة بالصباح

فساق البغل والعربة إلى الوراء من حيث قدموا إلى شق كان قد لاحظه بالجبال أثناء خروجهم من الروكي حيث كانوا قد وصلوا لآخرها قبل السهول الواسعة الفسيحة، ولما وصل أدخل البغل والعربة إليه، وتمكن هو والبغل من النوم لأول مرة بهناء منذ أيام طويلة، في الصباح قامت القيامة بالمخيم وبدأ الرجال يتهمون بعضهم بعضاً بالإهمال لكن واحداً منهم كان قوي الشكيمة أخرسهم جميعاً، ثم قسمهم إلى ثلاثة أقسام تذهب للبحث عن العربة فيما بقي عدد منهم للحراسة وقاد هو مجموعة نحو سهل كبير مفتوح يحوط به عدد كبير من التلال طوال اليوم عبثاً للبحث وبالمساء عادت الفرق الثلاث خائبة بعد أن يئسوا من العثور عليها، أما ريتشارد بمخبئه فكان قد لاحظ من مكان مرتفع مخفي وسط الأحراش إحدى هذه الفرق تقترب منه وتتجاوزه بحماسة فاستمر ينتظر عودتهم، لكنهم عادوا للمخيم من طريق آخر.

اسقط بيدهم إذ أدركوا أن عليهم أن يتابعوا بدونها، فيما عدد منهم كان متأكداً من أن السارق هو (المتشرد الحقير ناكر الإحسان) لكن لم يعد هناك فائدة من ذلك فقرروا البيات ليلة أخرى ومتابعة طريقهم بالصباح نحو تونابا.

أما ريتشارد فقد انتظر طوال اليوم وباليوم التالي وعندما شاهد الغبار يعلو موقع المخيم وأبصر اتجاهه عرف أنهم قد شقوا طريقهم نحو الغرب باتجاه المحيط فكاد أن يطير فرحاً، فساق العربة باتجاه آخر مغاير، ولم يكن يعرف المنطقة جيداً، فقرر أن يكمل طريقه حتى يجد مكاناً يستطيع به بيع العربة والصناديق وطوال الطريق كان يسأل نفسه ماذا يوجد بها، حتى وصل لضواحي مدينة، فسأل عن اسمها فاخبره عدد من الذين كانوا يقفون هناك، ويسخرون من سذاجته، بأن اسمها سولت ليك سيتي، وكانت في ولاية يوتا

التي كان قد سمع بها كثيراً وهو بالكولورادو وعن مفاوزها الموحشة وعصاباتها الصغيرة المشهورة.

عند العصر وبأحد الخرابات المهجورة بضواحي المدينة بدأ ريتشارد بفتح الصناديق بعتلة كان قد وجدها بتلك الخرابة، وما لبث وهو يفتح صندوقاً بعد آخر إن اكتشف بأنها تحتوي كلها على عدة تنقيب عن الذهب، فألفى بها هياكل خشبية صغيرة مزودة بعتلات وسطيحات لفصل أكوام البحص ومناخل ومجارف ومعازق من عيارات مختلفة، ولم يلبث أن أدرك بأنه إذا حاول بيعها فسرعان ما سيكشف فألقى بكل محتويات الصناديق في باحة تلك الخرابة وهو يلعن. وساق البغل والعربة حيث باعهما بسوق الخيل والعربات المجاور له، وفتح يده وهو خارج من السوق وأحس بالفرح يجتاحه بطريقة لم يعهدها منذ مدة طويلة لقد كان براحة يده ثمانية دولارات ذهبية ونصف، تأمل تلك الثروة الصغيرة التي هبطت عليه من حيث لا يدري وهو لا يكاد يصدق لمعان الذهب وقطعة الفضة الوحيدة البراقة، وكان ما قبضه للتو من الدلال قد سك من خلاصة الذهب الآتي من بونانزا، فقعد بأحد الصالونات يحتسي كوباً كبيراً من البيرة وقد عامت عليه قطعة من البوظ وهو يتأمل كنزه الصغير، وعندما أحس بغريزة قاطع الطريق أن هناك أحداً ما يراقبه دك المال بجيب سري بجاكيته وعاد لاحتساء البيرة وغرق في تأمل عميق.

وقبل نهاية ذلك النهار كان ريتشارد قد استحم واشترى بدلة جديدة لكن تفكيره بقي معلقاً بساحة الخردة التي رمى بها عدد مهاجري الذهب، وعند الغروب عاد ليتأمل بها، فجمع منها القليل ووضعه بكيس كبير وعاد إلى الأوتيل.

وفي الصباح كان بطريقه للسفر مع قافلة ذاهبة إلى سان فرانسيسكو، وضحك بداخله وهو يستعد للركوب مع القافلة وهو يحمل كل هذا المال، وهو

الذي تعود الإغارة على القوافل، ولم تلبث القافلة بعد عدة أيام أن وصلت إلى ساكرامنتو بكاليفورنيا، بعد أن عبروا جبال السييرانيفادا ومن هناك ركب الترين لأول مرة بحياته إلى سان فرانسيسكو.

وكان يوم وصوله إلى هناك هو نفس اليوم الذي شهد بالصدفة وصول الإكسلسيور، فلما نزل من محطة القطار حاملاً كيسه المبهدل رأى وسمع الناس يتحدثون عن الميناء وكأن الدنيا ستنشق هناك ليظهر إله البحر فلم يفهم معاني تلك الكلمات المغمغمات وأطاريف الإشاعات، فقرر الذهاب إلى هناك خصوصاً وأنه لم يسبق له بحياته رؤية المحيط أو حتى البحر، فحمل عدته وركب الترامواي إلى محطة الميناء، وعندما اقتربوا نادى الكرتجي على محطة الميناء ودق جرساً معلقاً بالترامواي، فنزل ريتشارد وأبصر أمامه صفاً من الأبنية ولما تجاوزها انكشف أمامه المحيط بكل جلاله وعظمته، فألفى نفسه أمام ساحل رملي واسع والأفق يمتد أمامه فلم يصدق المنظر فوقف يتأمله مشدوهاً.

ولم يلبث أن سمع ضجة آتية من جهة الميناء وأبصر أناساً يتجمعون فمشى إلى هناك فشاهد أعداداً غفيرة من الرجال والنساء وأصنافاً عجيبة من كل أنواع البشر وخصوصاً المعدمين ينظرون نحو الهورايزن فحدق فلم يستطع المشاهدة، وتلفت حوله فأبصر كومة من الرزم المعدة للشحن فتسلقها وهناك حملق بالمحيط فأبصر باخرة قادمة من جهة الشمال الغربي والناس يلوحون لها وقبل أن يأتي عصر ذلك النهار وبعد أن شاهد ريتشارد بأم عينه شناتي الذهب وشوالات التبر الخام اتخذ قرار لا رجوع عنه أن يصل إلى ألاسكا بأول باخرة.

وبذلك الوقت وفي المدن الساحلية استماتت الحشود المنتظرة للحصول على مضاجع في أي سفينة شمالاً، إلى حد أن بعض المنتظرين رفضوا مغادرة أمكنتهم في الطابور حتى للأكل أو النوم، وفي سبيل الحصول على بطاقات سفر لم يتورع ألوف عن القتال والسطو والرشوة، وارتضوا السفر على متون

سفن محطمة حملتهم عبر الساحل المسنن لكولومبيا البريطانية والفيوردات[1] العملاقة والأنهار الجليدية في ألاسكا.

فاريا

كانت السفينة فاريا ممددة على جانب الشاطئ الجنوبي لسان فرانسيسكو، تتلاطم على جانبها الأمواج وتتناثر في الهواء، بعد أن أنهكتها رحلاتها الكثيرة عبر خمس سنوات لم تتوقف بها يوماً واحداً عن الإبحار، وقد استخدمت كباخرة صيد وناقلة رخيصة لقطعان الأبقار من الأوريغون بالشمال إلى شواطئ كاليفورنيا بالجنوب كما نقلت الركاب والقمح بل وحتى حجارة البناء، وكانت قد أنهكت لدرجة أنها لم تعد صالحة للنقل حتى للمكسر، وبما أنها كانت مصنوعة من الخشب الذي تأكله السوس فقد تركها مالكها وهو تاجر صوف ومورد، تتآكل على الشط مهملة، ولأن درجة ميلانها رومانسية وشكلها رغم دهانها المتقشر كان جميلاً فقد كان عدد من الرسامين الهواة يأتون للساحل بالأيام الصاخبة ليرسموها بزوايا مختلفة ومن خلفها المحيط.

وبعد يوم واحد فقط من وصول الإكسلسيور إلى الميناء، فوجئ رسام عجوز كان ينصب عدته استعداداً لرسمها عند الصباح بمجموعة من العمال قادمة نحوها مع كل منهم عدة وحامل عدد منهم بعضاً من سطول الدهان، يقودهم المالك الذي غير رأيه فجأة وقرر أن الفاريا باخرة (ممتازة) وكل ما يلزمها هو (بضعة تصليحات) لتعود للعمل.

---

١ - الفيورد دهليز بحري عملاق ذو جنبات وحروف مرتفعة، ويكون داخلاً في البر كيلومترات عديدة وبعضها يكون لمسافة قصيرة

وكان محقاً بفعلته هذه فقد ارتفع أجر السفر إلى كلونдايك بالشمال من دولار وثلاثة أرباع مع وجبتين بالنهار إلى أربعة دولارات وربع، وبما أنها بعد مراجعة سجلاتها القديمة تتسع لتسعين راكباً وبما أن عدد المسجلين للإبحار عليها بمجرد الإعلان عن عودتها للعمل (بحالتها الراهنة) قد إرتفع بأربع ساعات فقط إلى مائتين وستة وسبعين راكباً فقد قرر المالك أن رقم مئتين وواحد وخمسين وهو رقم ممتاز وكان الواحد للتفاؤل.

وبأقل من يومين عادت الفاريا للعمل بعد ورشة إصلاح هستيرية استمرت ٤٨ ساعة متواصلة بدون توقف مع أجر دبل للعمال وأربع أضعاف لرئيس الورشة مع بقشيش..، وباليوم الرابع من تاريخ وصول المنقبين زمرت الفاريا على رصيف الميناء استعداداً لاستقبال ركابها، ولم تمر لحظات حتى كان الرقم الذي ناهز الثمانمائة وخمسين يتدافع منه بالمناكب أعداد غفيرة بشكل تموجات تشبه موجات المحيط نحو مدخلها، وفيما كان حاملوا الكروت يخافون ضياع دورهم وأموالهم فقد كان تدافعهم وللمفارقة حماسياً أكثر من غيرهم، لأن دفع الرشوة للكرتجي كان يحمله على إدخال بعض من غير حاملي الكروت وبين الحشود كان ريتشارد دوغلاس يدافع غيره للحصول على مكان، وكان يلعن ويشتم لعدم تمكنه من الحصول على كرت فقد خاف المالك أنه إذا زاد عدد الكروت عن ما كان قرره سلفاً من غرق الباخرة وهي بالميناء قبل الإقلاع.

وما مر عصر ذلك اليوم وإلا كانت الفاريا مقلعة من الميناء بتثاقلها وهي تجر حمولتها الجبارة، بعد أن اضطر البحارة إلى دفع الناس المهسترين دفعاً عن بوابات السقالة، ولما لم يمكنهم رفعها بسبب تمسك عدد كبير من الرعاع بها، وقف القبطان جون كازار على أحد دكك السفينة العالية وهو يراقب الوضع المأساوي ثم أمرهم بترك السقالة لمصيرها وإغلاق البوابات بالقوة، بعد

أن أعطى الأوامر لأحد معاونيه ببدء مسير الباخرة، وصعق معاونه جاك رودان الواقف بجانبه لهذا الأمر فقال: سيدي إذا فقدنا السقالة فكيف سننزل الناس هناك؟ أجابه القبطان بعصبية، نفذ ما أقوله لك وهناك سنلقيهم بالبحر.

وما مرت دقائق إلا وكان الناس المتعلقون بالسقالة يتساقطون على رصيف الميناء وبالمياه، ولما ابتعدت السفينة سقطت السقالة كلها بالماء فسبح المهاجرون مع شناتيهم وصار بعضهم يغطس لإنقاذها وهي تندفع للأسفل بثقلها فيما كان الآخرون يلعنون ويشتمون بأقذع الألفاظ.

وبعد الإقلاع بساعتين وعندما غابت الفاريا عن أنظار العيون المتأسية الغاضبة التي تقطرها بالميناء.

أمر القبطان معاونه جاك بإحصاء ركاب السفينة، فجاءه الرقم المرعب بعد قليل وهو يشرب الشاي بمقصورة القيادة، فيما نائبه ينشف عرقه وقد امتقع وجهه فسأله القبطان: ما بك.. جاك: سيدي لدينا ثلاثمائة واثنين وعشرين راكباً على السفينة.

جمد البحارة المحيطون بالقبطان وهم يحلقون به وبنائبه لدى سماعهم هذا الرقم، فيما تغيرت سحنة القبطان إلى ملامح غير مفسرة ثم غمغم: لقد أفهمت ذلك الحقير بمكتبه أن أعلى رقم نهائياً هو مائتين وستين راكباً واتفقنا على إنزالهم بمقدار عشرة للأمان.. لقد وعدني ذلك السافل..

اقترب منه جاك وقال بصوت خفيض: سيدي أنت تعرف نوع البحارة لدينا! زوره القبطان لأنه تفوه أمام البحارة بهكذا كلام، فيما بدت تعابير غاضبة على وجه البحارة بالمقصورة، والواقع أن السفينة لم يكن بها سوى خمسة وعشرين من البحارة بمن فيهم الطباخ ومعاونه والطبيب العجوز الذي ألح على إحضار ممرض معه عندما علم بالعدد - الحقيقي - للركاب لكن أحداً لم

يكترث برأيه.. ولم يكن البحارة من مستوى أرقى من العدد الكبير من الرعاع الذي شكل أربعة أخماس عدد الركاب حسبما قدر جاك، بل كانوا من المجرمين السابقين وأرباب السوابق، بل وإن عدداً منهم كان يعمل بالقرصنة بالباسفيكي.

خرج القبطان جون من المقصورة ووقف على الدرابزين بفسحة أمامها يتأمل المحيط فيما أشعل غليونه وأخذ ينفث منه الدخان بشدة، غرق بالأفكار السوداوية فهو لم يعمل منذ ستة شهور وقد أفلس منذ أكثر من شهرين ويعيش بالدين وقد تأخر عليه دفع أجرة بيته لعدة شهور، فالعودة إلى الميناء والتخلي (بشرف القبطان) كان يعني دماره نهائياً، أما.. إكمال الرحلة فهو ضرب بالمجهول فعليه ما يقارب الأربعة آلاف كيلومتر، وعليه قطعها متجنباً التيارات المائية الغدارة وصخور الفيوردات وجبال الثلج العائمة بالشمال وهي خطرة جداً بفترة الصيف لأنها تذوب وتتحرك بطريقة منزلقة مع التيارات؟

كل هذا جعله يغرق بتفكير عميق إذ ليس لديه سوى معاون واحد كملاح يستطيع قيادة السفينة إذ أبى بخل المالك وجشعه توظيف اثنين آخرين حسب القانون بالنسبة لقياس السفينة، لكن جون لم يكن من النوع الذي يتراجع ففتح الباب وعاد إلى المقصورة، وأصدر أوامر جازمة لمعاونه: وزع البحارة وستظل الورديات كما هي سنقود الفاريا للشمال أما بالعودة فلنا كلام آخر.

بذات الوقت كان ريتشارد يكافح لإيجاد مكان له تحت أحد السلالم وبعد التدافع والتهديدات المتبادلة مع عدد من الأوباش، وضع كيسه ورفع رجليه عليه، وأسند ظهره إلى الحائط وهو يجيل بصره حوله فلم يستطع تبين مكان واحد فارغ على ظهر السفينة بل لقد افترشها العشرات حيث لم يكونوا من حملة الكروت وهم وحدهم يحق لهم الإقامة بالداخل، لكن أحد القابعين بقربه أخبره أن الحال بالداخل ليست أحسن بكثير، وفعلاً فقد تكدس

العشرات بكل عنبر من عنابر السفينة الأربعة على أسرة كعلب السردين وألقوا بمتاعهم على الأرض فيما افترش العديدون غرف الطعام والقسم الخارجي من عنبر المؤن، فيما تصاعدت بالأيام التالية الروائح المنتنة للركاب المختلطة بالعرق لأناس لم يستحم بعضهم منذ أسابيع ولم يغسلوا ملابسهم، فقد كانوا ينامون في ثيابهم وينتظرون أكثر من سبع ساعات للحصول على وجبة هزيلة، وبعد أربعة أيام من الإبحار المتواصل وقعت الواقعة..

التمرد

فقد اكتشف عدد من البحارة يرئسهم بالسر قرصان سابق أن سبعة أفراد من الطاقم قد عبؤوا جيوبهم بمال الركاب غير الشرعيين، فعرض عليهم القرصان المقاسمة، ولما رفضوا بدأ التمرد.

فعند العصر تحرك راؤل فاراس وعصابته من المكسيكيين، وكانوا يعدون خمسة، لمحاولة للاستيلاء على السفينة فهاجموا مستودع السلاح وحاولوا كسره، لكن القبطان جمع خمسة عشر من رجاله وسيطر عليهم بعد معركة قتل بها اثنان من المتمردين وأحد رياس البحارة وجرح بها أربعة آخرون.

أدرك جون كازار أنه إذا احتفظ بالبحارة الثلاثة الباقين أحياء فسيثير سخط الباقين من غير المكسيكيين خصوصاً وقد رأوا أربعة من رفاقهم جرحى، فاحتار قليلاً، ثم أمر برميهم بالبحر أمام كل الركاب القابعين بالخارج، وقرر أن يحكم الباقي من الرحلة بيد من حديد، خصوصاً وقد أصبح هو نفسه خارجاً على القانون حسب قوانين البحرية التي تقضي بسجنهم ثم تقديمهم للمحاكمة، ولم يكن أمامه حل آخر فالقاووش الصغير ذو الأربعة أمتار مربعة والمعد كحبس لن يصعب عليهم فتحه والفرار منه، وكان عدد من

الركـاب قـد فتحـه (بطـرقهم الخاصـة) واسـتعملوه كمـأوى، واختفـى القفـل بعدها! فقرر متابعة الرحلة مهما تكن النتائج.

وعنـد دخـولهم فيـورد لـين الموصـل لـبر ألاسـكا، بـدأت السـفينة تَصُرُ تحـت ثقلها الجبار وبدأت قطع منها تتقلع وتتكسر مما زاد قلق القبطان.

مدن الذهب

تقع شواطئ سكاغوي ودياً عند انتهاء أحد أروع الفيوردات البحرية بالعالم وهـو قنـاة لـين، في هـذه الربـوع تعكـس ميـاه البحـر الـصافية صـورة المنحـدرات الجبلية التي ترتفع عمودياً فـوق الزرقـة الفيروزيـة، فتبـدو السـفن العـابرة بقربهـا كالأقزام.

ولم يكـن لـدى النـاس علـى متـون تلـك الـسفن العـابرة بفـورة الـذهب أي استعداد لتذوق الجمال الطبيعي، وبالنسبة لركـاب الفاريـا فهـم أدركـوا أخـيراً أن رحلـتهم لـن تكـون تلـك النزهـة الخفيفـة، فهـم رأوا سـوراً هـائلاً مـن الجليـد والصوان يسد الطريق أمامهم، وكـان هـدير الشلالات المتفجـرة مـن قممـه يصـم الآذان ومنظر الكتل الجليدية المتدلية منه يرهب النفس، وهـذا المشـهد بـدد إلى الأبـد الأحـلام الجميلـة الـتي دغـدغت مخـيلات المتفـائلين، وأدركـوا أن علـيهم اجتياز تلك المتاريس المخيفة، راجلين أو على صهوات الجيـاد عـبر إحـدى فتحـتين ضـيقتين عرفتـا بممـري وايـت وتـشيلكوت، وكـان الوصـول إليهمـا عـبر إحـدى مــدينتين ازدهرتــا بــسرعة وهماديــا الواقعــة عنــد مــدخل ممــر تــشيكلوت وسـكاغوي في أسفل ممر وايت، وقد قرر القبطان أخيراً أن يلجأ إلى ممر وايت باتجاه سكاغوي.

ولكـن قبـل ذلـك كانـت صـدمة ثانيـة في الانتظـار، فعلـى المـسافرين أن يغادروا السفينة حاملين أمتعتهم ومصطحبين حيوانـاتهم، ومـن تجمـع منـهم علـى

المتن قرب حافة السفينة سمع صوت المرساة وهي تلقى و- سعال - الموتور الوحيد قبل أن يتوقف نهائياً.

لكن اليابسة كانت على بعد كيلومترين، ولم يكن هناك معبر أو طريق أو رصيف أو حمالين، ولم ير أولئك الأوائل أمامهم سوى منبطحات الجزر الممتدة إلى البر الرئيسي، وما بينهما كان هناك سبخات وشواطئ مخضلة تتخللها جداول جليدية كالشرايين.

وفجأة أمام أعين الركاب أخذ البحارة مواقعهم عند بوابات السفينة، ثم أصدر القبطان كازار أمره إليهم بأن يفتحوا البوابات ويخرجوا الناس، وبدأت الفوضى صار الركاب يصرخون ويتدافعون وهم يرفضون النزول وفي عز الصياح أعطى القبطان إشارة إلى معاونه فنقلها بدوره لباقي الطاقم الذين أخذوا يصرخون بالناس الباخرة تغرق انجوا بأرواحكم.. وصاح أحدهم بالركاب: سنغرق ونتجمد غرقاً بقاع البحر إذا لم تنزلوا مع عفشكم فوراً.

تبدل الموقف ولم يلبث بعض الركاب أن تشجع وبدأ ينزل للمخاضة أمامه ويسبح بالماء البارد باتجاه الشط، فيما بدأ البحارة يفرغون الباخرة من حمولتها من رجال وحيوانات بمكان يبعد حوالي خمسين متراً من الشاطئ، فيما تم إنزال أربعة زوارق صغيرة تعارك الركاب للوصول لمكان عليها، وأخذوا يمضون بها جيئة وذهاباً باتجاه بقعة صخرية صالحة للإنزال. وعندما لاحظ بعضهم أصوات تكسر إثر اهتزاز السفينة من شدة تموجات تحرك الكتل البشرية الكبيرة عليها بشكل عنيف، أخذ الماء ينفر ويتدفق إلى سطح السفينة وداخلها، وبدأ بعض المتشككين بالاستعداد لمغادرة المتن بعد أن تأكدوا من صحة ما أخبرهم به البحارة، ولم يلبث أن لحقهم الباقون، فعادوا للتدافع من جديد وسط فوضى عارمة، ووقف ريتشارد يراقب من دكة عالية، فشاهد صناديق تدلى على الماء لتفتح قيعانها فتظهر الخيول وهي تصهل برعب قبل أن

تهوي إلى المياه التي تعج بالماعز والبغال والكلاب والثيران، أما صناديق العفش فكانت تقذف إلى القوارب بجلافة فتنفتح وتتبعثر محتوياتها، وكان ما يسلم بها بالتحميل لا يسلم من التفريغ، إذا كانت الأمتعة وسط الفوضى التي تحولت إلى هيستريا، تقذف إلى اليابسة بدون اكتراث حتى امتلأت الشواطئ بأكوام الصناديق وأكياس الطحين والمقالي والأفران ودكك الخشب المقلوبة، والعربات الصغيرة وأكياس التبن.

وتدافع الرجال الذين نزلوا يبحثون عن أمتعتهم، فيما تجمعت أكوام من العفش على ظهر الباخرة، فتسلق بعضهم هذه الأكوام وراحوا يقرؤون أسماء أصحابها من أوراق مزقوها من سجل السفينة وذلك قبل أن يتبرعوا هم بقذفها.

وحين لم يجد ريتشارد مكاناً له على أحد الزوارق قفز بالماء مع كيسه وما إن أحس ببرودة الماء حتى انتفض بشدة فالماء كان رغم صحو الطقس صقيعياً حتى خال أطرافه قد تجمدت فأخذ يكافح بالسباحة بيد واحدة ورجل واحدة باتجاه واحد هو لسان رملي صغير ممتد من الشط، فيما حمل باليد الأخرى حزمة الكيس من أعلاه وأسنده من أسفله بطرف رجله حتى لا يغوص بوزنه الثقيل للقاع، وأحس بنفسه يبذل جهداً جباراً بالسباحة، وما أن وصل على الشط الرملي حتى ارتمى وقد عجز عن تحريك أطرافه الثلاثة وسط غيظه الشديد فيم حاول بيده الوحيدة القادرة شحط نفسه على رمال الشط بعد أن غرس أصابعه بها، حتى ابتعد عن الماء وارتمى منهكاً، فيم كيسه يشرشر الماء ليرجع باتجاه البحر.

ولم ينته عذاب الركاب ففيما كان ريتشارد يراقبهم، بدأت آثار المد المرتفع تظهر لتغمر العفش وأكياس المؤن الملقاة بثقلها وقد بللها الماء عند أطراف الشاطئ، مما ضاعف وزنها وجعل سحبها من أصعب الصعوبات على الرجال المهدودين الحزانى، فقد فسدت كل أكياس التبن والطحين والأرز

والـشوربة المجففـة والـسكر والـشوفان والبطاطـا الـتي أنفقـوا كـل مـدخراتهم لشرائها بعد أن تبللت بمياه البحر، فارتمى الكثيرون على الرمل ينتحبون.

وما إن فرغت السفينة حمولتها حتى كان الشاطئ يضج بمختلف الأصوات مـن نبـاح الكـلاب إلى صـرير المركبـات ونـشى المناشـير، وقرقعـة الـنيران الـتي أشعلها الرجال وهم يشتمون ويلعنون ليتدفئوا عليها وينشفوا ملابسهم، وبذات الوقت بدأت مضخات الفاريا تعمل، فبدأت تنسحب بهدوء وتعود للطفو وسط دهـشة بعـض المـسافرين علـى الـشاطئ الـذين اعتقـدوا أن القبطـان والبحـارة خدعوهم ليتخلصوا منهم.

مجتمع..

كـان عدد من النازلين للشط مـن الـذين خسروا كـل مـدخراتهم بأكيـاس المـؤن وهـم يراقبـون أحصنته الطافيـة بعـد غرقهـا علـى سـطح المـاء المتمـوج وهـي تـصطك بخـشب عربـاتهم المكـسرة، أدركـوا أن علـيهم أن يكـافحوا للبقـاء فبـدأت عمليـات النـصب والاحتيـال، فبـدأوا فـوراً كـون عـدد مـنهم (نـصابين محترفين سابقين) بلملمة الأخشاب المكسرة وبنـاء أكشاك صغيرة علـى عجـل هـي مكـاتب مزورة لبيع المعلومات حول أماكن التنقيب، ومـا يجـب علـى المنقب شـراءه مـن عـدد ناقـصة، وانتحـل بعـض الأشـخاص بطريقـة مـضحكة صـفة بوسطجية تلغراف[1]، وراحوا يرسلون برقيات مزيفة في مقابل مبالغ معينـة، علمـاً بأن الأسكا لم تكن مربوطة بالعالم الخارجي بأي كابل.

وصار كل شيء بثمن بتلك البقعة الساحلية، إذ صـار لزامـاً علـى كـل مـن بقي لديه المال أن يدفع أجرة الخيمـة الـتي يستأجرها، بـل والأرض إذا أراد عمـل

---

١ التلغراف هو فاكس يدوي ظهر بالنصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وترسل الرسائل به بواسطة إشارات مورس باليد حرفاً حرفاً.

خيمة بنفسه عليها ، وكذلك يجب الدفع لغسل الملابس وقص الشعر ، فهذه البقعة القريبة من سكاغوي تحولت إلى مجتمع بذاته ، ثم لم تلبث أن اتصلت بسكاغوي نفسها.

وكان من الطبيعي أن تجتذب سكاغوي كل أنواع الأفاقين الذين أدركوا أن الثروة ليست بالذهب بل بجيوب أولئك الحالمين به ، فبائعو الأدوية (الخارقة) ذات القدرة الهائلة والسريعة في الشفاء من الأمراض. والمنجمون وخبراء الذهب المتأنقين والذين هم بالأساس بائعة خردة أو حدادين عاطلين عن العمل ، كل هؤلاء وجدوا مورد رزقهم بأماكن تجمع المنقبين بكل المدن والضياع التي وقعت على طريق الإلدورادو بشمال ألاسكا وبالإلدورادو نفسه.

الطريق الطويلة

وقف ريتشارد خارج خيمته يتأمل المنظر وهو يراقب مصوراً ينصب عدته لكاميرته ليلتقط صوراً الواحدة منها بعشرين سنتاً. وأدرك أنه يجب أن يعتمد على نفسه ليتوصل إلى الأسكا وإلى امتلاك منجمه الخاص بها ، فراح وذهب إلى مطعم داخل خيمة مهترئة افتتحه أصحابه بعد أن خسروا ما كان لديهم من عدة وخيول. ولكن نجت مؤنهم فصاروا يقدمون اللحوم والحبوب والشاي والقهوة وفي الواقع فهم لن يغادروا سكاغوي أبداً ، فقد أتضح لهم أن وضعهم أربح وأسهل من السعي وراء الذهب خصوصاً مع قدوم منقبين جدد بالألوف بعد عدة أيام من نزولهم ، وهناك وبعد أن تناول ريتشارد وجبته ، وفيم هو يشرب القهوة الممسوخة الطعمة ، قرر أنه إذا لم يكن الأسرع بالوصول للإلدورادو فإن حصته قد تذهب لغيره فأنهى كوب قهوته بهدوء ، وانسل من باب جانبي دون أن يدفع الحساب مستغلاً خناقة صارت بين عدد من الزبائن وصاحب (المطعم) بعد أن أتهموه أنه قدم لهم ستيك لحم حمير بدلاً من الأحصنة...!

ذهب إلى خيمته ووضب أغراضه واستغل للمرة الثانية غياب صاحبها لشراء أغراضه، وانسل بين الجموع باتجاه الشمال، وما أن قطع عدة كيلومترات حتى شاهد أمامه وادياً مليئاً بالأشجار فوقف يستريح ويتأمله فصار يسمع أصوات أناس من بين الأحراج. فنزل بهدوء وصار يمشي بين الأشجار محاذراً السقوط باتجاه السفح.

وبعد عدة مئات من الأمتار قطعها وهو يمشي دون إصدار صوت لمح هو خلف إحدى الدغلات حصاناً ذكره بحصانه الذي تركه بالكولورادو فبحث عن صاحبه... فأبصره قد نزل إلى سفح الوادي ليعبئ الماء بدبجانتين من نهر صغير فتلفت حوله فلم يبصر أحداً.

وكان المنظر رائعاً يطل على الوادي وصوت العصافير وخرير المياه يملأ المكان، فيم امتدت صفوف من أشجار الدلب بلون الحنة الفاتحة والقيقب المصفر وقد تلونت أوراقه بالأصفر المائل للبرتقالي قبل سقوطها على الأرض، فيم امتدت أشجار خضراء لا عد لها افترشت الأرض ببساط من الأوراق الذابلة الرطبة، وأبصر ريتشارد أمامه قمة جبل عال بالناحية الأخرى للوادي فيم أنساب الوادي نفسه باتجاه الشمال، إلى مخرج كان يبدو له من بعيد كبوابة مستورة بالعرض بزاوية تجاه نظره.

رجع لقرب الحصان وتفحصه فوجده مسرجاً، وقد حُمِل عليه خيمة وكيس نوم وأكياس أخرى بدت له منفوخة بأشياء لم يتبين كنهها، فك الحصان بتمهل وقاده باتجاه زاوية جانبية بين الجبال وبدقائق معدودة كان قد توارى عن الأنظار، وقرر أن يسلك الطريق باتجاه المخرج الذي شاهده عن سفح الوادي، واستمر يسير حتى الليل عندما سمع صياح رجال يتنادون قريباً منه، فدخل هو والحصان دخلة مخفية بين الأشجار حتى إذا مروا بقربه لا يشاهدوه، وهناك استسلم لنوم عميق من شدة الإجهاد فيم نسي أن يربط حصانه.

وعند الصباح أفاق فلم يشاهده فأصابته نوبة من الجنون، فقد تذكر أنه قد وضع كيسه عليه ودك كيس نقوده بمكان مخفي تحت السرج، وبعد أربع ساعات كاملة من التدوير لم يصدق ريتشارد عينيه عندما أبصر الحصان يقف عند مخرج الوادي يهز ذنبه ويرعى الأعشاب.

تأكد من كيس نقوده وتفحص باقي أحمال الحصان فوجدها تحتوي على أكياس من الفاكهة المجففة واللحم المقدد، ولدهشته أبصر فانوساً معلقاً بخرج على جنب الحصان، فأعاد تسريجه ورتبه من جديد، وأفطر على قطع من اللحم المقدد.

وأمسك تفاحة محلاة بيده، وباليد الأخرى ساق الحصان فألفى نفسه يتوجه نحو مغاور بعيدة بقلب الجبال فعرف أنه إذا لم يتجاوزها بذلك اليوم فإن الصقيع سيقتله إذا بات ليلاً وسط تلك الجبال العالية، فصار يحث الحصان على الإسراع، ويتلفت كل مدة حوله خشية أن يكون أحد ما يلاحقه.

استمر يقطع المفارز عدة أيام وباليوم السادس أشرف على وادي فسيح هو الفسحة الوحيدة بين جبال عالية مكسوة بالثلج، وكان الوادي مليئاً بالناس والخيام وحيوانات الجر، ويسوده الهرج والمرج حيث بدا أنه إقامة مؤقته، فتقدم وسأل عدداً من الناس عن اسم المكان والطريق إلى الإلدورادو فأخبروه أنه قد وصل لتوه إلى بداية طريق (تلة الشيطان).

صعق للاسم، فأشار أحد الرجال إلى مجاز ضيق يتلوى على حفاف جبل إلى اليسار ثم يختفي بين جلاميد الصخور والجليد، وقال له: سنعبر من هنا فالإستراحة قاربت على نهايتها وسيتوجهون كلهم نحو داوسن.

كان أول مرة يسمع ريتشارد بداوسن، وعرف من المسافرين أنها مدينة بالشمال تقع ضمن أراضي التعدين، ولاحظ وهم يتكلمون عنها أنها أسطورة

المنقبين، ورمز الغنى والثراء الخياليين. وبعد مدة انتهت فترة الاستراحة وقبل نهاية الصباح وبدء الظهر.

بدأ الناس ينتظمون بطابور طويل وريتشارد غير مصدق ما تراه عيناه فالناس الديماغوجيين قد بدأوا الانتظام برتل يبدأ من سفح الجبل وبدأ الرتل يتطاول حتى وصل حيث يقف، فصرخ به أحد الرجال غير المبالين هل سنقف بالطابور بانتظارك حتى بكرة، فانتبه ريتشارد وصفَّ بالدور.

تحركت القافلة وبدأت تصعد الجبل، بعد أن ربطوا أنفسهم ببعضهم أيضاً، حتى صاروا كسلسلة طويلة. خشية الوقوع بالأودية، ولما اقتربوا من تلة الشيطان صاروا يسيرون بمحاذاة بعضهم حذر الوقوع حيث كانت الوديان شاهقة لحد مرعب، وبدأ ريتشارد يحس بالتعب بعد عدة ساعات من المسير فوق الجلاميد الجليدية والصخور الحادة، وكاد أن يقع عدة مرات بالوادي فيم بدأت الأمطار والثلوج تتناوب بالسقوط حسب تقلبات الطقس المزاجية وكانت (تلة الشيطان) تمتد على مسافة ٧٥ كيلومتر عبر سلسلة من الحواجز الجبلية.

وحين كان بعض المنقبين ينظر للأسفل كان يشاهد أحياناً بقايا جثث الحمير والبغال النافقة بعد أن كانت أرجلها قد زلت وسقطت بالوادي من شدة التعب، فيم تكدست حولها أكوام عُدد التنقيب.

وكان ريتشارد ينظر حوله أحياناً فيشاهد سواقي صغيرة من الوحل تنساب على الجنبات الصخرية الصخرية للجبال لتصب ببرك من الوحل. ومستنقعات آسنة بأسفل الوادي، فيم كانت شتائم الرجال وأناتهم تسمع وهم يسوقون قطعانهم، وفي ذلك الشتاء نفق ثلاثة آلاف حصان في ممر وايت، ولقليلة هي البهائم التي أطلق عليها أصحابها رصاصات الرحمة تخليصاً لها من عذابها، فالرحمة لم تعد تعرف طريقاً إلى قلوب أولئك الرجال الكادحين في اتجاه ممر وايت. فقلوبهم تحولت حجاراً صماء، وتحولوا هم حيوانات ضارية، وكان هذا

رأي كل من زار هاتيك المواقع بذلك الشتاء الرهيب ١٨٩٧-١٨٩٨، وقد روى بعض الشهود الأحياء ممن سافروا ذلك للصحفيين فيما بعد.

ولم يستطيع البعض مجاراة هذه الأوضاع فغادروا من حيث أتوا بعد أن خسروا حيواناتهم وعُددهم، وهناك فوجئوا بأن الطيور قد أتت على مواسم الحبوب القليلة المزروعة في سكاغوي، ولم يكن هناك تجارة أو محلات بقالة ومخازن مال قبان أو مخابز لأن فورة الاستيطان كانت جديدة، فاكتشفوا أن كل إنسان لم يحمل معه مئات الأرطال من المؤن له ولرفاقه سيقضي جوعاً وبرداً في تلك البقاع المقفرة، وقلة من المنقبين كان قد حمل الواحد منهم ٣٠ كيلو غراماً من المؤن للشخص الواحد استطاعوا أن يبقوا هناك للربيع القادم.

أرض الذهب

في كانون الثاني (يناير) وصل ريتشارد مع قافلة بقي بها حوالي مائتين من المنقبين المنهكين إلى داوسن، وما أن حطوا رحالهم حتى وجدوا أن ثمانية قوافل قد سبقتهم وقد ارتفعت الأسعار حتى الجنون، فكان الإنسان يضطر لدفع أجرة يومي عمل في الكدح الشاق بالمناجم ثمناً لوجبة هزيلة، وصارت أسعار النوم على الأرض (بأوتيلات) داوسن خيالية، وإيجار أوضة حقيرة بـ ١٠٠ دولار بالشهر .. أي .. أكثر من مئة ضعف أجرة أوضة حسنة بنيويورك وواشنطن بذلك الزمان.

وبيعت قطعة الأرض الواحدة بعشرين ألف دولار بوسط المدينة، مما كان يكفي لبناء مدينة كاملة بالوسط الأميركي بكولورادو وكنساس وغيرها من الولايات.

مد ريتشارد يده لجيبه فألفى قد بقي معه دولار ونصف، فضحك ضحكة هستيرية لم يلاحظها أحد حيث كان يقف بمنتصف مكان كان سوقاً وزريبة

وشارع وبورصة ومستودع بآن واحد، وصار يفكر في سره ماذا يمكن أن يفعل وصار يقول لنفسه: لقد كانت حالي بكولورادو أحسن حتى لو رجعت لفرجينيا وعملت حداداً بإحدى الورشات لربما كنت أحسن حالاً الآن.

وفجأة اقتربت منه مجموعة من الرجال وسأله أحدهم: هل هذا الحصان والعدة للبيع؟ التفت إليه ريتشارد فأبصره رجلاً جباراً قوي البنية حتى ليبدو وكأنه ثور، وأبصر باقي الرجال بسحناتهم المغبرة مثله، ففكر للحظة وبعقلية المقامر أجابه: لا إنه ليس للبيع لكن يمكن أن أفكر حسب السعر. ففهم الرجل خبثته فحك ذقنه التي تبدو كالمقشة وقال: هل تقبل بمئة؟

ريتشارد: مئة ماذا.. ألف..!

الرجل: نريد أن نباشر العمل ومزاجي لا يميل للمزاح سأعطيك مئة دولار لكل من الحصان والعدة.. هه..

ريتشارد وهو يضحك: أنا أحب المزاح ولكن مزاجك سخيف وغير مسلي، اسمع سأعطيك سعراً حسناً خمسة آلاف دولار للاثنين.

صعق الرجل: هل أنت مجنون، أنا أستطيع شرائك وكل رجال المعسكر مع قطيع من أجود الأحصنة بكاليفورنيا بنصف هذا السعر.

ريتشارد وهو يمسك باللجام جاراً الحصان وراءه مغادراً: حسناً.. عد إلى كاليفورنيا واشتر ما قلت وبنصف نصف الثمن أيضاً.

أدرك الرجل الذي كان قد فقد مع شلة أقربائه خيولهم وبغالهم وعددهم كلها أن ريتشارد قد استحكمه، وكانت حمى الذهب قد (لطشت) كل تفكيره فصاح به: حسناً سأشتري.

جمد ريتشارد وهو لا يصدق فهو لم يحلم قط بحياته أن يلمس حتى مبلغاً كهذا.

وقبيل مضي نصف ساعة كان ريتشارد قد وقع عند (كاتب عدل) ارتجالي كمبيالة بيع حصانه وعدته وقبض الثمن رزمة من المال، فكها وعدها كالمسطول.

ربيع دواسن

خارج البلد قرر ريتشارد أن عليه أن يغير كاره فقرر نسيان التنقيب والجري وراء الربح السريع، فاستولى على قطعة أرض كبيرة بوضع اليد وبنى هناك وكالة تجارية كبيرة لم تكلفه مع أخشابها المهترئة الرخيصة أكثر من خمسمائة دولار وكتب آرمة بالخارج (دوغلاس للتجارة نبيع ونشتري أي شيء) ولم يمر شهران حتى أترعت الوكالة بكل شيء فكل من كان يملك حصاناً أو بدلة أو فانوس أو حتى كيس طحين لا يلزمه، كان يبيعه (لوكالة دوغلاس)، وكذلك من احتاج لصباط قديم أو كسر كريكه أو اهترأت جواربه فكان يذهب لوكالة دوغلاس، وقد ساعده ارتفاع الأسعار الخيالي على الإثراء بطريقة جنونية فباع المكنسة بـ ١٧ دولار، والمسامير لغرض فورة البناء ارتفع سعرها فبيع الصنف كيلو غرام بثمانية دولارات، ومع الصيف عج نهر اليوكان الذي تطل عليه داوسن بالسفن التجارية، بمداخنها الصفراء التي تنفث دخاناً أبيض وعجلات التجديف التي تعمل بالبخار، والبيارق المرفرفة فوق الصواري، فقد وصلت إلى ميناء داوسن ٧٦ سفينة تحمل ٦٧٠٠ طن من البضائع المختلفة لتفرغها على الأرصفة. المكونة من ألواح من الخشب قامت ببنائها بلدية داوسن بطريقة بدائية لكن ناجحة، وعندما تعطلت عدد من السفن نتيجة حمولتها (الزائدة) الغير قانونية قامت ثمانية من لنشات البحر البخارية بسحبها إلى الميناء البدائي.

الانفجار

اتخمت داوسن بكل أنواع البضائع التي اشتراها الذهب، فصار يمكن تقديم المحار المشوي والكركند مع (صلصلة نيوبرغ) الفاخرة، ولحم الموظ المشوي وأفخر أنواع الكونياك بالمطاعم التي أخذت تكتسي حلة فاخرة مع ازدياد الزبائن (المهمين)، وصار يمكن شراء قطن كازخستان وكنزات من الصوف الإيراني الفاخر للشتاء بسوبر ماركات - جنرال - بوسط البلدة، وتدفقت كميات هائلة من الأحصنة والبغال وعدد التنقيب على طريقة المجاميع أو سير الحركة، إذا أن عدداً من ملوك الإلدورادو الجدد الذين قامت داوسن في الحقيقة على أكتافهم اشتروا أراضي تنقيب واسعة على الجاهز من نقودهم التي وفروها عندما كانوا منقبين فرديين، واستأجروا عمال ممن لم يسعفهم الحظ ووصلوا متأخرين، للعمل بها، بخطوط إنتاج يمتد الواحد منها عشرات الأمتار ويتكون من عشرات الفلاتر والمناخل الصناعية والسواقي الخشبية المعدة لاستقبال شلالات الماء مع الطين والغرين والبحص والأحجار لفصلها بالمناخل التقليدية، وتتكون من صندوقين وأحدهما فوق الآخر، ويزاح الأعلى بعتلة تحرك باليد متى امتلأ بالغِرْيَن والحجارة بعد تسليط الماء عليه من أنابيب خاصة، ويحرك العامل اليد ليهزه كل حين فينخل الحجارة والبحص ويفصلها عن الطين والمحظوظ من صادف قطعاً أكثر من الذهب، وهكذا كانت الإلدورادو اختصاراً لحياة البشر فالأغنياء المحظوظين ازدادوا غنىً، والكادحين تشققت أيديهم وتقوست ظهورهم وأُدميت أرجلهم ولف الغبار أفواههم.. من أجل.. ذهب الآخرين.

المذبحة

من كان يأتي في بداية عام ١٨٩٧ كان يشاهد ببونانزا ونهر كلو نداليك قرب داوسن جبالاً كستها الأشجار والثلوج وطيوراً تسرح وتمرح، لكن وبأقل من عام صار المنظر رهيباً، آلاف الأشجار قطعت ليصنع منها عدة للتنقيب وبيوت وعفش، وتكون من الباقي حطب للتدفئة بأيام الشتاء، وأصبحت آلاف الدونمات قاعاً صفصفاً ومقلباً كبيراً نكتت به الأرض عاليها سافلها فانقلب لسبخات طينية بشعة تفوح منها رائحة النتانة وبراز الحيوانات والرجال وبولهم، كما أن ينابيع المياه النظيفة والسواقي الوادعة التي كانت تنساب بالربيع والصيف نحو الوديان، اختلطت بالوحول وجذوع الأشجار وجثث الخيول والحمير النافقة... لكن أحداً لم يكترث..

فوحشية الإنسان تجاه الطبيعة أعظم شيء بالوجود، كانت دائماً تجد مبرراتها والذهب أغلاها.

وما إن بلغ الصيف منتصفه حتى أصبحت داوسن اكبر مدينة بالغرب الكندي، فنمت كنبتة الفطر العملاقة، وكان سكانها يزيدون أو ينقصون مع كل سفينة آتية أو مغادرة، ومع كل منجم يكتشف أو ينضب وما أسرع ذلك مع هستيريا التنقيب، وبإحدى المرات عبر نقطة التفتيش الكندية تاغيش قرب الحدود ٢٨ ألف شخص، فيما وصل ٥٠٠٠ غيرهم في مراكب نقلتهم من ألاسكا دفعة واحدة عائدين لخط الرجعة، وبعدد سكان جاوز الثلاثين ألفاً. حق لدواسن أن تتباهى ببنكين وجريدتين يوميتين وخطوط تليفون وسينما.

وانتقلت الفوضى التي عمت طريق الرحلة إلى شوارع المدينة التي كان شكلها يتغير كل يوم لا بل كل ساعة، لا خرائط ولا عناوين ثابتة فالرجال والخيام والأكواخ في حركة دائمة وتغير مستمر.

وفي ذلك المزيج من الأخشاب وقماش القنب راح الرجال يسيرون في دوائر يفتشون بخجل وارتباك عن شركاء الماضي ليصلحوا ما بينهم من خصام على حقوق التنقيب، بعد أن خسروا كل شيء، ولم يكن الحظ حليفهم في غالب الأحيان، فالذي ينتقل من مكانه كان عادة يفقد الصلة بمعارفه وأصدقائه.

وبدأ الناس يعلقون رسائل وإعلانات على لوحة النشرات في (شركة ألاسكا التجارية) يعلنون فيها تقديم مكافآت إلى من يرشدهم إلى أصدقائهم القدماء، ولم يخل شارع فرونت أبداً من أناس يبحثون عن آخرين، أو من أشخاص التقوا بعد طول فراق فجلسوا على الرصيف وغرقوا في الحديث.

وفي شهر أغسطس عرف شارع فرونت فورة الذهب في عزها، فقد غص بالبيارق والآرمات التي كتب عليها بأحرف عريضة - ذهب.. ذهب، نشتري ونبيع ذهباً والسعر الرائج للذهب كان ١٦ دولاراً للأونصة.

مرة أخرى اختلفت حقائق الأمور عن ظواهرها، فنادراً ما كان الذهب صافياً، بل كان مشوباً بالنحاس والحديد والرمل، وقاعات الرقص التي صدحت منها الموسيقا وأنغام البيانو لم تكن سوى زرائب مكشوفة جملت بواجهات زائفة.

والأختان أو تلي اللتين كانتا تقدمان عروضاً غنائية مرحة، على مسرح غير منجز كانتا في الواقع أماً وابنتها.

لكن ذلك لم يكن مهماً.. فعندما غنت المرأتان بأصوات رنانة كالجرس، وأنشدتا الأغاني العاطفية الرائجة، خيم على الحشود المجتمعة صمت عميق، فالزاحفون إلى حقول الذهب كانوا بعيدين جداً عن مواطنهم، وأحدث رسائل تسلموها كتبت قبل أشهر، لقد حملتهم الأغاني إلى البعيد في أواخر شهر أغسطس ضربت موجة صقيع المدينة، وذبلت الأشجار، البتولا والحور في أعالي

التلال. وواجه جميع السكان القرار الحاسم، فأكثر من ثلث الذين تدفقوا إلى داوسن في شهري يونيو ويوليو ولم يحالفهم الحظ، ابتاعوا تذاكر سفر على متن إحدى البواخر وغادروا المدينة إلى الأبد، أما الباقين فكانوا من الذين لم يستهلكوا كل مؤنهم، وهم شرعوا للحال في بناء أكواخ جديدة توسع المدينة من جديد استعداداً للشتاء، واخذ بعضهم يقوم بأعمال مؤقتة للصمود حتى الربيع، وقرر المئات غيرهم المجازفة، وانطلقوا خارج محيط التنقيب حول داوسن إلى أماكن أبعد بالجرود والغابات الجبلية، وإلى الجداول والأنهار البعيدة، معيدين قصة سفرهم الأول من البر الأمريكي، لكن بطريقة مختصرة وعملية أكثر. إلى مناطق قيل لهم أنها مغطاة بالذهب ومفروشة بالحصى المكفّت بمختلف خامات التبر.

هل حقيقة أن سنة واحدة فقد انقضت منذ سحرتهم تلك القصص والأخبار! كان يبدو واضحاً أنهم لم يتعظوا أبداً.. إلى الأمام شقوا طريقهم في محاذاة نهر كلونديك، إلى بونانز والإلدورادو، لا ليتقدموا بطلبات تعطيهم حق التنقيب أو الملك، بل ليكدحوا عند الذين حظوا بالثروة.

أصل القصة

قبل أن يكتشف جورج كارماك ورفاقه من الهنود الذهب في خليج بونانزا يوم ١٦ أغسطس ١٨٩٦، كانت مستجمعات الأمطار في وادي كلونديك، كمئات غيرها، قد أحدثت حفراً وأخاديد في نجود اليوكان، فنتيجة نمط من التآكل والانجراف يعود إلى ملايين السنين، كانت هذه المستجمعات أودية عميقة لم يصل إليها الزحف الجليدي ليشوهها، تحوطها كالمصاطب منبسطات مرتفعة تشير إلى جيشان حصل في قشرة الأرض في زمن غابر وفي

قعر الأودية كانت الأنهر بمياهـا البيضاء المزرقة تجـري متموجـة بـين الطحالـب والصفصاف فوق حصى بلون الطبشور وهي تقرقر وتلمع.

لم يكـن ﰲ كلونـدايك عـرق ذهـب، بـل قطـع مـن البحص والصخور الـتي تفتـت إلى أحجـار منـذ أزمنـة سـحيقة وكـان يجـب حفـر كـل مـتر ﰲ الأرض لعشرات الأمتار نزولاً وأكثر، للوصول إلى الكسرات النفيسة.

وتعـيّن علـى المنقّـب أولاً أن يحفـر طريقـاً عـبر الجليـد الـسرمدي بحـرق الأخشاب، ثم بجرف الجليد والتربة المذابة وصولاً إلى الصخر الصلد.

وإن لم يعثـر هنـاك علـى الـذهب . فعليـه أن يعيـد الكـرة إلى أن يعثـر علـى ضـالته، وبعـد ذلـك عليـه أن يشق نفقـاً جانبيـاً ﰲ الجليـد متتبعـاً مجـرى الجـدول القديم. وكان ذلك يتطلب رفع التراب إلى السطح بواسطة دلو.

تلك الأعمال فرضت على المنقبين الاستعانة بعمـال مـأجورين. وهكـذا فـإن الوافـدين الجـدد ظنـوا أن الـذهب يـستخرج كمـا تـستخرج البطاطـا، وجـدوا أنفسهم محشورين ﰲ جوف الأرض أياماً وأسابيع متتالية يعملون بأجر ويضربون الجليـد الـسرمدي الـصلب كالـصوّان ويلـهثون ويكـادون يختنقـون ﰲ مهـاوي المناجم ومداخلها المفعمة بالدخان، فيما ضباب الشتاء يلـف الـوادي فـوقهم، أمـا الليالي فأمضوها ﰲ ضوء الشموع ﰲ أكواخ خشبية، عبقت فيها الـروائح النتنـة المنبعثة ﰲ الثياب التي نشرها أصحابها لتجف فوق أفران حمراء كالجمر.

وكانـت محنـة أخـرى تنتظـرهم كـل ثلاثـة أيـام. فالميـاه كانـت تقطـع عـن القنـاة تمكينـاً للعمل مـن رفـع (الحصير) مـن قعـر المنجم وغسل الـتراب باليـد، وكانوا من اجل ذلك يجلسون القرفصاء طوال النهار فيما أكتافهم وسواعدهم ﰲ عمل لا ينقطـع يغـسلون الـذهب - ذهـب سـواهم - أونـصة بعـد أونـصة، وهـذه العملية كانت تتكرر مرات حتى لا تبقى ذرة من التراب الذي نقلوه إلى السطح

في الشتاء من دون غسل.

أغلى قطعة أرض في العالم

عند ملتقى بونانزا والإلدورادو، في نقطة لا تبعد كثيراً عن الأرض التي تملكها كارماك، بلغت حمى العمل ذروتها، فنهر إلدورادو الغني في كونديك. والذي استقطب ٣٠ طلب تمليك بلغت قيمة الواحد منها مليون دولار، كان يصب مباشرة في أغنى زاوية في بونانزا، في قطعة مثلثة يتجاوز عرضها الثمانية وعشرين متراً. واشتهر هذا المصب باسم (أرض ديك لوي).

وعرف كأغلى قطعة أرض في العالم. فهو وجد عرضاً نتيجة قسمة غير دقيقة قبل بها أحد تجار الجلود بعد تردد. وكان أن حصل منها لاحقاً على نصف مليون دولار.

وكان في وسع العمال أن يلمحوا ديك لوي نفسه وهو يترنح مطروباً، ويدفع عربته التي تجرها الخيول الجميلة على طريق الوادي.

كانت غراند فوكس ثانية كبرى المدن في يوكان بعد دواسن، وكان عدد سكانها يزيد أو ينقص قليلاً عن ٥٠٠٠ إنسان بوقت فورة الذهب أما النخبة الاجتماعية فيها، أي (ملوك الإلدورادو) فكانوا قبل عامين فقط معدمين لا يملكون شيئاً، ولكن بالنسبة إلى الوافدين حديثاً كان لأسماء أصحاب الملايين هؤلاء الذين اغتنوا بسرعة وقع سحري، حتى أن قصصاً مزورة مضحكة قد انتشرت عن هؤلاء، فواحدهم وكان اسمه كلارنس باري كان يروى عنه أنه من شدة غناه وما استخرجه من ذهب فقد ملأ منه صفيحة ووضعها أمام باب بيته مع آرمة كتب عليها تفضل؟!.

هذه القصة وغيرها التي صعب تصديقها ألهبت خيال الزاحفين إلى كلونديك. لكنها بذات الوقت لم تكن كذباً محضاً. وإن كان بعضها لا

يعقل. فقد وجد رجل يدعى غيرتي. كان قد ركب لنفسه سناً من الألماس، وقد قال مرة لمحدثيه: لم يكن بوسع هؤلاء من الغربيي الأطوار إلا أن ينفقوا الذهب كانوا يخشون أن تنتهي حياتهم قبل أن يستخرجوه كله من جوف الأرض، فقد أصيب عدد كبير من المنقبين بداء الإنفاق، وعندما نصح بات غالفن أحد أصحاب الملايين في بونانزا بالحرص على أمواله صرخ في ناصحه:

مصاريف: لا أريد أن أسمع هذه الكلمة ثانية هنا! وإياك أن تلفظها في حضوري، هذه الكلمة لا يفهمهما أحد في الشمال. إن كنت تملك مالاً فاصرف. فالمال وجد ليصرف..، وما إن حل ربيع ١٨٩٩ حتى كان أنفق ماله كله.

ولم يترك ملوك الإلدورادو شيئاً إلا حاولوا عمله، فقد امتلك اثنان منهم مجموعة من كلاب الاسكيمو النادرة، بلغت قيمتها عندما عرضت عليهم ليشتروها ٢٥٠٠ دولار، فيما اشترى منقب يدعى مورجان قطاراً خاصاً به.

عاش الرجال في داوسن ليومهم كأنهم في حرب، ووسط كل هذا الترف بلغ ريتشارد دوغلاس قمة الثراء إذ درت عليه أعماله التجارية أرباحاً هائلة وبخلال سنة ونصف غدا من أصحاب الملاكات، فامتلك ثلاثة أوتيلات كان يقيم بإحداها وكان لديه مخزنه الخاص وكاباريه مع باركن...

مكان مهجور

سمع بأحد الأيام من أحد زبائنه الذي عاد لتوه من منطقة جبلية غير معروفة تبعد حوالي الثلاثين كيلومتر عن داوسن بأن هناك عرقاً كاملاً للذهب موجوداً عند احد سفوح تلك الجبال، فتنحى به دوغلاس جانباً، وجلسا بزاوية منعزلة بالرسبشن يتحادثان بشكل خافت فأخبره الرجل أن اللصوص قد سطوا على عدته وأمواله بطريق العودة، لذا فقد عاد ومعه سند تمليك بولاية يوتا

لأرض زراعية وبيت قديم يريد رهنهما عند بنك محلي مقابل ألفي دولار يحصل عليها نقداً ليعود وينقب بذلك المكان، ولكونه زبوناً سابقاً بالأوتيل واشترى عدته من وكالة دوغلاس، فقد فكر أن ريتشارد قد يوافق أن يكون شاهداً على عقد الرهن، كونه يعرف ويشهد بأنه منقب سابق.

وفيم الرجل يتكلم و(يطق حنك) حول الذهب كان ريتشارد يحس بأنه يمسك فرصة عمره بيده، وفيم الرجل مسترسل بالحديث عن الأصفر الرنان بشغف، كان ريتشارد يحاول إقناعه عن ذلك المكان فلم يقبل وأصر على إبقاء المكان سراً يحتفظ به وحده.

رغم وعود ريتشارد بأنه سيشتري منه الذهب، لكن الرجل أصر على عناده. فقاطعه ريتشارد: هل تبيعني اكتشافك هذا؟ بهت الرجل، ثم طلب كأساً من البيرة وصار يصفن ويفكر، ثم سأله عن السعر! فأجابه: عشرون ألف دولار أدفعها لك فوراً.

صعق الرجل فالمبلغ مهول وكبير جداً وهو كل ممتلكاته لا يساويان ربعه ففكر قليلاً ثم صافحه وأجاب: بعتك اكتشافي.

وما مر ذلك النهار حتى كان ريتشارد هو الذي رهن كل ممتلكاته المنقولة وغير المنقولة لأحد البنوك، وفيما كان المدير يرمقه مدهوشاً وكان من معارفه الأقوياء بداوسن سأله باستغراب: لم تريد ذلك هل نويت الهجرة؟ ارتبك ريتشارد قليلاً ثم أجابه مع ضحكة مفبركة: لا .. لا لقد نويت التوسع وأنا رجل محظوظ وأريد أن أغامر بكل شيء.

قبل الرجل بالرهن لأنه كان يعرف سكان داوسن جيداً فكلهم مقامرون مغامرون.. وكانت معاملات البنك كلها من هذا النوع تقريباً، لكن الدهشة قد علته لأنه كان يعرف كم تعب ريتشارد حتى جمع هذه الأملاك، ولأنه

كان متأكداً من (تمسك) ريتشارد بداوسن كوطن نهائي له، كما كان يسمعه يردد أكثر من مرة.

لكن المدير رغم خبرته لم يكن قد عرف سكان داوسن على حقيقتهم مئة بالمئة فقد خدع هذه المرة، وما إن أخذ ريتشارد المال. وقد بلغ ثمانية وأربعين ألف دولار حتى رجع إلى الأوتيل واجتمع بمعاونه وأخبره أنه ذاهب ليزور أهله بفرجينيا فأوصاه بم يعمل وكيف يعد دفاتر الحسابات ليراجعها إثر عودته، ولما سأله الرجل كم سيغيب قال له: بضعة شهور سأعود بعد أن أسوي أموري هناك فلدي مشاكل عالقة يجب أن أحلها.

وعاد لرسبشن الأوتيل. وكان جماعة البنك قد أنهوا حصر ممتلكاته وأعدوا بها ليسته فمضى لهم على الأوراق، وكان المنقب ينتظره بأحد الزوايا. فطلب منه أن يتبعه إلى غرفة المكتب. وهناك وبعد أن أصبحا لوحدهما، أخرج ريتشارد ورقة كبيرة من درج مكتبه وطلب من الرجل أن يرسم عليها خارطة المنجم.

وعندما انتهى الرجل نظر ريتشارد إلى الخريطة فوجد أن موقع التنقيب مثالي نظرياً، فالتفت له: سأعطيك عشرة آلاف الآن وتوقع لي على ظهر هذه الخريطة بخط يدك على تنازلك عن ملكية هذا الاكتشاف لي، وعندما نصل للموقع وأتأكد من وجود الذهب فعلاً أعطيك العشرة الأخرى، فوافق الرجل مسروراً.

وبصباح اليوم التالي جمع ريتشارد أربعة من المنقبين (ذوي الخبرة) الذي يعرفهم بدواسن وأخبرهم بما اعتزم عليه وعرض عليهم العمل عنده بأجر مغر فوافقوا فوراً.

ولم يكن الظهر قد حل حتى كانت عربتان تخرجان من داوسن محملتان بالعتاد والرجال والعدة و.. المال، وعند ظهر اليوم التالي كانوا قد وصلوا، وما إن فحص منقبوا ريتشارد المكان حتى أحضروا له بأقل من ساعة حمولة مشنين من الحجارة والبحص المكفتين بشذرات من التبر الخام.

فسلم ريتشارد المنقب المال واشهد الرجال على تملكه للموقع، وما إن انتهوا من أمضاء الأوراق حتى أخرج ريتشارد من جيبه الداخلي كدسة أوراق محزومة أعطاها للمنقب أمام الرجال ففكها وعدها وراح.

النار

مرت الأيام وبعد حوالي الشهرين من غياب ريتشارد عن داوسن، كان ورجاله الذين أستأجرهم لـ التنقيب وعددهم يزيد على العشرين، يعملون على نقل المحصول إلى كومة كبيرة من الحجارة (المنخولة) لتصفيتها باليوم التالي، وكان الوقت قد قارب الغروب، وإذا بأحد الرجال يصيح ويؤشر بيده باتجاه داوسن ويقول: حريق.. حريق، فترك ريتشارد والرجال كل شيء وصعدوا إلى جرف قريب فشاهدوا حريقاً هائلاً وألسنة جبارة ترتفع نحو السماء، فيم الدخان قد شكل جبالاً متحركة فوق الموقع، خاطب أحدهم ريتشارد: إن الحريق قريب من داوسن علينا الذهاب للمساعدة في إطفاءه، إذ قد يمتد إلى المدينة، فوافقه الباقون لكن ريتشارد اعترض وقال لهم: يوجد فرقة إطفاء متخصصة وهم حتماً بطريقهم إلى المكان فلا داعي لوجودنا، إنهم يعرفون عملهم نحن لسنا رجال إطفاء.

ساد الوجوم فيم بدأ بعضهم بالاعتراض، وبعد جدل عنيف طرد ريتشارد ثمانية عشر منهم لأنهم عصوا أوامره وأصروا على العودة للمدينة، فقد كانوا ممن استدعوا عائلاتهم للإقامة معهم، كما كان لهم أملاك واستثمارات

صغيرة هناك، وأكثر ما كان يخشاه العزاب منهم هو أن تقترب النار من المدينة وتلتهم البنك حيث وضعوا مدخراتهم وذهبهم القليل الذي استخرجوه لحسابهم.

وما إن قطع هؤلاء نصف المساحة نحو داوسن حتى بدأت الشكوك تغير سحناتهم، فكانوا كلما اقتربوا يكتشفون قرب النار من المدينة وازدياد حجمها وما إن انتصف الليل، وتوقفوا للاستراحة حتى لاحظوا أن النار قد أضاءت لكيلومترات عديدة وبان على ضوئها الجبال والغابات بهيبتها الغريبة وهي مضاءة من ناحية واحدة بالليل، وبعد استراحة قصيرة لاحظ الرجال بخوف كبران النار إلى حد لا يصدق فقرروا المتابعة فوراً وعدم النوم بالبرية، وعندما اطل الصباح كانوا قد وصلوا لأطلال داوسن بطرف المدينة، إذ كانت المدينة نفسها هي التي تشتعل.

الإضراب الجهنمي

كانت القصة كما رواها لهم الناجون الذين قابلوهم عند حدود البلدة التي اتضحت كل تفاصيلها بعد مدة، هي أن مجلس بلدية المدينة قد تباخل ورفض أن يرفع أجرة رجال الإطفاء المحليين، وكانت تلك غلطة دفع ثمنها غالياً والمدينة معه، ففي أثناء الإضراب الذي أعلنه رجال الإطفاء اندلع حريق في غرفة بالطابق الثاني في خمارة تقع بشارع فرونت بوسط المدينة وتدعى بوديفا.

وخلال أقل من نصف ساعة كان نصف الشارع يلتهب ورفض الإطفائيون بلؤم رجاءات الناس الذين توسلوا إليهم أو تشاجروا معهم لكي يأتوا ويطفئوا الحريق، وقبل منتصف الليل كان المجلس البلدي منعقداً بجلسة استثنائية وقد رفض أعضاؤه بلؤم أشد رفع أجور الإطفائيين البسيطة وكان هؤلاء من أشد الناس فقراً في داوسن ومن أكثرهم خيبة للآمال، فأحلامهم بالتنقيب قد

تبخرت وضاع القليل الذي كان معهم أو كانوا قد جمعوه بتعبهم وعرقهم، فلجأوا لهذه المهنة الخطرة، ولم يكن مجلس البلدية يؤمن لهم أي عدة لحمايتهم أو أي ضمان للتعويض عليهم إذا تم تسريحهم، كما كانت مآويهم منذ وصولهم واستقرارهم، غاية في القذارة والسوء فحيطانها مشققة لا تقي الرياح وسقوفها مكسرة لا تسد المزاريب بل تشكلها إذا هطلت الأمطار، ولم تقم البلدية حتى بتوفير الفحم الكافي لهم للتدفؤ بالشتاء، أما الأسرّة والمقاعد فكانت مصنوعة من أكثر الأخشاب تسوساً، وأرخصها ثمناً وأشدها احتفاظاً بالرطوبة، ولم يكن لها فرشات!!؟

ولم تجد صرخات الناس التي شقت عنان الليل البارد بساحة التجمع أمام البلدية، في استجداء عطف المجلس، المشكل من مجموعة من (بورجوازيي التنقيب) و(ملوك الإلدورادو)، ومجموعة من المجرمين وقطاع الطرق.

وما أن أطل الصباح حتى كان الناس قد أخمدوا الحريق بجهودهم الذاتية، فقد تجمعت فرق محلية من الجيران، واستغلت وجود فراغات لا بناء فيها بين المباني وأوقفوا امتداد النار قبل أن تلتهم داوسن كلها.

وعندما عاد أصحاب الأملاك ليعاينو الأضرار وجدوا أن معظم الخمارات والكاباريهات قد انهارت، بعد أن كان الزبائن والراقصات قد هرعوا منها إلى الشوارع صارخين مولولين وتبعهم عمال البارات والموسيقيون وتركوها لمصيرها رغم استجداء أصحابها لهم ليساعدوهم بإطفائها، وتحولت أشهر الأبنية إلى رماد وركام، فقد التهمت النار بساعات أوتيلات ومحلات تجارية ملحقة ببيوت وكافيهات وصالونات حلاقة ومخازن، وقال والترواشبرون وهو شاهد عيان روى قصته فيما بعد وهو يراقب انهيار مسرح الأوبرا الذي يملكه: هكذا أقمته وهكذا ذهب فما هم!

١١٧ بناءاً انهارت بالكامل وتحولت إلى ركام يعج به الرماد المتطاير مع النسيم، لكن داوسن لم تكن مثل باقي المدن، ففي ذات اليوم بدأت عملية إعادة إعمارها، ففوق أشلاء المدينة قامت مدينة أخرى أجمل وامتن، نوافذها من زجاج وأرض أبنيتها مفروشة بالسجاد، مدينة عرفت الحمامات التركية والبياضات الكتانية والفضة والبلور والبيانوهات والكهرباء، ومع ذلك كانت داوسن قد تخطت ذروة ازدهارها وشعر بذلك الهبوط أواخر الوافدين الذين وصلوا من ادمونتون بعيونهم الغائرة وأجسادهم الناحلة بعد شقاء طويل استمر سنتين عبر ما صار يسمى آنذاك (الطريق الكندية).

ألوف الناس راحوا يذرعون الشوارع بحثاً عن عمل بات نادراً وفي العالم الخارجي كانت الحمى قد انحسرت. وأصبحت كلمة كلونددايك تردد باحتقار، وبيعت مقالي فصل الذهب كأوعية للجلي بنصف ثمنها الحقيقي.

اكتشاف جديد

بعد ذلك سرت من المدينة رعشة مألوفة فعلى بعد ٣٠٠٠ كيلومتر في محاذاة النهر، على شواطئ نوم في ألاسكا حدث أمر مثير - ثروة من الذهب تم اكتشافها وكالعادة كانت القصة بأنها ملقاة على الأرض بانتظار من ينتشلها.

وخلال شهر فرغت داوسن تقريباً من أهاليها، الذين اكتظت بهم السفن النهرية المتجهة نزولاً، الخمارات أغلقت وهبطت قيمة العقارات بطريقة شاقولية، وخسرت قاعات اللهو زبائنها، وخلال أسبوع واحد في شهر آب ترك ٨٠٠٠ شخص داوسن إلى الأبد، وانتهى الزحف في اتجاه كلونددايك ليبدأ في اتجاه أخر.

لم تدم حمى كلونددايك أكثر من سنتين، بدءاً بمنتصف صيف ١٨٩٧ عندما بلغ العالم الخارجي خبر اكتشاف الذهب، ومع ذلك فإن ٣٠ ألف شخص أقدموا خلال موسمين جنونيين على أكثر من هذا كله.

وفي منتصف ذلك الصيف كان ريتشارد يعاني من زيادة في المصاريف، فقد استبدل بنوبة غضب ثمانية عشر منقباً خبيراً، بخمسة عشر من الجدد من الذين وصلوا إليه عن طريق تاجر ذهب يتعامل معه، وكانوا بالنسبة إليه كارثة فطوال موسم الصيف كان يشك بأنهم يسرقونه من وراء ظهره، وتكررت مشاداته معهم بسبب جهلهم الاستخدام الصحيح لعدة التنقيب، فأمضى أيام متصلة يحاول تصليح ما خربوه بجهلهم وانعدام خبرتهم.

وقد زاد الطين بلة أن عرق الذهب كان صغيراً وقد بذل كل جهده لاستخراجه كله بصيف واحد؟!

وعندما حل الزحف الجديد وبدأت داوسن تفرغ من المنقبين، وصل الخبر إلى منجم ريتشارد عندما كان هو ورجاله يحاولون بناء برج خشبي لرفع الماء بإحدى الصباحات، عندما وفد تاجر عربة متنقل من داوسن كان يزودهم بالمؤونة، وما إن أخبر أحد الرجال بالقصة حتى تجمع الباقون يريدون سماعها، فأخبرهم بأن الزحف الكبير الجديد بدأ وأن (الشاطر من يجد قطعة أرض) أسرع من غيره.

وقبل أن ينتهي ذلك النهار انخفض عدد المنقبين لدى ريتشارد من واحد وعشرين إلى أربعة، وفيم كان يراقبهم غير مصدق وهم يصدرون الغبار خلفهم مغادرين المكان ومعهم ما قدروا عليه من عدة التنقيب، وكان قد حاول إقناعهم بالبقاء فطالبوه بزيادة أجورهم، ولم يصدق عندما طالبوه بأربعة أضعاف. فتركهم يرحلون.

وبعـد ذلـك بعـدة أسـابيع، وبيـوم كـان ينـذر ببدايـة الخريـف بهوائـه البـارد وأوراق البتـولا الـتي بـدأت تتسـاقط، قـدم رسـول مـن مـدير البنـك الـذي كـان ريتشارد قد رهن عنده مالكاناته، حـاملاً بوسـطة لريتشارد يطالبـه بهـا بسداد أول قسط من الرهن مع الفوائد وهو خمسة عشر ألف دولار ولما سـأله ريتشارد عن بـاقي الأقساط ومتى يجب أن يسددها أخبره الموظف أن ذلـك يجب أن يتم خـلال سـنة ونـصف إذ عليـه دفـع ثمانيـة وسـتين ألفـاً مـن الـدولارات علـى أربعـة أقساط.

وفيمـا كـان الرجـل يـشرب الويـسكي بـالكوخ الـذي يعمـل بـه ريتـشارد ورجالـه، كـان ريتـشارد يمعـن النظـر بـالطريق المغـبر المقفـر أمامـه ممتـداً بـين مفازات الجبال يعزله عن العالم، إذ لم يكن لديه أكثر من ثمانيـة آلاف دولار نقداً يحتفظ بهم بمكـان سـري داخل علبـة خلف مدخنـة الكـوخ، أمـا الـذهب الذي بذل الغالي والرخيص لاستخراجه فلم تكـن حصته فيـه تزيـد عـن ثمانيـة آلاف دولار أخرى، بعـد أن أخـذ المنقبـون حصـصهم قبـل أن يرحلـوا علـى أمـل أن يبيعوها بنوم بأسعار (ذهبية) وما كـان له أن يمنعهم، فقد كـانوا ليقطعونه إرباً بذلك المكان المهجور البعيد عن العمران فهم كانوا من عينة قطاع طرق.

وأسـقط بيـده فهـو منـذ أسـبوعين ينقـر الـصخر والـتراب والغبـار بمـنجم فـرغ منذ زمن فحينما تركه المنقبـون ورحلـوا كـانوا يعجـزون عـن اسـتخراج مـا يقـوم بأود يومهم.

قطع عليه الجابي صمته: هـه سيددوغلاس هـل جهـزت المـال؟ بغـت ريتـشارد والتفت إليه، وبعد صمت برهة رد عليه: النقود الآن ليست جاهزة عد بعد أربعـة أيام يكون رجلي المورد قد عاد من داوسن، بمال الـذهب، إذا أن شـحنة أرسـلته بها لم تعد بعد.

التحصلدار: حسناً يا سيدي أنا تحت أمرك.

وفيما الجابي يركب العربة ذات الحصان الواحد والتي كان قد قدم بها ويحث الحصان على السير، كان ريتشارد يبحلق شارداً في مصيره بعد أن قامر بكل ما يملك، وعاد للرجال ليكملوا حفر قناة صغيرة. ليلاً جمع ريتشارد كل متعلقاته وأغراضه وأسرج حصانين واحداً له وواحداً لأغراضه فيم أسرج باقي الرجال أحصنتهم وأسرجوا الأمتعة على حصانين آخرين، وقبل بزوغ الفجر غادر الرجال الخمسة أرض المنجم تاركينه لمصيره، وتوجهوا نحو الأراضي الكندية ليقطعوا بعدها باتجاه ولاية واشنطن في الجنوب.

وكان ريتشارد قد جمعهم وأخبرهم بما حصل وبقراره على الرحيل نهائياً، إذ أن أسعار أراضي عقاراته التي احترقت كلها لا يوازي كله بعد أن ترك المنقبون داوسن أكثر من ألف دولار إذا كان هناك من يشتريها، فوافقوا جميعاً على الرحيل ولكن...

بعد أن خرجوا من الموقع وصلوا لمكان قفر بعيد خلف الجبال، وهناك وعند الظهر حطوا رحالهم للاستراحة فسأل أحد المنقبين ريتشارد فيما هم يعدون لإشعال النار لشوي الغداء: هل المسافة بعيدة إلى الولايات المتحدة فأجابه ريتشارد نحن في الولايات المتحدة ونوم ألاسكا كلها أميركية، أم كنت تظنها تابعة للمكسيك أيها الأبله؟

بهت الرجال، وللحال دار بينهم وبين ريتشارد جدل عنيف، فهم أرادوا إنهاء مغامرتهم المجنونة بعد أن هدهم التعب والتجارب العديدة بالبحث عن الذهب، وهو أراد متابعة المغامرات حتى النهاية.

وكان أن وضعهم أمام الأمر الواقع بالنهاية، فعليهم العودة وحدهم إذا اختاروا ذلك أما هو فسيتابع نحو نوم.

أعادت تلك الكميات الحماسة إليهم وعندما قال لهم إن حياتهم لن تساوي شيئاً إذا عادوا لمواطنهم ومع كل منهم بضع مئات من الدولارات وبضعة صور هي كل ما سيتبقى أثناء رحلة العودة، وهنا وعندما رآهم ريتشارد مترددين كذب كذبته الكبرى فأخبرهم أن رجلاً قد أتى إليه من نواحي نوم وأخبره عن منجم جديد وغني وأنه قد دفع له لقاء ذلك ولن يتراجع بعد هذا.

لأن الرجال وبعد مدة كانوا جاهزين لإطاعة أوامره من جديد. بعد أن وعدهم بعطايا سخية من الذهب. وبعد ستة أيام وصلوا إلى منطقة جبلية مكللة بالثلوج، وكانوا قد اقتربوا من الدائرة القطبية الشمالية[1] وكان الوقت ما يزال صباحاً، فأصر ريتشارد على حث رجاله على اختراقها قبل الليل القطبي الطويل، فطلب منه أحد رجاله التريث وأن يستريحوا يومهم وبالصباح التالي يقومون بالعبور، لكن الحماسة كانت قد اجتاحته، فأمرهم بأن يبدأوا بالاستعداد للعبور.

وبعد فطور صباحي سريع مع القهوة الساخنة شدوا الرحال لقطع أحد الجبال من أخدود صغير يقع على جانب سفحه. وفيم هم يتابعون السير صارت أرجل الأحصنة تغوص بالثلج والوحل تدريجياً. وقرب العصر صاروا يسيرون في مخاضات من الوحول، وبدأت الأمطار تهطل وأعقبتها الثلوج ثم .. بدأت العاصفة، وحوصروا قرب تلة جبل صغير فيما هم يحاولون الوصول لمكان مرتفع عسى أن يقل عمق المخاضات وفجأة توقفوا!

---

١ - منطقة نفوذ قطبية باردة جداً تبدأ من خط العرض ٧٠° شمالاً باتجاه القطب الشمالي، ولا يحيا ضمنها إلا عدد قليل من البشر منهم شعوب الاسكيمو بأمريكا وكندا، والياقوت بروسيا، وتهبط بها درجات الحرارة صيفاً إلى حوالي ١٠ تحت أو فوق الصفر حسب التوقيت إذا كان ليلاً أو نهاراً، بينما شتاءً فهي ليلاً بين ٤٠ إلى ٧٠ درجة تحت الصفر، وبالنهار تكون حوالي ٢٠° تحت الصفر وتعيش هناك الدببة القطبية والفقمات.

لقد عجزت الخيول عن السير، وبدأ الثلج يتراكم، وفيم هم يتصايحون دب الخوف بقلوب الرجال الأربعة بعد أن صارت الرياح تعوي كالذئاب. ومع غروب الشمس بدأ الثلج يقترب من خواصرهم، وفي غمرة الفوضى رمى أحدهم بنفسه على سفح الجبل من ناحية زلقة فتزلج وتدحرج نحو الوادي وهناك وقف منتصباً وصرخ برفاقه بطريقة هستيرية: تعالوا.. تعالوا الثلج هنا خفيف وصلب وكان لا يغطس منه سوى رجليه إلى ما تحت الركبة وانزلق الرجال كلهم وهم يتصايحون مع الأحصنة نحو الوادي وهم يتشقلبون بجنون. وانقلبت الجياد وصارت تتدحرج وأحياناً تتزلج معهم. وبوسط هذا الهرج لم ينتبهوا إلى أن ريتشارد حوصر بالسفح، فقد علق جواده وسط الثلج فيما أعجزه البرد والثلج الذي وصل لخصره ولمستوى سرجه من الحركة.

تلفت ريتشارد حوله فلم يبصر أحداً وسط العاصفة وكانت الرؤيا لم تعد ممكنة لأكثر من عشرين متراً، وتبين له أنه من المستحيل أن يترك الجواد فهو محمل بذهبه الخام فبدأ يصرخ على الرجال حتى يعودوا لمساعدته لكنهم كانوا قد ابتعدوا. وعندما وصلوا للسفح جرجروا الأحصنة باتجاه مغارة بين الجبال تبين لهم أنها محمية من سفع السياط الصقيعية التي تجلدهم وهي تولول بجنون. فتوجهوا نحوها ولم ينتبهوا إلى أن ريتشارد قد اختفى.

حل الظلام ومرت ساعة ونيف على ريتشارد وهو يحاول جر الحصان بطرق مختلفة. وبدأ يحس بأطرافه تتجمد وعجز لسانه عن الحركة فيم بدأ يرتجف بشدة. وبعد أربع ساعات سفت الرياح القطبية الثلج بشدة فيما كان يتجه نحو الخدر بهدوء، وعندما طلع صباح اليوم التالي كان ريتشارد ملقى مع حصانه وقد فارق الحياة، فيما انتشرت الثلوج في كل مكان.

في ٢٢ أيار ٢٠٠٦

عند الصباح الهادئ



رحلة في أدغال الأمازون

أرسلت الشمس أشعتها الصباحية بين الأوراق الكثيفة للغابة الأمازونية الهادئة، فأنارت الفسحات المشلوحة بين الأشجار الملتفة، وكان هناك مساحة فارغة بين الأغصان، يظهر منها الأفق المترامي أمام التلة المرتفعة، حيث بدت الجبال مغطاة بالأشجار، ومن بعيد بدت شلحات الغيوم الخفيفة التي لا تنقطع بالمناطق الاستوائية.

بدأ إليكسي شو ماتوف وهو شاب أميركي من أصل روسي قد علت وجهه لحية غير مشذبة وعلا ملابسه الخفيفة الغبار وحبات الطلع التي بلا عدد من كثرة ما سار بين الأشجار والنباتات المتسلقة عليها، ولم يكن يلبس سوى بنطال خفيف من الكتان وتي شيرت فستقي اللون وينتعل حذاءاً رياضياً وبرنيطة صيادين، بدأ يراقب المكان من حوله فالأماكن كهذه لا تضيء إلا بعد أن تشرق الشمس بمدة وترتفع في كبد السماء قدر قامة الإنسان، وكان يرمي إلى أمر هام جداً في تلك الليلة قرر تنفيذه في الصباح وهو استكشاف تلك المنطقة، ومما كان يقضّ مضجعه هو أن يتأكد أن لا دخلاء بذلك المكان والتفرعات بين الأشجار.

ولم يلبث بعد جولة قصيرة بين الأشجار، أن جاءه الجواب فقد جمدت عروقه وهو يراقب المكان عندما رفع رأسه ليرى ما، إذا كان هناك ثمار على شجرة بدت غريبة عن مثيلاتها بهذا المكان المنعزل، عندما أبصر على مسافة منه حية أناكوندا عملاقة وهي تنزلق بخفة صامتة بين فروع لبلابة عملاقة فكان جسمها يظهر تارة ويختفي أخرى، بلحظة ثبت أنظاره على عينيها فسرت

القشعريرة في بدنه، وهو يراقب نظراتها الجامدة الفارغة من الحياة، وخطر بباله أن يصرخ مستنجداً لكنه وقف جامداً فيم هي تنساب نحو الأرض وبلحظة حدث له ما كان أشد إرعاباً إلى الآن فقد برز شيء مبرقع من بين الأدغال فجأة وبنظرة خاطفة لاحظ إليكسي فوراً بأنه جاغوار كبير وكان حجمه يوازي حجم كلب حراسه دوبرمان كامل النمو، وكان القسم الخلفي بما فيه ذنبه الطويل على غير العادة هو الظاهر لنظر إليكسي بينما كانت مقدمة بدنه متوارية خلف أوراق اللبلاب الكثيفة.. أحس إليكسي فوراً بمزيد من الخوف وسرت في بدنه قشعريرة لم يحس بها في حياته من قبل وانشل تفكيره للحظات ولم يدرِ ما يفعل، ولم يكن الجاغوار ملاحظاً لوجوده وهذا ما استشعر به إليكسي... مرت لحظات بدت كأنها دهر كامل..

فجأة اندلعت معركة في الأدغال خلف غابة اللبلاب المعرشة، فيم وقف إليكس جامداً ولم يفهم ما يحصل، ثم التفت ليلاحظ الأفعى الضخمة ولدهشته الشديدة كانت قد اختفت، كانت أصوات المعركة تعلو حيناً وتنخفض أحياناً فأجبرته على التحرك من مكانه إلى زاوية يلاحظ منها ما يحصل، فأبصر من مكانه في الدغلة الجاغوار ذو الفكين القويين يعصر رأس الأناكوندا بوحشية فيم كانت تتلوى وتلف نفسها حوالي جسمه ليعود ويتفلت منها، وبأقل من نصف دقيقة كان قد قضى عليها، لاحظ إليكسي أن الجاغوار حتى هذه اللحظة لم يكن قد تنبه لوجوده فانسل من المكان متستراً بالأشجار وعاد إلى المعسكر.

الأساطير

إن الأدغال الواسعة من أميركا الجنوبية الحاملة اسم أمازونيا تعتبر حتى يومنا هذا قارة ضائعة تلفها الأسرار والأساطير.

منذ زمن قريب تغلغل فيها طولاً وعرضاً شاب أميركي خبير بعلم الطبيعة اسمه إليكس شو ماتوف وهو يروي هنا إحدى المغامرات الفريدة التي عاش مراحلها خلال رحلته في هذا العالم المجهول المليء بالمتناقضات.

طرحت السؤال على نفسي: هل يجوز أن أضع ثقتي بهذا الرجل إبن الأدغال الحافي القدمين الذي لا تتجاوز قامته متراً ونصف متر والذي يسمي نفسه ألبيروانو؟

لقد عرض عليّ أن يقودني في زورقه المقدود من الشجر في رحلة تستغرق عشرة أيام على مجرى نهر أمازوني مهجور، قال لي أنه ينوي زيارة مسكنه هناك والعودة حالاً.

كنت آنئذ في رحلة استطلاع في وادي الأمازون كلفني بها نادي سييرا، وهو جمعية أمريكية خاصة تعنى بالحفاظ على نوعية المناخ وصفائه وعلى صيانة البيئة، خصوصاً في جبال سييرا نيفادا في المنطقة الشرقية في ولاية كاليفورنيا وبدا لي عرض هذا الرجل فرصة مناسبة أطلع فيها على نوعية الحياة التي يعيشها شعب الأدغال في الأمازون.

جلسنا في كوخ سقفه من قش النّخل في جزيرة تقوم على مصب نهر كاتريماني، وتبعد نصف درجة عن شمال خط الاستواء، يبلغ طول هذا النهر نحو ٦٤٠ كيلومتراً، وينحدر متعثراً من الأعالي الجبلية في فنزويلا لينساب في الأدغال والبراري في أقصى شمال منطقة الأمازون البرازيلية المسماة رورايما، ثم يصب في نهر برانكو الذي يصب بدوره في نهر النيغرو أكبر روافد نهر الأمازون. قدم ألبيروانو إلى منطقة رورايما عام ١٩٤٣ ليعمل في مزارع المطاط، ومنذ ١٩٦٨ عاش بين جماعة الأيكا وهي قبيلة هندية تنتمي إلى شعب يانومامو في المنطقة العليا من نهر كاتريماني وتصطاد النمور المرقطة وتبيع جلدها

بطريقة غير مشروعة في مناؤس المدينة العصرية الكبيرة القائمة على مصب نهر النيغرو أكبر روافد نهر الأمازون.

والد هذا الرجل ابن البيرو ووالدته ابنة القبيلة الهندية توكانو، عمره يناهز الخمسين وعظام خديه مرتفعة وحنكه متهدل ينتأ نحو الخارج فيسهل عليه عملية فتح القناني من شراب الروم الأبيض المسكر وقد سكر به ألبيروانو في هذه اللحظة مع أن الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة صباحاً.

لم يكن لدي سبيل لمعرفة ما إذا كان ألبيروانو أهلاً لأن أسلمه حياتي، وأخيراً كان لا بد من القرار، فقررت أن أجازف.

في هذه الليلة أقيمت في الكوخ حفلة رقص دارت فيها أسطوانات السامبا على آلة فونوغرافية تحركها بطاريات. ورقص أهل كاتريماني حتى بزوغ الفجر.

عدد أكواخ هذه المستعمرة لا يزيد على الثلاثة غير أن اسمها يبرز واضحاً على معظم خرائط أميركا الجنوبية المقبولة الحجم، والسبب أنه لا منافس لها على وجه الخريطة على مدى ١٥٠ كيلومتراً من الجهات المختلفة.

تناولت قيثارتي ولحقت بهم، فنقرت على أوتارها عدداً من الأغاني، وحولت انتباهي نحو فتاة هندية في سن المراهقة أخذت تلعب مع الأولاد إلى حين، ثم مالت عنهم وغرقت في صمت عميق.

سألتها باللغة البرتغالية عن اسمها فارتبكت ارتباكاً شديداً ورفعت طرف ردائها تستر به وجهها. وبعد برهة سألت ألبيروانو عنها فقال: هي زوجتي.

وقد وهبتني إياها قبيلة الأيكا بعد وفاة زوجتي المتمدنة منذ تسع سنوات.

كانت وقتئذ في الثامنة من عمرها، وكانت تحمل اسماً ذا علاقة بأحد الحيوانات، فاخترت لها اسماً متمدناً هو ماريا وعلمتها أن تكتسي الثياب وأن تتكلم اللغة البرتغالية.

قلت: لماذا آخذها الحياء حين سألتها عن اسمها؟

فأجاب: لأن أهل الأيكا يعتقدون أن معرفتك لاسمهم الأصيل يخولك سلطاناً عليهم.

وكان الصباح فزودنا الزورق الذي يبلغ طوله أربعة أمتار بأكياس من السكر والملح والبارود والملابس، وبمجموعة من الهدايا اختارها ألبيروانو لأصدقائه الأيكا فرزح الزورق تحت العبء وبقي منه ١٥ سنتيمتراً فقط فوق سطح الماء.

وركبناه ودفعناه بعيداً عن الضفة، ضاربين الماء ضربات رشيقة بمجاذيفنا، وجلس ألبيروانو القرفصاء في مقدم الزورق واخذ يفرش في الماء راحة مجدافه العريضة المعينة الشكل، وجلست أنا في الوسط أساعد، ما استطعت بمجداف أصغر، بينما تربعت ماريا في المؤخرة ترنم ألحاناً لنفسها وتلون أظافر رجليها، وحيناً آخر ترفع الماء الراشح إلى الزورق بطاسة من الخشب.

لم يمضي قليل من الوقت حتى انصبت علينا قوافل البعوض وسرعان ما غطتني بلسعاتها، لكن الأذى الناجم عن هذه اللسعات لا يولد خطراً في ذاته، كما أنها معظم الأحيان لا تنقل معها الأمراض إلا أنه بعد ساعات من لسعاتها يستحكك جلدك إلى حد لا يطاق، وتزداد فيك الحاجة إلى الحك فتتضخم اللسعة لتصبح حجم حبة المشمش وتتحول بفعل ما تحتوي الأظافر الوسخة من الأميبا وسواها من الجراثيم الخطرة إلى تلوثات متفشية تؤدي حتماً إلى الموت إذا لم تعالج في الحال، وهذه المرة لم تترك لسعات البعوض أثراً لدى ألبيروانو وماريا لأنه سبق لهما أن أخذا نصيبهما الوافر منها، لكنهما لاحظا إمارات البؤس على وجهي فقال ألبيروانو معزياً: سنيور، سيعجبك المسكن الذي نعيش فيه إنه خال من ذباب البيوم.

واصلنا رحلتنا أياماً يكتنفنا فيها قفر تام لا يعكر جوه شيء. ولحقت بنا دلافين قرنفلية اللون تحوم حول الزورق مداعبة وتقفز فوق سطح الماء نافخة ودارت حولنا على مرمى رمح من ألبيروانو، لكنه تركها وشأنها.

وتعددت الخرافات حول هذه الحيوانات عند شعب الأدغال، ويعتقد أن فيها شبهاً بشرياً، ولكن مهما يكن من هذا كله فإن لحمها لزج وقاس وكل من يتجاسر على اصطيادها فإنما يقدم عليه كي يستخرج من عيونها الشمالية المشعرة مشروباً سحرياً يولد القدرة الجنسية عندهم، أو على الأقل هكذا جملة ناقصة هي: كان اعتقادهم، إذ لا أدلة علمية قاطعة على هكذا أنواع من الطب البدائي من عالم آخر.

كان الموسم جافاً جرت فيه مياه النهر ثلاثة أمتار تحت مستواها العادي بالنسبة إلى شهر يوليو (تموز). سال التيار ضمن خنادق طويلة مستقيمة متوازية مع الأشجار العالية المتكاثفة في هذه الأدغال الغزيرة بأمطارها. وسرنا نحن متلاصقين أحياناً مع جدار من الطين الشفاف وجدفنا تحت قوس متواصل من الجذور العالقة والعرائش المتدلية، وفاجأتنا أحياناً أخرى منعطفات واسعة كاشفة فالتوينا مع مجرى النهر وقطعناه من ناحية إلى ناحية متلمسين دوماً حماية الظل.

واعترضتنا أيضاً سدود وافرة من الرمل فترجلنا ومشينا جارين ورائنا الزورق والتقينا على طول مسيرتنا سمك الراي النهري الذي كان يهب من مخابئه الرملية ثم يغوص في بطن المياه الكثيفة الخضراوية. وإن ضربة واحدة من ذيل هذا السمك المنشاري كافية لأن تسبب أوجاعاً لا تحتمل تدوم أياماً بكاملها، أما اليوم فبدا الراي غير آبه بنا لحسن طالعنا.

صوبت ماريا اهتمامها الأكبر إلى السلاحف إذ كنا في ختام الموسم الذي تطرح فيه سلاحف الأمازون بيضها، فأخذت تقتفي آثار زحفها على الرمال إلى

حيث تقوم أعشاشها حتى جمعت مقدار مئة بيضة، وهذا البيض مليء بالبروتين ولذيذ الطعم إذا جبل بدقيق الكاسافا.

وعلى الرغم من أن السلاحف تتمتع بحماية القانون البرازيلي إلا أن هذه الحماية لم تكن لتوقف شعب الأدغال عن اصطيادها والاستيلاء على بيضها.

أما أدهش الحيوانات التي صادفناها فكان صنفاً من القوارض الضخمة المسماة (كابيبارا) أنها بنية اللون ذات منخار مربع وهي تهجم منقضة من بطن أعشاب الغابة لتقفز إلى عمق الماء وتختفي عن الأنظار، وقد قال لي أحد العلماء في وقت لاحق أن هذه الحيوانات تستطيع أن تحبس أنفاسها تحت الماء مدة ثلاثين دقيقة أما ألبيروانو فصرح بأنها تهيئ لنفسها جحوراً تحت الماء تأوي إليها هرباً من أعدائها.

وأشار ألبيروانو بحركة واسعة من يده إلى الطيور قائلاً: هناك طائر الطوقان، فنظرت إليه بألوانه الغنية ومنقاره الطويل جداً مقارنة بحجمه فهو بطول الطائر تقريباً، كان يقف على شجرة تطل أغصانها على النهر ويتعالى صراخه حتى يصل على قمم الأشجار فتسمعه طيور الغابة.

كان هناك رفوف من أوزات الأورينوكو الرشيقة تحلق بانتظام وكانت الببغاوات تقوم بعرض أزياء طائر بأنواعها وألوانها الفاقعة المتعددة فوق رؤوسنا، الببغاء القرنفلي الناري اللون المدعو ماكاو كان صاحب الصياح والزعيق الأعلى، يملأ الفضاء بنداءاته الخشنة. والببغاء الأخضر الزمردي يطير من ضفة إلى ضفة حاملاً وراءه ذيله الطويل.. باختصار لقد أتيح لي أن أحصي ثمانين صنفاً من الطيور، أغربها ذاك الصنف المدعو اوروبوندولاس وتحط أفراده على شجرة حتى تمتلئ بأعشاشها الشبيهة بالجوارب، التي يزيد طول الواحد منها على المتر، ويتفرد هذا الطائر بنغم خاص به، فيه قرقرة جامعة يتبعها صوت كصوت الوقواق يرن في الأذن كأنه ساعة الكوكو السويسرية

بالذات. ونحن ننساب عبر النهر كان الهدوء يسود أحياناً وفجأة يقفز من الماء قطيع من ثعالب الماء النهرية يلاحق بعضها بعضاً على طول ضفة النهر.

كان يمكن وبكل سهولة أن نفاجأ بأفعى ذات ثلاثة أمتار متدلية على غصن شجرة نمر من تحتها ولا نكتشف التمويه إلا بعد أن نكون قد صرنا تحتها، وقد دمرت أعصابنا أحياناً من الرعب عندما نصادف أسراباً من الخفاش الصغير البشع ينتابها الهياج لدى مرورنا ضمن جناح شديد العتمة من الغابة فتضرب الفضاء بأجنحتها ضرباً عشوائياً، ثم لا تبرح أن تعود فتحطُّ متجمعة بعضها على بعض لا يميز بينها وبين الغاب شيء.

أرض مجهولة

في الحادية عشرة من كل صباح، عندما تشتد حرارة الشمس فلا نعود نتحملها، نميل إلى أحد الروافد الكثيرة التي تغذي نهر كاتريماني ونحط رحالنا وأحاول أن اغطس في ماء الرافد سابحاً فيصدني ألبيروانو ويذكرني بأنها تعج بسمك الرأي السابق ذكره والأنقليس الكهربائي الذي له القدرة على أن يوزع في الجسم هزات عنيفة تبلغ قوتها ٦٠٠ فولت، كذلك بحيات الأناكوندا التي تحبس أنفاس فريستها حتى تخنقها ثم تبتلعها بهدوء، كل هذا فضلاً عن أنواع الحيتان الشرسة وهي أربع أكبرها الصنف الأسود. إن عضة واحدة من هذا الصنف تقطع من فخذ الإنسان قطعة لحم توازي حجم الدولار الفضي.

عدا عن ذلك يسكن في الأنهار الصغيرة المتفرعة عن نهر الأمازون الجبار وروافده أرهب الخلائق على الإطلاق، وهو صنف من السمك دقيق جداً يبدو في حجم المسواك ويدعى كانديرو وهو يتغلغل في فتحات الجسم ويشق طريقة،

مخلفاً صفاً متواصلاً من الشوكات الحادة لا يستطيع الإنسان التخلص منها إلا بواسطة عملية جراحية.

يعتبر علماء الطبيعة أن أصناف سمك نهر الأمازون المعروفة لديهم حتى اليوم لا تتجاوز ثلثي عددها الكامل علماً بأن عدد الأصناف المعروفة يراوح بين ١٣٠٠ و١٤٠٠.

هذا الشح في المعرفة ليس إلا جزءاً ضئيلاً من جهل كثيف متراكم حول وادي الأمازون. وتعادل مساحة هذا الوادي الجبار مساحة أراضي الولايات المتحدة القارية. وهو القفر الأخير والأوسع الذي تغطيه الأشجار بهذه الكثافة على وجه الأرض، ولا يعرف من أصناف نباتاته سوى / ٢٥ ألفاً، أي نصف عددها الإجمالي، فيما لم يتعرض للتحليل العلمي أكثر من ١٠ في المئة من المقومات الكيمائية لهذه النباتات، ومن يدري كم صنفاً من المادة العجائبية الشبيهة بتلك المادة الصمغية (الكواري) التي يستخدمها الهنود لأسهمهم المسممة، لا تزال تنتظر من يكتشف عن أسرارها؟

لم تحدد الشعوب التي يطلق عليها مجازاً بالهندية لم تحدد مواقعها في هذا القفر الجبار بعد، والذي يمكن أن يسير الإنسان منفرداً وسط غاباته المتجاورة أياماً ولعشرات الكيلومترات دون أن يصادف إنساناً واحداً.

وقد يقف الإنسان لبرهة حيث يسود الصمت وسط فسحات بين الأحراش والغابات تطل على مناظر خلابة تفوق التصور بجمالها، لكن هذا المنظر خادع فحريق واحد قد يقتل صاحبه بالدخان دون أي أمل بالنجاة بل قد يشويه حياً لشدة قوة اندلاع النار إذا أشعلتها يد غير خبيرة بالأدغال لأن النباتات الملتفة تنقل النار على شكل خطوط منحنية ودوائر عملاقة تزيدها سرعة الريح إلى درجة جنونية وبما أن الإنسان يضطر للمشي ببطء بين الأدغال فاحتمال أن تحاصره النار وارد جداً.

كل هذا عدا عن خطر الإصابة بلسعات الحشرات الميتة. فإن كل من يعبر هذا القفر الرهيب لا بد أن يكون عنده خبرة به يكتسبها عبر سنين طويلة. ويحمل معه عدة طبية كاملة مع أدوية خاصة نادرة للعلاج الفوري من لسعات الحشرات والأفاعي السامة، كما يحب أن يميز المياه الصالحة للشرب وإلا.... كانت النتيجة عذاباً رهيباً لبضعة أيام يفوق احتمال البشر، ثم يعقبه موت بطيء.

بلد الجريمة

تعتبر البرازيل من الدول الأكثر فقراً بالعالم وإذ كانت تحتل مكانة متقدمة عن مثيلاتها بقارات أخرى كأفريقية لكن لها ميزة تختلف عن غيرها تماماً.. أنها الجريمة المنظمة من طرازات غريبة فحتى الشرطة يكون لها يد بالجرائم المنتشرة بهذا البلد الجميل مثلها مثل باقي عصابات الأجرام بالأحياء الفقيرة المسماة أحياء أكواخ التنك؟

لا يستطيع الإنسان السير ليلاً بضواحي المدن البرازيلية الكبرى ساو باولو وبرازيليا ورسيف دون أن يخاطر بحياته، فقد تعترضه عصابة من سبعة أو ثمانية شبان مستقتلين قد أعمتهم الحاجة والجهل وقسوة حياة التشرد والبطالة، وقد يتسلحون بأمواس كباسة أو عصي وجنازير وقد يقتلون أياً كان لأجل مئة أو مئتي دولار..

أما العصابات المنظمة الخطرة والتي تحمل أسلحة التوميغانات والبواريد فهي تتقاتل دائماً للسيطرة على مناطق نفوذ توزيع المخدرات وتجارة الأسلحة والدعارة بل وتجارة العبيد حيث يباع الأطفال أحياناً للأسر التي لم تتمكن من الإنجاب، فيم تتخلى عنهن أمهاتهن اللواتي أنجبنهن بطرق غير شرعية أو اللواتي ليس لهن مستقبل بسبب العوز أو الملاحقة القانونية.

لا يعتبر البرازيل بلداً آمناً مع ٤٥٠٠٠ ضحية قتل كل سنة قد يشارك بها البوليس أحياناً!؟ ففي بلد متخلف ينخره الفساد والقضاء على آخر غابة عملاقة على الكوكب لصالح حفنات من الجشعين الخارجين على القانون يصعب اختراق هذا البلد خصوصاً بالأماكن النائية، ورغم أن البرازيل قد شقت طريقها إلى الديموقراطية بأوائل القرن العشرين وبأوائل الواحد والعشرين لكنه بلد يصعب إنقاذه إلا إذا تمكنت حفنة من التكنو قراط والأحرار من الاستيلاء على السلطة به أو المشاركة بها، وهو جو تتيحه الديموقراطية الضعيفة هناك، لكن بقدر ضعفها لا أكثر، هذا البلد يعتبر أهم بلد في العالم إذا حسبنا قيمته بالنسبة لمستقبل البشرية لا بجيوب المستثمرين الجشعين دائماً للأيدي العاملة الرخيصة به، إذ ما عدا غابات سيبرياو وكندا تقف غابة الأمازوينا كمزود أساسي لكوكب الأرض بالأوكسجين النقي والذي بدونه ولو انعدمت هذه الغابات لواجه سكان كوكب الأرض كلهم بدون استثناء مشاكل في أجهزتهم التنفسية وأمراض لا حصر لها من جراء استنشاق آلاف ملايين الأطنان من غازات أول وثاني أوكسيد الكربون المسممة للدم والدماغ، إذ بدون امتصاص أمازونيا العملاقة لها فسيصبح كوكب الأرض مدمراً إلى حد بعيد ومريضاً.

لو سمع أحد ما بكلمة الأمازون لفكر فوراً بأنها نهر عملاق بأميركا الجنوبية لكن الغرابة هو أنه ليس هناك شيء اسمه نهر الأمازون. فكلمة أمازونيا تعبر عن حوض طبيعي كبير تحدق به عدد من الأنهار يقارب عدد الكبيرة منها ٢٨ نهراً وتصب كلها عند مدينة مناؤس لتشكل ما يعرف بنهر الأمازون والذي هو جغرافياً وللغرابة لا وجود له أنما هو مصرف لكل هذه الأنهار التي تتابع صبها فيه حتى يدخل خليجاً عملاقاً مليئاً بالجزر عند مدينة مكايا التي تقع شماله ويتخلل هذه الجزر مختلطاً بملوحة مياه المحيط

الأطلنطي[1] الجبارة ليتلاشى فيما بعد وسط لجة المحيط الهادرة.

الأصل

مع ذلك فلو تتبع الإنسان أصول هذا النهر لوجد أن قسماً كبيراً منها من جبال الأنديز وهي أغرب جبال بالعالم، إذ تمتد سلاسلها الشاهقة الخطرة على طول قارة أميركا اللاتينية فنزويلا، كولومبيا، إكوادور، بوليفيا، تشيلي، الأرجنتين، والعجيب أن البرازيل لا تشارك هذه الدول هذه الجبال ولو بقدر قليل، إنما هي بالواقع تكون السهل الجبار[2] الذي تنحدر إليه مياه الأنهار التي تنبع منها، وأكثرها تميزاً هو أو كيالي الذي ينبع قرب كوزكو المدينة الأسطورية للأنكا، وشلالات أسبيرانز في بوليفيا ومنابعها الأصلية تقع شرق كوزكو.

بعض هذه الأنهر الرئيسية لم تستكشف بكاملها، وحدث في العام ١٩٧٦ أن حلقت طائرة تابعة للقوى الجوية البرازيلية فوق القاطع الجنوبي الغربي من أدغال أمازونيا وصورتها، فكشفت الصور عن نهر مجهول تماماً يبلغ طول مجراه ٦٤٠ كيلومتراً، تغطية الأشجار من البداية حتى النهاية.

طائرة من عالم آخر

يتذكر إليكس شوماتوف قائلاً: كنا نستريح ذات يوم في فسحة على هضبة واطئة قرب نهر كاتريماني استعداداً لمتابعة الرحلة، فإذا بي أسمع صوت حفيف بدأ يظهر من بعيد ويتضخم حتى اقترب مصدر الصوت وكان فوق

---

١ ثاني محيط في العالم من حيث المساحة بعد الباسيفيكي.

٢ - أكبر سهل في العالم على الإطلاق، واكبر وادي بكل كوكب الأرض تقارب مساحته ٥ ملايين كم مربع تقريباً.

رؤوسنا على مسافة متوسطة، تتبعت بنظري السحابة البيضاء الرقيقة التي تجري ورائها الطائرة النفاثة في الفضاء الأزرق، إنها بلا شك الطائرة الأسبوعية التي تنقل المسافرين كل ثلاثاء من مدينة ريودي جانيرو في البرازيل إلى مدينة ميامي في الولايات المتحدة، وفكرت في المسافرين وهم ينهمكون بالكشف عن طعامهم المعد سابقاً والملفوف بورق السيلوفان الصقيل الشفاف، واستولى علي شعور قوي بأني بعيد فعلاً كل البعد عن العصر الذي تعيش فيه هذه الطائرة وركابها.

اعتدنا أن نأوي عند الغسق إلى أحد النهيرات الجانبية، فنصف زورقنا على ضفته ونبدأ قطع أغصان الشجر من حولنا بالفؤوس لكي نعد مكاناً لاستراحتنا ونعلق أراجيحنا المشبكة، أما ماريا فكانت تهتم بإشعال النار، توقدها من قشارات الحطب ثم تغذيها بقضبان ضخمة، فيعلو اللهب ويقينا لمعانه الباهر خطر الجواغر.

بعد أيام من الرحلة كانت خطتنا مرسومة بانتظام/ ننهض باكراً نحو الثالثة والنصف ونبدأ مسيرتنا بعد ساعة، فنسعى إلى قطع مسافة طويلة قبل بزوغ الفجر. وكلما تركنا ورائنا بضعة كيلومترات كنت أسمع ألبيروانو يهمس وهو ينظر ورائه (عشرة أخرى منها اليوم).

بقي أمامنا الشوط الثاني من الرحلة، وهو شاق لسوء الحظ، طوال الأيام الثلاثة اللاحقة لم نجد في مسيرتنا أي أثر لضفة النهر، وقد ضاق مجراه واشتدت سرعة التيار التي تعترضنا وتمنعنا أحياناً من التقدم على رغم ضربات مجاديفنا العنيفة. وبدا التعب على وجه ألبيروانو فاعترف قائلاً: إنني رجل مسكون بالأمراض، ثم دخلنا سان سباستيان وهو خندق مستقيم طويل يبلغ عمق المياه فيه خمسين ذراعاً على حد قول ألبيروانو، وراح يخبر أنه في موسم الأمطار تعج المياه هنا بقوة يعجز الإنسان عن مجابهتها في زورقه: هنا يعيش

المبا الكبير وهو حنش كبير خرافي يتحدث عنه الفلكلور الأمازوني يمتد ثلاثين متراً ويغرق الزورق ويتعرض البشر ويبتلعهم، تابع ألبيروانو: لم أرقط في حياتي الحنش الكبير، ولكن يخبر الناس أن لعينه لمعان الحباحب الناري.

إياكم أن تقتلوه

سألت ألبيروانو عن قبيلة ماريا.. فقال إنه تعرف على جماعة الأيكا للمرة الأولى عام ١٩٤٨ حين كان يعمل في مزارع المطاط. كان عددهم آنذاك نحو مئتين وكانوا يسكنون ضفة نهر آخر. وفي أواخر الخمسينات لقي رئيس القبيلة وعدد كبير من أفرادها حتفهم من جراء (حمى) حملها إليهم أحد رجال الأدغال وتجدر الإشارة إلى أن عبارة حمى قد تعني لمواليد الأمازون أي نوع من الأمراض، من الملاريا حتى السل، وقد تمكنوا من التكيف مع بيئة الأدغال القاسية، لكنهم فقدوا أي مناعة ضد الأمراض التي تصل إليهم من عالم ليس بمعالمهم. ففي عصرنا هذا وحده هبط عدد هؤلاء الهنود من ٢٥٠ ألفاً إلى ٧٥ ألفاً.

ثم رحلت قبيلة الأيكا في اتجاه نهر كاتريماني، وانتقل ألبيروانو عام ١٩٥٩ ليسكن معهم هناك، وكان هدفنا في هذه الرحلة إحدى مستعمراتهم وهي برازيل نت كريك — حيث تعيش ثلاث عائلات. وعلى مسافة ست ساعات من تلك المستعمرة يعيش ثلاثون هندياً آخر، بينما تعيش بعض العائلات الباقية على ضفاف نهر باكو أحد روافد كاتريماني، ويجتمع هنود هذه المنطقة من وقت إلى آخر لإقامة الاحتفالات، إنهم شعب يعشق الطرب، وهم يسترخون في أراجيحهم ويتبادلون النكات طوال الليل.

وينهض أحدهم من حين إلى آخر ويباشر الرقص أو يروي إحدى الروايات، بينما يظل الباقون منصتين إليه وقال ألبيروانو: إنهم سيحبونك، وستكون هذه المرة الأولى في حياتهم التي يسمعون نغم القيثارة.

اليوم العاشر

في اليوم العاشر من رحلتنا تراءت لنا المستعمرة المقصودة وهرع نحونا ثلاثة من رجال الهنود فيما تعالت صرخة ابتهاج من حنجرة ألبيروانو لدى رؤية مسكنه وما أن ترجلنا إلى ضفة النهر حتى تناولت يده وأخذت أهزها بحرارة، كما كنت أتصرف مع دليل من جبال الألب يقودني على تسلق إحدى قمم جبال بلاده.

وللحال خامرتني فكرة العودة التي تبدو سهلة جداً. لأنها في اتجاه تيار النهر من بدايتها إلى نهايتها، ولكن سرعان ما تبين لي أن مغامراتي لما تنته، وأني ما زلت في المرحلة الأولى منها.

جلسنا في الغرفة الرئيسية من الكوخ المرتفع، مع روبي ومانويل وبدرينو وهي الأسماء التي اختارها ألبيروانو للهنود الثلاثة. أما أسماؤهم القبلية الأصلية فقد علمتني خبرتي السابقة أن امتنع عن السؤال عنها ووزع ألبيروانو هداياه عليهم: سراويل قصيرة وشراب الكاشاسا، وقبضة من قذائف بندقية الخردق. وجلسنا في أراجيحنا نمضغ قطعاً مجففة من اللحم، وقال ألبيروانو: لا أظن أني سأعود حالاً إلى كاتريماني، لن أترك هذا المكان عاجلاً إذ لا داعي إلى ذلك.. إن ظهري يؤلمني من جهة، ومن جهة أخرى أنوي زرع بعض حبوب الكاسافا.. وحاولت أن أحافظ على هدوء أعصابي عند سماع هذا الكلام.. فسألت: متى تنوي العودة إذا؟

ألبيروانو: من يدري! ربما عدت غداً

لكن الغد هاهنا قد يمتد من النهار الآتي حتى السنة المقبلة، فقلت له: هل يمكنك أن تكون أكثر وضوحاً فتقول لي متى تنوي العودة إلى كاتريماني؟

ألبيروانو: من يدري.. بعد شهرين أو ثلاثة.. أجبته محاولاً السيطرة على

أعصابي: أنت تعلم جيداً أنه لا بد لي من الرجوع حالاً وإلا سيقلق الأهل في أمريكا على مصيري.

ألبيروانو: لا داعي إلى هذا القلق إذا كانت أمريكا تبعد مسافة أربع سنوات بالزورق عن هذا المكان كما صرحت لي سابقاً فما الفرق إذا طال غيابك شهرين أو ثلاثة؟

وأصابتني الملاحظة في الصميم، فلم أجرؤ على إضافة أي كلمة. لكني صممت على أن أعمل كل ما في وسعي لئلا أبقى دفيناً هنا هذه الأشهر كلها. إن مهمتي العلمية من جهة لم تنته بعد، ولا يزال أمامي مناطق كثيرة أخرى تدعو إلى الاستكشاف، وأن مناخ هذا المكان من جهة أخرى لا يدعو إلى الارتياح بل يوهن العزائم، فالمسكن وزريبته هما ملعب يسرح فيه البعوض ويمرح، كما تفوح فيه الرائحة الكريهة المتصاعدة من اللحم العفن.

وفي النهاية أفشيت كربي فقلت: إذاً ما العمل وكيف السبيل للخروج من هنا؟

أجاب ألبيروانو: إذا سلكت مجرى النهر فإنك على مسافة أسبوع من إرسالية كاتريماني ولكن يتعرضك في طريقك إليها اثنان وعشرون شلالاً لا رغبة لي الآن في مواجهتها، وإذا سلكت اليابسة: عن طريق الجبال، فأنت أمام المسافة ذاتها.

سألته: هل ترافقني.

أجاب: لا إنَّ المسافة طويلة بالنسبة إلي، ولماذا لا تسأل الأصحاب هنا..؟ اطلب مساعدتهم وتقدم إليهم بدلاً عنها، فيطيب لهم الأمر.

وهكذا كان فوقع اختيار مانويل على بطاريتي ولعبت عين روبي على فأسي الجديدة أما بدرينو فارتضى الحصول بدوره على قميص بنصف كم.

بلغ مانويل الثامنة عشرة من عمره وهو ذو رجلين ضخمتين وشعر محلوق على هيئة طاسة، وكان روبي في السابعة عشرة، وهو يتقن استعمال نحو مئة كلمة من اللغة البرتغالية. وراقبته في ساعة الظهر وهو يسلخ جلد هرة برية، فبدت لي عيناه فارغتين لا حس فيهما ولا نور مع شيء يجلب الرعب، أما بدرينو فمظاهر اللطف بادية عليه.

وبعد ما تم الاتفاق بيننا وزع ألبيروانو عليهم إرشاداته الأخيرة فقال: إياكم وقتله. إنه رجل ذو شأن وإذا حدث أن قضيتم عليه فستأتي طائرة تحوم فوق رؤوسكم وترميكم بوابل قذائفها.

الساحر

في الصباح الباكر خرجنا نحن الأربعة إلى مرعى تعلو أعشابه خمسة أمتار. حمل مانويل سلة من دقيق الكاسافا، إضافة إلى قيثارته وبندقية محشوة بالخردق، وحمل روبي بندقية أخرى مع صرتي ورفعها معكوسة كي يلف حزامها حول رأسه وحمل بدرينو قدراً للطبخ مع حزمة من ثمار استوائية شبيهة بالموز أما أنا فعلقت على كتفي حقيبتي الملأى بالتجهيزات التصويرية والتسجيلية المختلفة مع دفاتر مذكراتي. سرت وسار الهنود الثلاثة وشفاههم السفلى منتفخة بأوراق الدخان الملفوفة وقطعنا الغابة نماشي مجر ى النهر، ثم لم نلبث أن أشرفنا على سهل واسع ارتفعت أعشابه بكثافة وهو ذو أرض رملية تعترضها هنا وهناك بعض الأشجار القصيرة الملتوية. وانتصبت أمامنا في الأفق البعيد قمم سييرا تباتينغا الصخرية الناتئة، يؤلف أعلاها مثلثاً كامل الهندسة، وقامت في ظل الجبل قرية تخص قبيلة الأيكا.

وسألتهم: ما المسافة بيننا وبين القرية. فمد بدرينو يده بحركة واسعة مشيراً إلى الموضع السماوي الذي تصل إليه الشمس عند الساعة الخامسة.

وكـان خـط الـسير الـذي يقطـع الـسهل المعـشب ممـراً أبـيض ضـيقاً، لا يتجـاوز عرضـه العـشرة سـنتيمترات، ويعـود ضـيقه إلى الطريقـة الـتي يتبعهـا الهنـود في سيرهم فهم يضعون رجلهم الواحدة أمام الأخرى من دون أن يحيدوا عنها.

ويمكنون في الأرض أصابع أرجلهم العريضة ويقطعون المسافات ركضاً لا مـشياً، ويبلـغ معـدل سـيرهم علـى هـذا النحـو ٦٥ كيلـومتراً في النهـار. وأجهـدت نفسي كل الجهد كـي ألحق بهم غير أنـي تعثـرت مـراراً. بالجـذور والعـرائش، وانبطحت أرضاً بملء قامتي. وعندما كنت أنهض وانتصب على رجلي، كـان الهنود يغيبون عن نظري من جديد وتضيع على معالم الطريق فأناديهم بصوت يـسجع كهـديل الحمـام كـي اسـترعي انتبـاههم فيرجعـون القهقـرى بخطـاهم وينتصبون حـولي وأيـديهم علـى خواصـرهم للدلالـة علـى نفـاذ صـبرهم ١٠٠٠ إنـي مقتنع بأن أي إنسان في حالي الخرقاء هذه يعرض نفسه للهلاك المحتم في عالمهم.

كانـت الغابـة عنـد الطـرف الآخـر في الـسهل المعـشوشب فتغلغلنـا فيهـا وسلكنا طريق الصعود في اتجاه قمم الجبال.

وتسلق روبي شجرة كاكـاو وقطـف مـن ثمارهـا الناعمـة المشوكة فتلـذذنا بلبهـا الأبـيض الـشهي، واظهـر مهارتـه في تـسلق الأشـجار علـى الطريقـة الهنديـة: تنـاول بيديـه جذع الكاكـاو العـاري ورفـع رجليـه علـى مـستواهما ثـم رفـع يديـه مستوى أعلى وألحقهما سريعاً بحركة مماثلة من الرجلين، واخذ يصعد هكذا إلى أن بلغ القمة.

في قرية الهنود

دخلنا القرية في الخامسة بعد الظهر حسب الموعد المحدد فوجدناها خالية من سكانها، لقد خرجوا جميعاً للعناية بحدائقهم. وبدا مسكنهم الجماعي رائـع البنـاء مـصنوعاً مـن سـعف النخـل المنسوج حـول هيكـل مـن الـصواري يبلـغ

قطره ٤٥ متراً وعلو محوره ١٢ متراً.

ويعيش في هذا المسكن ثمانية رجال وست نساء وستة أولاد ولكل عائلة منهم منطقة خاصة مقطوعة على شكل إسفين تحتوي على مقاعد مع عدد من الدعامات التي تصلح لتعليق الأراجيح والطعام والمقتنيات الأخرى.

ووجدنا حول المواقد قدوراً معدنية اكتسبوها من ألبيروانو وهي المظهر الوحيد لديهم الذي كان يدل على الحضارة الغربية ومنتجاتها.

بعد غروب الشمس عاد جماعة الأيكا من عملهم في ضوء البدر الكامل، وبدا رجالهم طوال القامة بالنسبة إلى المقياس الهندي العادي، وكانت رؤوسهم حليقة الشعر على شكل طاسة وأسنانهم لماعة، أما رقابهم وأعالي أذرعتهم فبرزت مزينة بجدائل من الخيزران الصغيرة البيضاء. وحمل كل منهم قوساً طولها متران ونصف مترمع سهامه، وبدت النساء قصار القامة، مع مسحة حياء على وجوههن، وقد ارتدين مآزر منسوجة قصيرة.

أما الأولاد فقد زينو شحمات آذانهم وأعالي أذرعهم بعناقيد من ريش الطوقان.

استقبلني شاغاس، وهو شقيق مانويل الأكبر ورئيس القبيلة ببشاشة، واستطاع بعد أن يفهمني أن عدد الأيكا كلهم مجتمعين ١٢٠ شخصاً وكان هذا منذ ثلاثة سنوات، وذكر لي أمواتاً كثيرين وأن منهم أناساً كثيرين ذهبوا ضحية الحمى، لم أكن أعرف الكثير بالضبط عن أمراض هؤلاء الناس ومرة بالصدفة عرفت أن ألبيروانو قد سبق له أن نجا من السل، وقد لاحظت من وصف ألبيروانو لهذا المرض المخيف بالذات أنه لا يعتبر مرض عند الأيكا ولم يعتبر ألبيروانو كذلك بل هو شيء منسوب للأرواح الشريرة وإلى لعنة تحل بالقبيلة، هنا خطرت لي فكرة غريبة أن ألبيروانو الذي يعتبره الهنود صاحب اليد البيضاء عليهم هو في الحقيقة المسبب لوفاة معظمهم.

بعد ظهر اليوم التالي عاد ساحر القرية ليونسا من رحلة إلى جوف الغابة العميق المجهول حتى من القبيلة نفسها ، وهذه الرحلات البرية يقوم بها الشامانات[1] بأعماق الأمازون للحصول على أعشاب طبية وصيد حيوانات لبعض أعضائها قدرات علاجية فسيتحصل الشامات على نخاع وأسنان وعيون بل وأمعاء بعض هذه الحيوانات وتختلط الأسطورة بالحقيقة بالنسبة لهذه الحيوانات لذا فقيمتها الطبية مثلها مثل خرافة قرن الكركدن يعود أغلبها إلى أوهام متأصلة.

المخدرات الشرعية جداً

كان عمر ليونسا أربعين عاماً ، وجهه منبسط كوجه الطفل وجسمه صلب كجسم الراقص وبعد أن برز من بين الأحراش توجه نحو القرية وما أن وصل إلى القسم المخصص له حتى ألقى بقوسه وسهامه على الأرض ومديده إلى جعبة سهامه وهي من الخيزران وكانت متوسطة الطول بحوالي ٤٥ سنتمتراً وتناول غطاءاً مصنوعاً من جلد الخنزير ووضع بين طياته ثلاثة أنواع من أسنان الأسهم: سن من الخيزران العريض لاصطياد الخنزير ، وسن شائك من عظم السعدان لاصطياد الطيور. وأخيراً سن من خشب مستقيم يشبه الصنارة في شكله وكان يعده لاصطياد السعادين, ورغم أن هذه العادة غاية في البشاعة لكن سكان الأمازون يأكلون لحم السعادين. وطفق يطلي كلاً من هذه السنان بمادة صمغية مسحوقة لها من جهة مفعول السم ومن جهة ثانية مفعول المخدر الذي يولد الهذيان.. تناول ليونسا الشامان قبضة من هذه الأسنان وأخذ يفركها فوق ورقة موز إلى أن تجمع لديه ركام كاف من مسحوق بودرة يراوح لونه بين الأحمر والبني. ورفع المسحوق إلى أنفه وصار يشمه. ثم أوى إلى أرجوحته.

---

١ - الشامانات جمع شامان وهو ساحر وكاهن وطبيب للقبيلة البدائية بنفس الوقت، وهم يستشيرونه حتى في أمورهم الطارئة والإجتماعية منها وسلطته قد تطغى على سلطة رئيس القبيلة أحياناً.

وما إن مضت عليه خمسة عشر دقيقة حتى هب من مكانه وأخذ يغني ويرقص ويئن بشكل صوفي عميق مؤدياً حركات رشيقة من يديه وملقياً نظرات مستعطفة إلى أعلى... ومع إيقاع رقصه البربري وتصاعد نغماته صار غناؤه يشبه الغناء الديني الروحاني الخاص بزنوج أميركا، وصار أحياناً يصدر ألفاظاً غريبة وجملاً قصيرة موحية باندفاق روحي عميق لديه.

اقترب روبي مرافقي مني وهمس في أذني وهو ينظر باتجاه الشامان بخشوع واحترام بل كان في عينيه شيء من التقديس وهمس: الشامان وحده يدرك ما يقول.

شمة المخدرات هذه التي يسميها الأيكا (واشاهاروا) يتناولها رجالهم فقط والشامانات بشكل خاص لتساعدهم بأعمالهم وتنبؤاتهم السحرية.

أكمل روبي همسه في أذني: أن الواشاهارا تدخلك في عوالم ثانية غير عالمنا فتصير ترى حيات الأناكوندا تسبح في السماء، وترى عيون الجواغر تهيج باللمعان من خلال أغصان الغابة أنها تجعلك أنت نفسك تطير في الهواء وتسبح كالكوندور[1] محلقاً فوق الغابات سابحاً بين الجبال وشلالات الأنهر وستنسى العالم كله حين تستعملها إنها عالم آخر....

يعتقد جماعة الأيكا أن الموت والمرض ليسا مصادفة إنما تسببهما روح شريرة أو عدو بشري يقوم بأعمال سحرية، وحينما يسبح الشامان في عالم الواشاهارا الضبابي الإدراك يدعي وهو تحت تأثيره أنه يعرف الجاني في أي جريمة تحصل بعالم هذه القبائل الوحشي، فهو يدعي أنها تساعد على إدراك الأسباب الخفية للأحداث.

---

١ - نسر أميركا اللاتينية ومتى فرد جناحيه وحلق تنفلش ريشاته عند حافة جناحيه فيصير أجمل طائر محلّق بين الكواسر.

وبالأمازونيا تنعدم القوانين والمحاكم ولا يوجد عملياً أي سلطة للدولة البرازيلية ما عدا دوريات طيران الجيش وحرس الحدود وخفر الأنهار بالأمازون شبه معدوم وفي هذا القفر الواسع يرتد الإنسان إلى أصوله البدائية أكثر ما يكون لهذا عندما تقوم قبيلة بالهجوم على أخرى لتعاقبها فهي تخطف نسائها وأطفالها ما أمكنها وتقتل من الرجال ما تقدر عليه، ثم لا تلبث أن تعود إلى مواطنها التي تفصلها عن أي قبيلة أخرى مسافة من عدة كيلومترات وحتى عشرات الكيلومترات، ويقوم الشامان بحقن تلك الرؤوس بمواد تحنطها وتصغر حجمها بعد قطعها فرؤوس المحاربين الأعداء يجب قطعها كتذكارات والاحتفاظ بها معلقة بأحد القاعات المصنوعة أيضاً من القصب المجدول حيث يعلقونها من شعرها ويبقى بعضها بعيون مفتوحة تحدق بقاتليها وقاطعيها، فيم يعتبر الأحياء المنتصرون هذا التصرف الرهيب الوحشية فألا حسناً.

مضت الأيام وأنا أقيم بين الأيكا، ثم ضم روبي ومانويل جهودهما كي يقنعا ليونسا بمرافقتنا إلى الإرسالية فقبل، وقمنا نسير تاركين ورائنا بدرينو بعد ما فقد الرغبة في مواصلة الرحلة، وفي الطريق أظهر الشامان براعة في استخدام القوس لم أكن أظن أنها توجد خارج رواية وليام تل فقد كان يستطيع إصابة ببغاء بالسهم وهو بعيد عنه ما يقارب الخمسة أمتار فيسقط جاهزاً للشوي وأنا انظر ولا اصدق ما أرى، ومرة أخرى لدى سماعه نداءاً صادراً من داخل دغلة كثيفة التفت إلينا وقال: هذا طائر كوراسو، ثم هيأ سهماً من غمد الخيزران وقفز نحو مصدر الصوت. برشاقة، ثم أخذ يتنقل بقفزات طويلة هو ينحني نصف انحناءة. وقبل أن يشعر الطائر به انتصب على مقربة منه تحت الشجرة وصوب إليه ضربة جعلته يهوي على الأرض والسهم معلق في عنقه.

وأكلنا كل ما وقعت عليه أيدي الهنود. وفي إحدى الليالي كنا لم نجد شيئاً طوال أيام أكلنا سلحفاة التقطها روبي في منطقة ضحلة من النهر فسلخ جلدها بطريقة وحشية وقلبها ينبض حياً، اقشعرت نفسي من الداخل من الطريقة البشعة التي يحياها هؤلاء البرابرة، وفي الليلة اللاحقة كان قد مضى علينا أربعة وعشرون ساعة بلا طعام وفيما كنا نمر بجانب سبخة صغيرة متفرعة من إحدى النهيرات التي لا تحصى، والتي هي سواقي صغيرة عملياً تصب بالأنهار التي تصب بالأمازون كنا نقف تحت ضوء القمر وقد بان الكوكب وأرسل ضوئه الحميم باتجاهنا بين فروع الأشجار العملاقة فسمعنا حركة مباغتة صغيرة، وعندما فتشنا عن مصدرها وجدناه قاطوراً[1] هرماً استلقى بجانب مياه النهر المخرخرة بهدوء لكن حركته المفاجئة كشفته لنا، خصوصاً أن الإنسان يجب أن يكون حذراً جداً وسط الأدغال في الليل، وفي قلب السكون زحفنا نحوه وحاوطناه بإشارة من روبي انقضينا عليه فأمسكت أنا بذيله وأمسك ليونسا برجليه الخلفيتين وروبي بفكيه حيث ربطهما، ثم تفرغ لذيله فقطعه قطعاً متساوية تقريباً فيما كنت أشعل النار من الأغصان الجافة المرمية هنا وهناك فجمعتها كعادتي وأوقدت ناراً أضاءت ليل الفسحة الصغيرة التي كنا نتوطن بها، وفيم كنت اشوي ذيل التمساح كان ليونسا يسلم ما بقى منه ويأخذ قلبه ليحتفظ به بعد أن دهنه بمادة صمغية أخرجها من كيسه، وبتنا نقلب قطع الذيل على النار وهي تتلوى وتنتفض فوق لهبها، وسألت روبي إذا كان هناك شيء يمتنعون عن أكله فقال: إننا لا نأكل الأيل

---

١ - القاطور تمساح أميركا اللاتينية وهناك نوعان أساسيان منه أحداهما له بوز ضيق ويقبع داخل النهر ويخرج منها للصيد ويقبع عند ضفافها الهادئة.

والليوبـارد[1] لأنهـا حيوانـات مقدسـة تـسكنها أرواح المـوتى، هنـا أدركـت أن التناسخ اللابشري هو فكرة عالمية من أقاصي الهند حتى هذه البقعة النائية.

في هذه الليلة بعينها بينما كنت مستلقياً في أرجوحتي أدركت أخيراً أنـي نلت مبتغاي وأتممت المهمة التي من أجلها قدمت إلى بلاد الأمازون.

واسـتولت علـيَّ رغبـة في أن أهجـر عـالم حـضارتنا لمـدة معينـة وانتقـل إلى حـضارة أخـرى أقـدم منهـا في الـزمن وأقـرب إلى الطبيعـة بالـذات، ووجـدت في شـخص ليونـسا الإنـسان الطبيعـي الـذي أبحـث عنـه، ولمست مـن خـلال الـوهج اللطيف الذي تشع به شخصيته أنه مدرك كل الإدراك الوحدة الـتي تـربط بينـه وبين بقية الكائنات الحية التي يضجُّ بها عالمه الغريب.

ذات الوقـت انقطعـت نهائيـاً عـن المدينـة وكنـت ألاحـظ نفـسي فـأحس كـل بضعة أحيان هزة عملاقة في نفسي بالوجل والرهبة وكأني أعي العالم مرة ثانية.

إن الكتاب الوحيد الذي حملته معي يروي تفاصيل الأمازونيـا سـفاري. وقد كتبه أحد الرحالة منذ مئة سنة. والجدير بالـذكر أن كل مـا وصفه الكتـاب عن هذه البلاد لا يزال قائماً اليوم ثابتاً بحالته الأولى كما لا يزال مسيطراً ذلك السأم المخيف الذي يجر البشر إلى شفير الجنون.

واستولى علي شعور غريب لأني غدوت سجين تلك الرتابـة في لونهـا الأخـضر الذي تفرضه هذه الأدغال الغزيرة الأمطار. كانت صحتي قد دمرت من لسعات البعوض ونوبات الإسهال ونضحت أعضائي بالنتانة المتفشية في جسم لا يكـف عـن إفـراز الـسوائل فوسـط حـرارة الغابـة الاسـتوائية ورطوبتهـا الخانقـة يـصير

---

١ - نمر أمريكي جنوبي لونه اسود وهو صنف متميز من النمور يناسب جو الغابة المعتم حيث يقبع مموهاً بلونه الأسود وتماهي عيناه الخضراوان خضرة بعض أوراق الأشجار ولون الأفاعي الأمازونية ومتى حانت الفرصة ينقض على فريسته.

الإنسان كالإسفنجة ويبل ملابسه بالعرق في خلال دقائق. فكنت أتحرق لقص أظافري وحلق ذقني ولأن أنظر في مرآة إلى شكل يعيد لي مدينتي..

التل والفسحات

في اليوم التالي أشرفنا على مطل رائع بني اللون يكشف عن مشهد شامل للغابات الممتدة أميالاً وراء أميال والمتراصة بعضها على بعض مع قمة جبل شاهق تنصب ورائها عند حدود الأفق، وكانت تلك المرة الأولى التي نرى كرة الشمس ونورها الذي جرح وهجه عيني، وهبطنا مرة أخرى نحو عتمة الغابة والأمطار تهطل من جديد.

في اليوم التالي بلغنا نهر باكو الذي يجري أجزائه بعرض ٤٥ متراً ويتقلب فوق ركام من صخور ملساء ضخمة تتلألأ بسوادها تحت الماء فأتيح لنا للمرة الأولى منذ أيام أن نغسل ثيابنا التي أهترأت من العرق، ثم نضربها على الصخور وننشرها تحت عين الشمس إلى أن تنشف، وهرع روبي ومانويل وليونسا إلى متابعة مسيرتهم من غير شفقة، وجريت ورائهم مترنحاً كالسكران وباذلاً غاية جهدي خصوصاً بعد ليلة قضيتها أعاني أوجاع الإسهال. فجأة توقف ليونسا كالمصعوق أوقفني معه.. هنا أمامنا وسط الممر الضيق ربضت الأفعى المسماة سن الرمح بطولها البالغ ٧٤ سنتيمتراً فوق رؤوسنا، فأخذنا نركض غير مبالين بها، وحين توقف المطر توقفنا بدورنا وحططنا رحالنا للاستراحة وقال لي روبي على أثر المطر تخرج الأفاعي من أوكارها وهي إذا لسعتك أماتتك حتماً فاحذرها.

وهذا الصنف هو أكثر الأفاعي السامة انتشاراً في أمازونيا ويعرف عنه أنه شديد الشراسة وقادر على أن يحقن في جسم الإنسان كمية هائلة من السم الأصفر القتال لكن أفعانا تلك لم تبدِ أي مقاومة عندما تقدم منها ليونسا

وتناولها بلطف على سن سهمه ليلقيها على جانب الممر، وكان نظره الحاد اكتشفها بين الأوراق الزيتية اللون فأوقفني عن السير لئلا أدوسها فتلسعني، وكنت أحمل ستة أنابيب للحقن المضادة للسم لكن مفعول الدواء لن يحميني تماماً من سم الأفعى. وأنا مقتنع بأني مدين بحياتي لليونسا.

مرت ساعات قبل أن نصل إلى مستعمرة الأيكا على نهر باكو، وهي مؤلفة من أربع سقائف هزيلة أو خمس وسط حديقة موز ووجدناها خالية فتوجه ليونسا ومانويل وروبي إلى الصيد، وإذا لم يحالفهم الحظ عادوا بسرعة وهم يحملون كومة من جذور الكاسافا الحلوة الطعم وكان أكلنا في اليومين السابقين قليلاً وحقيراً والآن هذه الجذور وحدها.

وتكلم روبي باسم الهنود الثلاثة قائلاً إن التعب أخذ منهم كل مأخذ وأنهم عائدون إلى مسكن ألبيروانو في مطلع الصباح، وأضاف: عليك أن تجد سبيلك بمفردك إلى الإرسالية.. فاستولى على الرعب وقد أدركت أن هؤلاء البرابرة كذابون بطبيعتهم وزئبقيون الطباع، فصرخت بهم: كيف يكون ذلك وأنا لا أعلم أين تقع الإرسالية كان جوابهم : إما أن تجد سبيلك وإما أن تموت جوعاً.. فاستحال الرعب في إلى غيظ وأخذتني رغبة في أن أمنع عنهم البطارية والفأس وبقية الأشياء التي وعدتهم بها ثم فكرت في نفسي: ولكن من يمنعهم من قتلي والاستيلاء على كل شيء!؟!

وبدا مانويل أقلهم تصلباً في موقفه كان ينام خلال رحلتنا على قطع خشب ربط بعضها مع بعض بحبل لأنه لم يكن يملك أرجوحة فعرضت عليه أن يرافقني في مقابل أرجوحتي فقبل العرض.

لم تكن الإرسالية بعيدة عنا بل كانت على مسافة ثلاث ساعات فقط كما تبين لي لاحقاً، وسلكنا مزارع واسعة من الموز والكاسافا، وفي العاشرة صباحاً أخذ يبلغ آذاننا ضجيج الشاحنات من الوادي إلى الطريق العام تحتنا.

فتوقف مانويل وارتدى أفضل ما عنده من لباس وصبغ وجهه بعصير لامع أحمر وبرتقالي معاً اسمه (اوروكتو) ثم شك ريشة في شحمة أذنه وهو يفسر لي موقفه قائلاً: يؤم الإرسالية نساء قادمات من القرى البعيدة ومن يدري قد يسعدني الحظ فأجد بينهن واحدة تناسبني.

وصلنا إلى مسكن مستدير يبلغ علو سقفه ٢٣ متراً، وجدنا في داخله هنوداً يحركون بمجاذيفهم معجوناً من الموز الحار في زند من الخشب واسع مجوف، ولمعت عيونهم اهتياجاً لدى رؤيتنا ثم اقتادوني تواً إلى المستشفى حيث التقيت حسناء بيضاء في الأربعين من عمرها إنها كلوديا أندوجار إحدى شهيرات فن تصوير الهنود في البرازيل، وعرفتني على رجل إيطالي ملتحي اسمه كارلوزاكيني وهو يعيش هنا منذ ثماني سنين يمارس خدمة الكهنوت ويقدم العناية الطبية إلى قبيلة يانومامو، وفي الوقت نفسه يهتم بدراسة حضارتهم وأساطيرهم. يبلغ عدد أفراد القبيلة في كاتريماني وما حولها العشرة آلاف هندي وهي تعد من أضخم المجموعات البشرية البدائية في عالمنا اليوم.

أجفل كلوديا وكارلو في البداية لرؤيتي فهما يعلمان كل العلم أنه ليس من السهل إطلاقاً أن يحل على هذه الأرض زائر، وتبعد الإرسالية ١٤٣ كيلومتراً عن الطريق العام الذي يشق حالياً وينتظر أن يلف أطراف الحدود الشمالية من منطقة الأمازون البرازيلية، وعند حدود الكيلومتر ٤٩ أقامت المؤسسة الهندية القومية حاجزاً لتمنع المرور على كل إنسان لا يحمل تفويضاً رسمياً، وقبل إقامة هذا الحاجز غزا المنطقة جماهير من المنقبين عن الأورانيوم وحملوا معهم داء الحصبة الذي مات بسببه عشرون هندياً من قبيلة يانومامو.

وأطلعني كارلو على النظام الذي تتبعه الإرسالية في علاقتها مع الهنود وقال: إياك أن تهبهم شيئاً من غير بديل من صنع أيديهم أو من غير خدمة يؤدونها، والغاية من هذه القاعدة منع الهنود من أن يتحولوا إلى طلاب حسنة

ويخسروا مميزات حضارتهم، ووزع عليهم كارلو بطاقات تحمل نقاطاً متعددة الألوان يبد لونها بفؤوس ومرايا وقدور من الألمنيوم، أما الشيء الوحيد الذي يحصلون عليه مجاناً فهو العناية الطبية التي يكرس لها كارلو وكلوديا جزءاً من النهار أحياناً، إلى ذلك يعمل كارلو ببعض المرارة على مقاومة الدور الذي يقوم به أناس مثل ألبيروانو إذ يقنعون الهنود بهجر الأعمال الأساسية المرتبطة بحضارتهم كالعناية بحدائقهم والانصراف عن صيد الجواغر وتبديل جلد الواحد منها وهو يساوي ألوف الدولارات بالنوفوتيهات الفخمة بشوارع المدن الأوربية والأمريكية الكبرى تبديله بـ... زوج من السراويل! يدرك كارلو تماماً أن نظام المكافأة هذا سينهار يوم افتتاح الطريق العام، فعلى هذا الطريق بالذات سيعود أبناء الأدغال النازحين إلى مساقط رؤوسهم حاملين معهم شراب الروم والألبسة والبنادق والأغراض حتماً فعالم الهنود الغامض له أمراضه الخاصة به وأي فيروسات جديدة لا يقدر على تحملها، فما يمرض إنساناً من أوروبا أو أفريقية لأسبوع قد يقتل هنود الأمازونيا الذين بقوا معزولين ألوف السنين عن العالم الخارجي حتى عن أمثالهم هنود الأنكا بالبيرو والمايا شمالاً بغواتيمالا، ويأمل كارلو اليوم في أن يتعلم الهنود في الإرسالية بواسطة نظام البطاقة ذات النقاط والألوان قيمة المال وطريقة استعماله، إذ أن مفهوم المال مفقود تماماً من حضارتهم لكن تفاؤله ضئيل فهو يعلم أن إدخال البنادق مثلاً سيقضي على مهارتهم في الرمي بالقوس تلك المهارة التي مارسوها وطوروها منذ آلاف السنين، وبالتالي سيكون قاضياً على مستقبل القبيلة بكاملها عندما يفتح طريق الاستعمار، وسيرحل كارلو من هنا إلى مكان آخر.

وأخبرني كارلو أن اليانومامو يعتقدون أن الكون مركب من ثلاث مستويات.. الأرض وما فوق الأرض وما تحت الأرض... وأن الكائنات استمدت وجودها من المستوى الأعلى إلا أن قسماً منها سقط على الأرض تاركاً وراءه

ثقباً واسعاً في الفضاء وهوى قسم آخر من الأرض إلى عالم اللاوعي، وبعد الموت تعود بعض الأرواح إلى المستوى الأعلى مرتقية سلماً من العرائش وهذا المستوى مرتع سعيد يحفل بالمآكل. والنساء الحسان كما أنه ملتقى أعضاء العائلة الواحدة الذين فرقتهم الأيام. وهناك أرواح تستحيل حيوانات بسبب أفعالها الرديئة.

وفي عقيدتهم أن اسم الإنسان الأول أوماما، وللغرابة يعتقدون أنه قد ضاجع رجلاً أخر فحبل في فخذه، أما المرأة الأولى فقد اصطيدت في نهر أو طلعت من الصخر وهناك روايتان مختلفتان في الشأن ويبدو أن المرأة في حياة اليانومامو لم تخطر في البال إلاّ في وقت لاحق ومهمتها أن تحمل الموز وخشب الموقد وتقعد حارسة للأطفال أو... أن تكون فريسة للخطف، تتعرض الزوجة باليانومامو للضرب المستديم وللحرق بجمر متوهج أحياناً، وهي للغرابة الشديدة تنتظر مثل هذه الخشونة في المعاملة وتقيس اهتمام زوجها بها بعدد الضربات التي تتلقاها منه.

والنساء هن المسبب الأكبر لحروب اليانومامو، فخطفهن من قرية إلى قرية يعني من جهة القضاء على أجيال المستقبل لدى العدو، ومن جهة أخرى زيادة عدد أفراد القبيلة وتسرب دم جديد إلى دمها يحول دون انقراض النسل.

وختم كارلو حديثه قائلاً أن شعب اليانومامو منتشر في قرابة مئة قرية هنا في منطقة رورايما وفي جنوب فنزويلا، وإن نصف هذه القرى فقط تعرض حتى اليوم لغزو الأجانب لكن الطريق العام الجديد سيغير هذه الحال نهائياً.

في صباح اليوم التالي هبطت طائرة تنقل جمهوراً من المراسلين الإيطاليين يقومون برحلة استطلاعية على منشآتهم في أميركا الجنوبية فطرت معهم، وبعد ظهر اليوم نفسه كنت في بوافيستا عاصمة رورايما أغازل كأساً من البيرة الباردة.

وجلس قربي رجلان سمعت أحدهما يتذمر من شعب الهنود الذين يربضون على سطح أرض زاخرة بالمعادن وقادرة على أن تجعل من البرازيل بلداً غنياً وأردف: لو كان الحكم في يدي لقطعتهم عن بكرة أبيهم...

في تلك اللحظة بدا عالم أصدقائي الهنود بعيداً عني مسافة أجيال...

١٨ ك١ ٢٠٠٥

الجريمة

في بلدة كارديف بمقاطعة ويلز البريطانية شارع مغمور اسمه فيتزامون امبانكمنت تصطف على جانب منه مبان عتيقة ويتهادى نهر على جانبه الآخر.

يضم المبنى الرقم ٢٩ ثلاث طوابق، وقد بقيت واجهته منذ حزيران ١٩٧٩ محجوبة عن الأنظار بسقالة بناء، فيما انصرف العمال على تحويل أوضه (غرفه) وقاعاته شققاً سكنية.

مرت الأيام والمنطقة الهادئة لا يمر بشوارعها إلا القليل من المارة وكان العمل يسير وئيداً حسب ميزانية شركة المقاولات الصغيرة وما تتقاضاه من الممول. أشرق صباح يوم ٧ كانون أول ١٩٩١ وبدأ العمال يحاولون تمديد قساطل للكهاريز. لكن وعند الظهر أوقفهم المهندس فقد تبين له أن الخندق الذي حفروه ليس كافياً ، وكان يخترق الحديقة ومن المفروض أن يعيدوا إغلاقه وردمه فيما بعد بالتراب حتى يعود المكان جزءاً من الحديقة كما كان.

لكن المهندس تبين له أنه قد ارتكب خطأ بالحسابات فيما مضى فأمضى ساعتين وهو يعيد القياسات ثم أمرهم بإحضار قساطل إضافية ومعاودة الحفر لتعميق الخندق ثم تمديده.

باشر العمال برفو شهم تنفيذ أوامر المهندس، وفجأة اصطدم رفش أحد العمال وهو يغرسه في التراب بشيء بدا كبير الحجم وليناً على نحو غريب.

فنفض الحفارون التراب بأيديهم وسحبوا من الثلم الموحل حزمة مستطيلة. فألقوها كيساً أسود ملفوفاً بكابل كهرباء رفيع، وأخرجوا من داخلها

سجادة متآكلة وبسطوها فوجدوا داخلها هيكلاً عظمياً بدا أنه لفتاة قد كان شعرها الطويل المهترئ ما يزال محيطاً برأسها وكان هناك قرطان قرب الجمجمة.

في الرابعة والنصف عصراً غطي الخندق بخيمة بلاستيكية وضرب حول المنزل نطاق أمني فيما حاصر البوليس البوابة الرئيسية الخضراء للمبنى وبدأ أربعة عشر منهم يجولون المبنى والحديقة بحثاً عن أدلة...!؟

كان ما يفعلونه مضحكاً فقد كان واضحاً تماماً أن الجثة قد رحلت عن العالم منذ وقت طويل مضى. وكان واضحاً أيضاً أن هناك جريمة قد ارتكبت بهذا المكان قبل مدة وإن القاتل قد نجا بفعلته. كشف أطباء التشريح على الهيكل العظمي بالمشرحة بمستشفى متعاهد لمحكمة الجنايات، وأجريت فحوص مخبرية للبقايا فلم تنجح محاولات تحديد صاحبها، كانت الأنسجة اللينة قد تحللت، وإن تكن بعض الثياب قد بقيت عالقة على العظام.

بدأ البوليس جمع معلومات عن الجثة المجهولة شملت مجموعة غريبة من الأدلة الجنائية وإفادات الخبراء، كان أول من أوكل إليه تقصِّي الأثر هو أستاذ الباتالوجيا[1] برنارد نايت، فخلص إلى أن الهيكل العظمي هو لفتاة في منتصف مرحلة المراهقة، طولها نحو ١٦٥ سنتمتراً، وعلق أحدهم بمكان اكتشاف الجثة: إنها لمأساة أن تدفن هذه الفتاة دون اسم.

قدر المحقق مستدلاً بالسماة التجارية على بقايا الثياب أن الفتاة قضت خلال السنوات التسع السابقة. وأن نحو ٧٠٠ قاطن في المبنى الرقم ٢٩ والمبنى المجاور، ومما زاد الطين بلة هو أن المحققين اكتشفوا حسبما أخبرهم به أحد السكان بالصدفة وتأكدوا منه فيما بعد، أن البنايتين كانتا ملتصقتين فيما

١ - علم الأمراض وصفاتها المشتركة فيما بينها وتحليلها ومقارنتها مع البيئة.

مضى، ولما رجعوا للسجلات الهندسية وسجلات البلدية وجدوا أن ذلك كان بين عامي ١٩٨٠- ١٩٨٩! وحسب إفادات السكان لم يتذكر أحد فتاة شقراء معينة.

القدر

في اليوم الذي تلا الاكتشاف نقلت الشرطة الجمجمة إلى ديفدويتكر وهو مستشار في طب الإنسان الجنائي لدى الحكومة البريطانية، فصور الفك بالأشعة السينية ليتبين مدى نمو الجذور، ولمزيد من التدقيق اقتلع إحدى الأسنان وحزها طولياً فتأكد له أن الفتاة توفيت وعمرها خمس عشرة سنة ونصف.

بعد ذلك نقل مكتب التحقيق الجمجمة إلى اختصاصيين بالأنتروبولوجيا البايولوجية في متحف التاريخ بلندن، فأدخلا مقاييس الجمجمة ذاكرة الكمبيوتر وكانت تحوي ٢٥٠٠ نوع من الجماجم من كل أنحاء العالم، فخلصا إلى أنها لفتاة بيضاء، كما استنتجا من شكلها والأسنان الكبيرة أنها من غير المحتمل أن تكون من أصل بريطاني صرف.

في تلك الأثناء أكب عالم الحشرات زكريا إرزنكليوغلو من جامعة كامبردج على مقارنة الحشرات التي وجدها بين العظام بتلك القاطنة بالتربة المحيطة، فوجد أنواعاً من قمل الخشب الذي اجتذبته الفطريات النامية على العظام، فاستنتج إرزنكليوغلو أن الفتاة دفنت قبل خمسة سنوات على الأقل..

احتار المحققون فهم وبعد كل جهودهم باستجواب عشرات الأشخاص والتي لم تؤدي إلى شيء جاءهم الآن خبراء يختلفون مع بعضهم بعدد السنوات لتقدير عمر البنت المتوفاة ويختلفوا معهم بشان ذلك.

بدا أن القضية ستذهب بغياهب النسيان وأن الغموض البريطاني سيلفها بضبابه تماماً كقصص الأشباح المنتشرة في بريطانيا، وفي ذلك الوقت تقدم

المقاول بطلب لاستئناف العمل فوافقت المحكمة على ذلك، وكان الرجل محقاً فقد تكبد خسائر فادحة دون طائل ووقف أمام القاضي يقول له: لا داعي لإرسال ١٨ شخصاً للبطالة بسبب جثة مجهولة ونحن ليس لنا علاقة بها، ولم نكن ندري عنها شيئاً، بل إننا لم نكن نعرف ذلك المكان أصلاً عندما تمت الجريمة.

المعجزة

عبر تاريخ الإنسان كله لم يقدر الإنسان إلا على تخيل الأموات من المشاهير عبر أوصافهم المدونة، لكن وبتلك الفترة من الثمانينيات بالقرن العشرين ظهر فنان خارق استطاع عبر جمع عدد من التقنيات إعادة تشكيل تماثيل مطابقة لأناس ماتوا منذ زمن إذا حصل على جماجمهم، كان الرجل فناناً ونحاتاً واسمه ريتشارد نيف ويبلغ الثالثة والخمسين ويعمل بجامعة مانشستر، وقد اشتهر بقدرته على إعادة تشكيل وجوه الجثث المنبوشة من الحفريات الأركيولوجية[1] ومنها موميائيتان مصريتان، توصل إلى إعادة تكوين وجهيهما عام ١٩٧٣ بعد فك أربطتهما في متحف مانشستر، كما توصل استناداً إلى الجمجمة فقط إلى إعادة تشكيل وجهي فيليب الثاني المقدوني (والد الاسكندر الكبير)، والملك ميداس حاكم فريجيا في آسيا الصغرى.

هذه التقنيات كانت قد بدأت تنتشر بذلك الوقت بغرب أوربة وأمريكا، لكن لم يكن من السهل أبداً مضاهاة ريتشارد نيف بذلك فهو واحد من قلائل كانوا يستطيعون مقاربة الشكل الأصلي للرأس والوجه مع الواقع بنفس

---

١ - الأركيولوجيا علم كل ما هو انتيكة من عفش ومباني ومومياءات أيضاً، كما أنه علم استخراج هذه الأشياء وحفظها بالمتاحف.

المقـاييس وإن تكـن غير كاملـة وبالنهايـة إنـه يحيـي الأمـوات بتحنـيطهم.. بعـد الموت بزمن طويل وليس قبله.

كـان ريتشارد ملماً بالتشريح مثل النحت وكـان يراقـب كـثيراً مـن الأحيـان عمليات التشريح الرهيبـة في مستشفيات لندن ومانشستر، وهـي مراقبـة تحتـاج لأعصاب حديديـة خصوصاً وأن الجثـة قد تكـون مشوهة بشكل بشع ورهبـة الموت لا يستطيع أي إنسان أن يقاومها.

نقل البـوليس جمجمـة الفتـاة إلى مختبر ريتشارد في ١٤ كـانون الأول، وقـد بـدا بمـا اصـطف بـه مـن جمـاجم بـشرية مـسبوكة مـن البلاسـتيك وفـق كـل المقاييس والأوصاف، كأنه قبو عالم مجنون، وبالأوضة التي يخلد إليها لتنـاول الشاي يتدلى هيكل عظمي يهتز مقعقعاً كلما لامسه قاصداً ملأ فنجانه.

أما الجدران فمغطاة بصور وجوه أعادهـا إلى الحيـاة. عمـد ريتشارد أولاً إلى تـصوير الجمجمـة بالأشـعة الـسينية بحثـاً عـن بنيـات غير مألوفـة لكنـه لم يجـد شيئاً مـن ذلـك ثـم صـنع نـسخة بلاسـتيكية مطابقـة للجمجمـة وفي ١٨ كـانون الأول استعد لمباشرة العملية الدقيقة والمروعة الهادفة لتحويلها وجهاً بشرياً.

جلس ريتـشارد والجمجمـة قابعـة في حـضنه وأخـذ يفكـر في أسـلوبه الـذي يعتمـد ابتنـاء الأنـسجة اللينـة عـضلة عـضلة ويتـيح للوجـه الانبثـاق مـن سـطح الجمجمة خارجاً ثم راح يقلب صفحات كتاب حوى رسوماً تشريحية والواقع أن جوهر ما كان ريتشارد يعمل عليه هو نسب معروفة سلفاً ومعايرة عن مقـاييس بين الوجـه ومحيط الجمجمـة أمـا الثخانـة فتحـدد اسـتناداً إلى عوامـل كـالعمر والجـنس والعـرق، كمـا تحـدد أدق التفاصـيل وفـق مجموعـة مقـاييس متعـارف عليها، وهنا وبالتفاصيل الدقيقة بالذات تلعب موهبة الفنان وخياله دور رئيسياً، فلا يقدر أي إنسان بمجرد تطبيقه لما سبق إعادة - خلق - رأس بشري.

ومرة قال ريتشارد لأحد المحققين: ينبغي معرفة الحقائق الأساسية، فعمر الفتاة خمس عشرة سنة ونصف، وهذا يعني أن وجهها كان مرناً ونضراً وصحتها جيدة على الأرجح، بدأ ريتشارد بحفر ثقوب صغيرة في ٢١ موقعاً استراتيجياً بالجمجمة المنسوخة تناولت ملامح مثل الصدغين والجبين والشفتين والفكين والذقن، وأدخل بالثقوب عيداناً خشبية تشبه عيدان الأسنان لكن متفاوتة الطول، بهدف مباشرة عملية بناء الغلاف البشري بهذه المواضع وهو ما ستحمله هذه العيدان وتحدده، ثم قاس عرض الجمجمة بسنتيمتراج[1] وراح يحفر ثقوباً في مركزي العينين لجعلهما مفعمتين بالحياة كما قال.

أما الشفتان فلا يمكن تحديدهما إلا افتراضاً في فضلى الحالات لأن الجمجمة لا تقيم دليلاً على شكلهما. كذلك الأنف الذي يعتبر الجزء الأكثر غموضاً، إذ ليس ثمة علم يستطيع استبيان شكله.

ومتى تمت تغطية الجمجمة بالطين تبدأ الخطوة التالية التي تتناول (انسنة) الوجه. لقد أراد ريتشارد تحقيق تشابه يتعرف إليه شخص ما.

بعيد الثالثة من عصر اليوم التالي انتهى ريتشارد من تشكيل وجه الفتاة فهرعت جماعة البوليس بعد ٢٠ دقيقة لأخذ الصور، وما إن وصلوا حتى تسمروا جامدين، فقد أبصروا أمامهم تمثالاً لفتاة تبدو وكأنها من ضباط الجيش فقد كان لها ملامح جامدة وقوية وبدت لهم قسمات وجهها مضلعة ويستدل منها على أن بنيتها كانت قوية أيضاً.

عقد مؤتمر صحفي وزعت خلاله صور لوجه الفتاة التي تلقفها الصحفيون ليعملوا منها قصة اجتماعية غامضة تلفت الأنظار، فنشرت صورة التمثال

---

١ -أداة مكونة من عصي تبعد أو تقرب من بعضها لأخذ قياس الأشياء والعصا الأساسية عليها مقياس مدرج بالمليمترات.

بالعديد من الصحف بكل أنحاء بريطانيا، وكذلك على شاشات التلفزيون، ثم جرى تعميم أفيش تعريف وقد كتب تحت صورة التمثال: هل تعرفون هذه الفتاة، لم يمضي يومان حتى اتصل بالبوليس عامل اجتماعي من مدينة كارديف قائلاً إن تلك هي صورة كارين برايس التي هربت من دار للرعاية. واتصل آخرون عارضين أسماء فتيات مفقودات تبين أنهن جميعاً على قيد الحياة. باستثناء كارين برايس. وفي الشهر التالي عثر البوليس على سجل كارين من محفوظات أحد أطباء الأسنان في كارديف فتم تحويل السجل إلى ديفيد وتيكر الذي كان أول من كشف على أسنانها وبعد مقارنة السجل بما تضمنه تقريره، لم يبق لديه شك في أن تلك هي جمجمة كارين برايس. وفي غضون ذلك اتصلت عاملة اجتماعية من بلدة ساوسغلامورن في ويلز، مفيدة أن تلك هي صورة كارين برايس، وأن كارين كانت في عهدة دائرتها، وسرعان ما عثر في الدوسيهات على صورة فوتوغرافية للفتاة. قورنت الصورة بالجمجمة المحفوظة في مستشفى وايتشابل بلندن وتولى الطبيب الجنائي بيتر فاينزس إجراء مطابقة إلكترونية بين الصوة والجمجمة على شاشة فيديو، فبدأت الأرقام تتوالى بالظهور على شاشته فتبين أنهما متطابقتان.

أصل الحكاية

ولدت كارين برايس في كارديف في ٤ أيلول ١٩٦٥ من جذور ويلزية وقبرصية يونانية وأسبانية وأمريكية، فبدت حسب الدوسّيه أعجوبة بيولوجية لاختلاط البشر فأصول أجدادها أعطتها شكلاً مميزاً وغريباً، وكذلك كانت قصة حياتها وموتها، بل وانبعاثها مرة ثانية: وتوحي صور عائلتها بعيشة هادئة، إلا أن والديها تطلقا إثر خلافات مريرة عام ١٩٧٢، وتزوجا كلاهما ثانية. وكان لكل منهما ابنان وابنتان وهكذا شكل كل من والديها عائلة

مثالية وبقيت هي المنبوذة بين العائلتين، كانت قصة حياتها مأساة رهيبة بشعة فكل من والديها اعتبرها حشرة يجب التخلص منها، ومنغصاً من منغصات حياته ومخلوقاً كريهاً يذكره بزواجه الماضي الكريه، فقد كره الزوجان بعضهما حتى الموت، وكرها كل من يذكرهما بالآخر فكانت الطفلة كارين المسكينة هي الضحية لهذه المرارة الأسرية، عاشت مع والدها مايكل برايس حتى العام ١٩٧٥، لكنه لم يعد يطيقها لا هو ولا زوجته وذات يوم، أخذ الطفلة من يدها بعد أن ألبسها ووضع باقي حاجياتها بشنتاية واقتادها إلى مصلحة الرعاية الاجتماعية في ساوسغلامورن، وكان من قدرها أن تعيش طوال السنوات الستة اللاحقة في هذه الدار.

لكن الوالد لم يهمل ابنته التي تخلى عنها نهائياً فكان مع كل نوبة من تأنيب الضمير يزورها للاطمئنان عليها، وهناك عاشت محرومة من الأسرة وقد ترك تخلي والديها عنها داخلها جرحاً عميقاً وألماً ومرارة لا تمحا، وإثر زيارة لأمها لها من ضمن زياراتها القليلة تجادلت معها وأفصحت عن ألمها من جراء تخليها عنها وبقمة غضبها هربت كارين للشارع، لكن العاملين أعادوها وزاد من مرارتها أن أمها كانت تشاركهم بذلك.

وفي السنة التالية نقلت كارين إلى دار أخرى إلا أنها هربت ثانية وبمرور السنوات نسيت تماماً. بعد التعرف على الجثة أفاد البوليس من آراء الخبراء لتضييق الزمن المفترض لوفاة صاحبتها إلى فترة تراوح بين تموز ١٩٨١ حين هربت من دار الثانية إلى نيسان ١٩٨٢.

لقد أمكن لحد الآن دفن الفتاة وهناك اسم على شاهد قبرها، فقد حضر والداها ببرود وتسلما بقايا الجثة، فاصطحباها إلى مدافن العائلة (بجنازة محترمة) من أجل المظاهر وهناك ووريت الثرى. مر الزمن وطويت التحقيقات ونسبت عملية القتل ضد مجهول، علماً بأن عملية القتل افتراضية لأن الدليل

عليها هو أن القاتل وارى الجثة تحت التراب بالحديقة، ولم يبلغ عن وفاتها للسلطات، لكن الهيكل العظمي لم يدل على أي أثر لجريمة القتل.

بعد سنين طويلة عرضت قناة –BBC- التلفزيونية برنامجاً عن إمكانية تشكل وجوه الأموات لحل بعض جرائم القتل المستعصية، وعرضت صورة كارين وحض مقدموا البرنامج على المساعدة في معرفة قاتلها. بتلك الليلة اتصل مشاهد قاد البوليس إلى شخص اسمه إدريس وهو مجرم محترف من كارديف كانت وظيفته (كابتن سكس) فكان يجند الفتيات للعمل بالدعارة متى لاحظ أن ظروف إحداهن تساعدها على امتهان هذا العمل، وعادة تكون ظروف الفتيات صعبة جداً للقيام بهذا العمل المدمر للكرامة والأعصاب.

تعرف إدريس إلى كارين في المدرسة حيث كان يحاول (إستلقاط) البنات بحيل يعملها وسرعان ما التقيا في كارديف بعد هربها من دار الرعاية، وكانت وقتها بالسادسة عشرة، فأقنعها بأنها ستكون عاهرة ممتازة ستجني الكثير من المال وتحقق ما تريد بعمل سهل.

ذات مساء مر عليها بالشقة الحقيرة التي كانت تسكن بها مع صديقة لها عمرها ١٣ عاماً! وهي تعمل بالدعارة أيضاً، وهناك أخبرهما أن هناك زبوناً يريد أن ينتقي منهما واحدة وتكون الثانية له، لم يكن المبلغ كبيراً لكن الشغل شغل، اصطحبهما إلى شقة بالطابق الأرضي من المبنى ٢٩ كان يقيم بها صديقه آلان تشارلتون وكان عمره ٢١ عاماً، وما إن وصلتا حتى اكتشفتا أن آلان كان شخصاً منحطاً ذو شخصية دنيئة فكان يتهجم على الناس باستمرار وله طبيعة سايكوباتية[1] عدوانية فصار يتهجم بدون سبب على كارين

---

١ - السايكوباتية: مرض سايكولوجي ينشأ مع الإنسان بمراحل طفولته المبكرة، لا شفاء منه وصاحبه مسؤول عن تصرفاته غالباً، وهناك نوع من أخطر أنواعه الخمسة وهو السايكوباتي العدواني، و لا مفر من أن يشتبك السايكوباتي مع الناس بعداوات ولا حل له حسب خبراء

فاشتبكت معه بشجار وأراد إديس إرضائه (لأنه زبون) فاشترك بالشجار بصفه ضد كارين وتطور الشجار إلى العراك الهستيري فضرب الاثنان كارين ثم خنقاها.

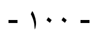
وقف الإثنان فوق الجثة الهامدة مذهولين. فيم كانت الفتاة الصغيرة تنتفض رعباً، فهدداها إذا تكلمت بالموت فوافقت فوراً، وبعد دقائق من التفكير اهتدى الاثنان إلى حل، ولم يكن سوى لفها بسجادة قديمة ثم وضعها في كيس بلاستيك، فتشا عن حبل فلم يجدا فأخذا وصلة كابل مروحة وكانت طويلة، وربطاها بها، ثم خرج إدريس ليراقب بالخارج فلم يكن هناك أحد وعند ذاك فتشا فوجدا رفشاً ومعول صدئين بطرف الجنينة يستعملهما الجيران لعزقها فحفرا لأكثر من متر تحت التراب ثم سحباها ودفناها هناك وردما التراب، ثم أكملوا السهرة... مع الفتاة المسكينة، التي دمرت أعصابها بعد ما قضت نصف الليل وهي تحدق بجثة صديقتها.

وبعد عشر سنين من تنفيذ الجريمة قبض البوليس على تشارلتون بمنزله بجنوب بريطانيا، وفي شباط ١٩٩٢ حوكم هو وإدريس وأثناء المحاكمة شهدت الفتاة عليهما خصوصاً بعد ما أقنعها المدعي العام بذلك، إذ كانت بصماتها باقية على كيس النايلون من الداخل عندما فرداه وأدخلا السجادة خلاله، كما وجد البوليس، طوقاً كانت تلبسه كارين وتعرف عليه ذووها كان آلان أهداه لصديقة له، أما إدريس فكان من الغباء لدرجة أنه أخبر اثنتين من العاهرات عما فعله ليخيفهما حتى لا تهربان منه وبالمحكمة دين الإثنان فحكم على تشارلتون بالسجن المؤبد، أما إدريس فاحتجز احتياطياً لأنه كان دون

السايكولوجيا سوى بعزله عن المجتمع أو حتى عن السجناء إذا كان بحبس، ولا يمكن للإنسان العادي التخلص من شره إلا إذا ضربه أو أهانه باستمرار ثم أبعده عنه حيث يستحيل التفاهم معه لغاية مفيدة لأي عمل.

الثامنـة عـشرة يـوم تنفيـذ الجريمـة، اسـتأنف الإثنـان الحكـم وبوقاحـة طلبـا البراءة، أما كاترين فكانت مأساة صامتة تشهد أن الزمن لا يرحم.

الثلاثاء ٢٦ أيلول ٢٠٠٦ صباحاً وقد بدأ الخريف



ترامت أمواج المحيط إلى اللانهاية وكان الوقت شتاءاً وقد سطعت الشمس لتدفئها مع أجساد الصيادين المترامين على سطح الساتنا جود، لكن بارقة أمل واحدة لم تكن لتسطع تحت أشعة الشمس، بأنهم سوف يتخلصون من محنتهم. وسط أمواج المحيط الجبارة.

تائهون في المحيط الهندي

أطل أنطوني فرنسيكا بوجهه إلى خزان الفيول ثم أدار مفتاح تشغيل البيل الكبير ووجهه إلى فتحة الخزان ثم إلى قعره فلم يبصر سوى أمواج قليلة تتلاطم من بقايا ما كان عليه حين أقلع مركب الصيد السانتاجود من قرية صغيرة على شاطئ المحيط بسيلان، كانت القرية مثل غيرها من قرى الصيادين المنتشرة على طول شواطئ سيلان الطويلة، مبنية من عشش من القصب وأكواخ من الآجر والخشب الرخيص ومسقوفة بالأترنيك الرديء الصنع، فيما تترامى أمامها رمال بيضاء متسخة من آثار زيت موتورات زوارق الصيادين ولنشاتهم المشلوحة هنا وهناك على امتداد الشاطئ، تاركة بينها فتحات تضج من خلالها أمواج المحيط الهادرة وهي تقترب من الشاطئ لتتبعثر على رماله الناعمة.

منذ أكثر من عشرين سنة وأنطوني فونسيكا، الربان القدير الهادئ يمتهن صيد السمك قبالة ساحل سيرلانكا. الثالثة فجر الأربعاء ٢٥ نوفمبر ١٩٨٧ ترك فونسيكا منزله القرميدي الصغير في بنداروواته وهي قرية تقع قرب بروويلا بهدوء لئلا يوقظ زوجته فيلبومنا وأطفاله الثلاثة، وتوجه الرجل النحيف الذي يتمتع بثقة مطمئنة وصوت هادئ ناحية الشاطئ حيث صعد السانتا جود، الزورق المصنوع من مادة الفايبر كلاس، ليجهزه لرحلة صيد تستغرق ثلاثة أو أربعة أيام، كان عليه أن يعود وأفراد طاقمه الثلاثة لصيد سمك القرش الذي يقدم في مطاعم العاصمة كولومبو. وسمك البالايا الرائج لدى العامة، إلى أنواع البوزنك والطونة اللحيم والكابارا السمين التي تتميز بها الأوتيلات الساحلية المنتشرة على امتداد الساحل ذي الشاطئ الرملي، وكان يأمل أن يعود السانتا

جود من رحلته بحمولة كاملة قيمتها نحو ٢٨٠٠ دولار يخصص نصفها لصاحب الزورق جيرار فاس بعد خصم ثمن الطعام والوقود ومصارف أخرى. وتوزع البقية بالتساوي على أفراد الطاقم.

بدأ الريان الشاب البالغ السادسة والثلاثين منشغل البال، إذ أدرك وهو يستعيد في ذهنه ليستة حاجات الرحلة أن الزورق ليس مزوداً سوى بـ ٣٠٠ ليتر من الوقود. كان يجدر بفاس أن يرفع هذه الكمية إلى الضعفين تحوطاً، إلى ذلك كانت تعوزهم الأشرعة وهي تدبير احتياطي أولي يمكن الركون إليه إذا ما توقف الموتور الذي تبلغ قوته ثلاثة وثلاثين حصاناً ثم إن السانتا جود لم يكن مزوداً بأجهزة اتصال لاسلكي إذ كانت الحكومة حظرت استخدام مثل هذه الأجهزة في محاولة للحول دون تسلل المهربين والإرهابيين إلى سيرلانكا من البحر في مراكب صغيرة.

في أي حال كانت كمية الطعام تكفيهم عشرة أيام على الأقل. كذلك علب من الكبريت لإيقاد النار للطهو فضلاً عن ٢٠ كيس من الثلج حفظت في عنبر السمك وهي تصلح لخمسة أيام. وفي مؤخرة الفلوكا احتفظ بنحو مئة ليتر من مياه الشرب في براميل بلاستيكية ربطت إلى خزان الوقود. تفحص فونسيكا صنانير الصيد الـ١٥ بخيوطها الطويلة والخاصة بصيد التونة والبلايا وبدت شباك متينة بطول ١٠ أمتار ملفوفة أمام أوضتين ترتفعان نحو نصف متر فوق المتن الذي يبلغ عرضه نحو مترين ونصف، وتحتل الأوضة التي فوق الموتور ويبلغ عرضها متراً ونصف متر وطولها نحو مترين، والأوضة الثانية المماثلة اتساعاً فوق عنبر السمك معظم مساحة المتن، باستثناء مواضع الشباك والعدة وجهاز القيادة. وأفردت تحت المتن خلف الموتور ذي الهدير الضاج وإلى جانبيه فسحات رطبة ضيقة يملأ الشحم أنحائها ويعبق فيها الدخان لينام فيها أربعة أشخاص، وأخليت لفونسيكا فسحة مماثلة في مقدم الزورق. وما هي إلا دقائق

حتى صعد أنطوني روهيتا فرناندو (٢٣ عاماً) إلى الفلوكا (قارب صغير). وروي هذا شاب نشط قليل الصبر أحياناً، لكنه بحار مجتهد ومساعد خبير، وكان يسعى لجمع المال ليبني منزلاً في فترة قصيرة لزوجته الحامل دفيكا وابنهما تشامارا البالغ عامين من العمر. بادره أنطونيو فرناندو ٢٥ عاماً الذي لا يمت إليه بقربى: كيف حالك، وأنطونيو شاب هادئ مقل بالكلام لا يظهر تأثره بسرعة غير أن داخله يضطرم بكل أنواع المشاعر، وقل الغضب إن شئت وهو يعيش وزوجته أسوناتا سريماتي وابنتهما دينوشا (عامين) وابنهما نيلانكا (عام واحد) مع أهل زوجته في قطعة أرض ريفية تبعد ثمانية كيلومترات عن بنداروانه. كان همه أن يسدد مبلغ ٧٠ دولار استدانها من شقيق زوجته ليقيم حفلة لابنه في عيد مولده الأول. ولأنه كان مستاءً من تصرفات فاس التي لا تطاق أحياناً، قرر في نفسه العمل في فلوكا أخرى، مع مطلع السنة التالية انتاب القلق أنيل سويسا الشاب العصبي وهو ينضم إلى الطاقم، إذ سقط أمامه غصن شجرة من جوز الهند أثناء توجهه من كوخه الهزيل لمصنوع من ألواح خشب وقال في نفسه هذا نذير شؤم، لقد سبق أن حدث لي هذا وكدنا نغرق.

شعر سويسا بالخجل أمام فاس وهو الذي يعتبره صياداً مغروراً تعوزه الخبرة وبخيلاً لا يأبه لمصلحة الآخرين. لكن الشاب كان بحاجة إلى المال ليسدد مبلغاً استدانه من مرابي ليحج إلى مزار كاتاراغاما ويحمل إليه هدايا من الزهور والرز وجوز الهند المقشور والمال وافياً بذلك نذراً من أجل صحة أطفاله الثلاثة وزوجته بريانتي.

أخيراً وصل جيرار فاس بعد حفلة شارك فيها الليلة السابقة وهو لم يكترث لتوسلات زوجته الشابة كاميني كانتي ١٧ عاماً ألاَّ يذهب وكان منجم في قرية الوازا غاما القريبة أبلغ إليها أن الساعة التاسعة والدقيقة الثانية من صباح التاسع من ديسمبر (كانون الأول) ستكون بشير خير لانتقالهما من منزل

والديها إلى منزل كبير أعطاهما إياه والد جيرار وعليهما قبل هذا التاريخ أن يقشطا الجدران ويسوياها ثم يطلياها كما أن عليهما إجراء بعض الترميمات العامة في المنزل.

لم يكن لدى فاس سبب حقيقي ليشترك بهذه الرحلة، يبدو أنه فعل ذلك بدافع الضجر والرغبة في مغامرة صغيرة، وكان اشترى الزورق من مدخرات جمعها أثناء عمله جرسوناً في كازينو للموظفين الأوروبيين في العراق علماً أنه لا يتقن عمل الصيادين مثل وضع الطعم في الصنارة وسحب الشباك والتنظيف. وقد حاول في رحلة الصيد السابقة المطالبة بخُمْس حصة الطاقم من أرباح الصيد إلى حصة النصف التي تحق له كمالك للزورق بمجرد مشاركته في الرحلة، لكن الرجال هددوه بالإستقالة، وقال له فونسيكا لا ندري لماذا أتيت إنك لا تعمل وليس من العدل أن تأخذ ما لنا، وتراجع فاس عن مطلبه لكنه ظل يكتم في نفسه ضغينته. كان فاس مثلاً على صغار أو متوسطي المالكين المنتشرين في بقاع كثيرة بالعالم الثالث والذين يحبون القعود عن العمل الحقيقي والتنبلة إذا توافر لهم المال واستغلال العمال لديهم بقسوة وحشية لا ترحم ولا تعرف الضمير، فالنقابات معدومة وهذه الدول تحكم عادة بحكومات يهمها الحفاظ على السلطة فقط لذلك يكون العمال كالعبيد بشروط العمل وقسوته الشديدة.

فجر الساحل

الساعة الرابعة فجراً كانت أمواج المحيط تنش بهدوء على ساحل قرية بروويلا ثم تسحب نفسها لتعود أدراجها على الماء فيما يغسل الزبد الرمال الفاتحة اللون. بدأت شلل الصيادين تسحب فلوكات الصيد باتجاه البحر فيما

أعداد منهم تجمع الشباك المنشورة وتلقفها داخل حواجز الزوارق ليلحقوها فيما يستمر الباقون بدفع الزوارق للماء.

كانت السماء زرقاء قليلاً وأنسام خفيفة تهز سواري الصيادين[1] الذين لا يتميزون كثيراً عن النساء بملابسهم التي هي تنورة مثل الشرشف وفوقها تي شرت تجاري رخيص، كان الفجر قريباً وما عدا الصيادين كان الساحل المترامي شبه فارغ من الناس.

أبحر السانتا جود وزورق آخر من زوارق برووبلا الثلاثمائة يدعى النسر متخطين معاً حائل الأمواج العاتية بعد عشرات الأمتار من خط الشط، وتوجها جنوباً وغرباً نحو المحيط الهندي بسرعة ثلاثة أميال[2] في الساعة، وتسافر زوارق برووبلا عادة في مجموعات غير محددة العدد لتبادل الحماية في حال توقف موتور أحدها عن العمل، وكان السانتا جود والنسر يعتزمان الصيد معاً ثم العودة في غضون ثلاثة أو أربعة أيام.

بعد سبع ساعات كان سويسا وآل فرناندو اصطاد نحو ستين سمكة بالايا تزن الواحدة أربعة إلى خمسة كيلو غرامات، إنها بداية لا بأس بها، كانت كافية لاحتفاظ أفراد الطاقم بشعور يكتنفهم منذ سنة بأن السانتاجود كما يقول فاس زورق محظوظ يعود دائماً بصيد ما.

وظلوا يجرون الشباك حتى الغروب حين توقفوا عن رميها في مياه البحر العميقة..

---

١ -الساري قطعة قماش يلفها الرجل على نصفه الأسفل وفي شبه القارة الهندية تلبس النساء سواري أكبر من الرجال يعقدونها على الجسم كله تقريباً وألوانه زاهية ومبهرجة.

٢ -الميل البحري الدولي يساوي ١٨٥٢ متراً.

وتحول الربان فونسيكا طاهياً أخذ يحضر الرز المسلوق والخضر المنهكة بالكاري على موقد ذي رأس واحد يعمل بالغاز في هذه الأثناء تولى سويسا وآل فرناندو لف الشباك وتقطيع سمك البالايا ووضع الطعوم في صنانير الأسلاك الطويلة ثم بسطها وإذا اقتعد البحارة الخمسة أرض الزورق لاحظ فونسيكا أن: الريح ليست قوية اليوم، لكن التيار يبدو قوياً بعض الشيء.

وفي الليل لم يعد يسمع سوى أصوات الأمواج تلطش بعضها بعضاً، وتصطدم بحافة الزورق المتهادي في قلب المحيط، فيما استلقى الرجال الخمسة المهدودون من الصيد طوال النهار على أرض المركب فافترش ثلاثة منهم أرض المركب فوق حصر القش ونام الربان فونسيكا فوق كومة الشباك فيم افترش جيرارد فاس دكة خشب تحت أوضة الفلوكا.

الفجر في قلب المحيط

قرابة الساعة الثالثة من فجر الخميس، خرج الرجال من مضاجعهم وسحبوا الشباك، ولسوء حظهم لم يجدوا سوى عدد قليل متناثر من الأسماك عالق فيها، قال فونسيكا: ثمة قطيع من الدلافين يتجه جنوباً سنلحق به لأن سمك التونا يتقفى أثر الدلافين عادة.

ارتاح السانتا والنسر تلك الليلة، يفصل بينهما مسافة نحو ٤٥٠ متراً ليوفر واحدهما الحماية للآخر، وأرخيا شباكهما.

لكن صباح الجمعة طلع من غير أن يظهر أي اثر للنور الأحمر الذي ينبعث عادة من مستودع الفحم الحجري في النسر، قال فونسيكا: كان التيار قوياً ليلة أمس سنسحب الشباك ونبحث عنهم، لقد توغلنا أكثر من المعتاد والأفضل أن نكون قرب أصدقائنا، وأقصى ما أمكنه معرفته، ودليله إلمامه بأحوال الطقس وبوصلة وغريزة مدربة.

إنهم تخطوا كثيراً الخمسين أو الستين ميلاً التي تفصلهم عن شواطئ بلادهم، وبدا فونسيكا قلقاً حيال تضاؤل كمية الوقود.

سحب سويسا وروي وانطوني فرناندو الشباك فتساقطت أسماك التونا الفضية والبالايا من ثنياتها، كان صيداً جيداً، ولكن دون المستوى الذي يريدون، قال فاس الذي يريد صيداً أوفر ليدفع تكاليف الإصلاحات في بيته: سنواصل الصيد.

ومع أن أياً منهم لم يعتد البقاء في البحر أكثر من ثلاثة أيام، لم يعترض فونسيكا على طلب المالك وامتثل الآخرون على عادتهم لرأيه، وطمأن سويسا نفسه، وثقنا دائماً بأنطوني فونسيكا وأنا أثق به الآن.

تابع السانتا جود صيده وبحثه عن النسر مدى ثلاث ساعات قال بعدها فونسيكا: إنني متأسف ولكن لا نستطيع مواصلة البحث، علينا أن نعود في اتجاه الشاطئ.

وظل ركاب السانتا جود يبحرون طوال فترة بعد الظهر في اتجاه ما اعتقدوا أنه اليابسة، وتحول لغو الصيادين قلقاً صامتاً، لم يكن في الأفق أي زورق أو طائر أو أي مظهر للحياة...

تفحص فونسيكا خزان الوقود والرجال يراقبونه من غير أن ينبسوا بشفة، ولاحظ بتجهم أنه لم يبق سوى ٢٥ ليتراً تقريباً، وأوقف المحرك.

أخذ أفراد الطاقم يتبادلون النظرات القلقة بحدة وهم يؤدون عملهم المسائي المعتاد في طرح الشباك ووضع الطعوم في الصنانير وبسط الأسلاك إلى ما هنالك، أما فاس وقد بدا لم يشعر بالخطر المحدق، فانتحى جانباً وانهمك في تناول عشائه بنهم.

بدأت الأمواج العاتية تلطم السانتا جود وانجرف المركب على نحو متسارع مبتعداً أكثر فأكثر عن اليابسة، قال روي فرناندو: البحر هائج سأشغل المحرك من جديد لمقاومة التيار، وإلا جرفنا على حيث لن نتمكن من العودة أبداً، ووافقه فاس الرأي وقد أصبح أقل ابتهاجاً وراح الزورق الصغير يواجه ما تحول أخيراً أقوى تيار عرفه الرجال الخمسة وطفقوا يجلسون ويقفون على متنه والقلق ينتابهم وفونسيكا يوجه الدفة. ووالت الريح عصفها والتيار اندفاعه، والزورق يصارع، وفي ساعة متقدمة في الليل خيم الهدوء فجأة – لقد توقف المحرك، صرخ فونسيكا: إنها النهاية نفذ الوقود. هدرت الأمواج كالجبال وهي تواجه العاصفة وصار منظرها وهي تتقدم نحو الفلوكا بلونها المعتم وقوتها الرافعة الهائلة يجعل قلوب الصيادين وكأنها تهوي نحو أرض المركب فمواجهة البحر في الليل أكثر جبروتاً بكثير من النهار، وكانت الأمواج حينما تتباعد تظهر في المسافة بينها حفرة كبيرة يخيل منها لصيادي السانتا جود أنها سوف تبتلعهم، ثم لا يلبث الموج أن يعود من جديد ليرفعهم إلى أعلى مستوى بالبحر وللحظات وهم أعلى الموجة الجبارة كانوا يثبتون أنظارهم باتجاه الأفق عساهم يلمحون أي أثر لضوء باخرة عابرة ومرة ثبت أنطوني فونسيكا نظره على الأفق وسحب نظره على طوله حتى يلحظ بصيص ضوء لكن العتمة كانت تخيم على المحيط ما عدا بعض الليالي المقمرة التي كانت تسمح لهم برؤية الأفق بشكل واضح والأمواج قبل أن تضربهم.

الفجر

فجر يوم السبت هرع الرجال اليائسون إلى المستودع في مؤخر الزورق حيث المصباح الليلي، التقطوا خرقاً وغمسوها في وقود المصباح ثم عصروها داخل

زجاجة وسكب فونسيكا السائل الثمين في خزان الموتور وهو مدرك أن هذه محاولة عبثية.

بالطبع شغلت هذه الكمية الضئيلة المحرك مجدداً ولكن لدقائق معدودة، قال فونسيكا لرفاقه: لقد توقف الموتور، نفذ الوقود كان الله في عوننا.

وقف فاس على متن الزورق رافعاً ذراعيه، متضرعاً للإله بصوت عال، وحاول فونسيكا طمأنته: لا تخف.. لا بد أن نصادف زورقاً آخر أو سفينة.

أما سائر أفراد الطاقم الخائفين فصبوا جام غضبهم على صاحب الفلوكا بسيل من الاتهامات قال أحدهم إنها غلطتك، كان عليك أن تجهز الزورق بكمية كافية من الوقود، ولاحظ آخر: أنت دائماً تبخل بالوقود انظر إلى حالتنا الآن- ليس لدينا حتى شراع هذا نتيجة بخلك، وبالكاد سمعهم فاس إذ كان غارقاً في نواح صاخب.

فجأة كفَّ الجميع عن الفوضى، وقد أحسوا بالخجل، وبدأوا يتضرعون إلى الله.

أخيراً بادر الربان قائلاً: حسناً دعنا نأخذ هذه الأغطية البلاستيكية ونصنع شراعاً، سنحاول إبقاء الزورق في اتجاه اليابسة، وخيطوا شراعاً غير متقن ورفعوه على الصاري، حيث كان يخفق محدثاً ضجيجاً، وبدا أن لا جدوى منه إذ أخذ يتنسّل ويتمزق مع كل هبة ريح ومع هذا قال فونسيكا: أننا نحاول أن نفعل شيئاً على الأقل.

سبعة أيام في المحيط

يوم الثلاثاء كان المحيط هادئاً وأمواج المحيط الزرقاء الصافية يطارد بعضها بعضاً حتى اللانهاية عند خط الأفق.

وقف روي فرناندو يراقب الأفق عند الصباح فيما هبت نسائم بحرية منعشة حملت رائحة جديدة للمحيط غير التي ألفوها، وكان الهدوء غريباً لدرجة أن موجة انفجرت في الهواء وتطاير رذاذها وزبدها عندما عاكست أمواجاً أخرى على بعد مئات الأمتار فجفل منها روي ووقف يراقب انفجارها وتطايرها في الهواء عن بعد تحت الشمس حيث بدت كنافورة جميلة تتفجر وسط المحيط المترامي إلى اللانهاية.

رفع فرناندو نظره إلى السماء عساه يشاهد أي طائر وأجال نظره بين الأفق وغيوم كانت مشلوحة هنا وهناك فلم يكن هناك أي إشارة للحياة.

تابع الرجال عملهم المعتاد وعند الظهر وأثناء تحضير وجبة الغداء التقليدية اكتشفوا أن كمية الطعام قد قلت ونفذت الخضر الطازجة وذاب الثلج في عنبر السمك فجرجروا الصناديق المترعة بالأسماك النافقة والمهترئة وألقوها في البحر وبقي لديهم في الزورق العدس والبسكويت ما يكفيهم أياماً أخرى، وحض فونسيكا كل فرد على احتساء نصف كوب فقط من الماء، علماً أنه كان بدأ خفض حصص الطعام منذ السبت.

فجأة ظهرت في الأفق سفينة وصرخ فاس وهو مفعم بالحماسة لقد نجونا.. لاحظ فونسيكا أن الشمس ورائها تماماً، وهذا يعني أنها آتية من اليابسة، وقد لا تكون اليابسة بعيدة كثيراً، وتبين للآخرين أنها باخرة شحن، وستكون مزودة بكمية كبيرة من الوقود.

بدأ الرجال يلوحون بعصبية مستخدمين ملابس عقد بعضها ببعض، وإذ صارت السفينة الصغيرة على مقربة منهم توقفت، فرفع السيلانيون أوعية الوقود البلاستيكية الفارغة للدلالة على أن الوقود نفذ منهم، وأدار فونسيكا المحرك بما كان تبقى فيه من الوقود الذي سحب من الجلوب واتجه بالفلوكا إلى أن صار بجانب السفينة وألقى إليهم حبل لربط زورقهم.

لم يكن أحد على السفينة المجهولة الهوية والاسم يتكلم السيرلانكية فحاول فاس أن يشرح لهم الأمر بالإنكليزية، قال لا وقود لدينا.. أين نحن؟! وكيف نصل على كولومبو؟ وبعدما علم من في السفينة أن السانتاجود تقطع أربعة أميال في الساعة، أجاب أحدهم عبر مكبر للصوت: أنتم على مسافة ٢٤ ساعة من كولومبو، فابتهج الصيادون إذ كانوا على مسافة يوم واحد من وطنهم.

دليت إليهم بحبل آخر خريطة مرسومة باليد تظهر ساحل سيرلانكا من كولومبو في الغرب إلى غال في الجنوب ورأس دوندرا في أقصى الجنوب.

كانت كولومبو تقع من حيث هم على خط مستقيم ذي ٣٤٠ درجة، رفع السانتاجود إلى متن السفينة ستة أوعية بلاستيكية فارغة أعيد ثلاثة منها ملأى فقط، اثنان وقوداً والثالث ماء للشرب، فضلاً عن تسع رزم من لفات الأرز، برر الصوت المكبر الأمر بجزم: إن ركاب السفينة على عجلة، وأبحرت هذه قبل أن تتاح للصيادين فرصة للاحتجاج تساءل فونسيكا بغضب وهو يشغل المحرك: ٤٥ ليتراً؟ لأربعة وعشرين ساعة؟ وأبحروا في الاتجاه الذي حدد لهم بسرعة قصوى مدة سبع أو ثماني ساعات أخيراً نفذ الوقود وانجرفوا مع التيار مجدداً.

مرت أيام بأكملها والتيارات البحرية تسحب الفلوكا عميقاً في قلب المحيط الهندي، وهذه التيارات كانت من النوع القوي حيث كانت تستعمل لدفع البواخر الشراعية قبل عصر الثورة الصناعية، وقد كانت كافية بالعصور الوسطى لمساعدة بواخر تزن مع حمولتها ١٥٠٠ طن على الانتقال من سواحل عمان وإيران على أراضي اندونيسيا وبحر الصين وبالعكس.

وفيما تسحب الفلوكا التي لا يزيد وزنها على بضعة أطنان بخفة بين خطوط التيارات القوية كانت الشمس المحرقة بالأيام المشمسة تلسعها بكرابيج من أشعتها الحارقة طوال النهار . أما في الليل فكانت الرياح الباردة وحتى

النسمات كافية لتجميد أطرافهم من البرد وهم مختبئين بالقمرة العلوية للفلوكا ومكدسين بجانب بعضهم البعض وقد جافاهم النوم أحياناً من شدة الجوع.

وفي يوم من الأيام وحينما اقتربت شمس العصر نحو الزوال وبينما هم في حال من الإحباط والخيبة شاهدوا زورق صيد محملاً بالسمك يمر بقربهم من غير أن يلتفت من فيه إليهم، وحلقت طائرتان فوقهم مما أحيا فيهم الأمل ثانية، لكن الخلاص لم يأت فقال فونسيكا: لا تخافوا سيجدنا أحد ما لسنا مجرمين ولم نخطئ لنعاقب.

متاهة الأمواج

انقضت الأيام التالية حارة معرقة وقذرة، وأسوأ من ذلك كله مضجرة على نحو فاق الوصف، أعد الرجال من أكياس الثلج المصنوعة من القنب الصناعي وقاءاً استظلوا به من الشمس وكانوا لدى اشتداد الحر ينزلقون من الزورق الصغير في مياه المحيط الدافئة وقد اضطروا إلى صيد السمك بالصنانير لأن وهنهم كان يمنعهم من طرح الشباك. وعندما تمطر كانوا يجمعون مياه الشرب.

أخيراً تمزق الشراع الذي صنعوه، فخاطوا ملابسهم بعضها إلى بعض شراعاً آخر. وانجرفوا مع الريح والتيار داخل الأفق، ولبثوا يتحدثون عن ديارهم وعائلاتهم بلا انقطاع.

طوال هذه المدة أبقاهم القبطان فونسيكا على نظام التقنين الصارم قليل من الرز مع سمكة طازجة وقطعة بسكويت - إلى أن حل الإثنين السابع من ديسمبر (كانون الأول). يوم نفذت المؤن.. خاطب فونسيكا الرجال المهدودين المتعبين: لم يبق لدينا سوى السمك الذي نصطاده ، لكننا لا نزال نستطيع على

الأقل طهوه، وكان يستعين لذلك بمياه البحر ويضيف بعض الكاري المتبقي والفلفل ليصبح سائغاً.

ولما كادت مياه الشرب تنفذ حرصوا على أن يشربوها باقتصاد في أكواب نصف ملأى لكن فاس اتهم بشربها سراً من إبريق الشاي، وادعى الآخرون وفاس ينكر بشدة أنه كان ينهض ليلاً ليشرب الماء وحده.

خفت الانتقادات التي وجهت إلى فاس لأنه مالك الزورق، ولكن في اليوم التالي عندما لم يبق عليه على متن الزورق سوى ثمانية ليترات فقط لم يتورع فاس عن عب[1] الماء علناً فنبهه فونسيكا بحده: استخدم كوباً صغيراً كما نفعل نحن! إذا تماديت على هذا النحو سينفذ الماء قريباً جداً.

صرخ فاس: هذا ليس شأنك!

فأجابه فونسيكا صارخاً بدوره: بل إنه شأننا جميعاً!

أمسك فاس بالقبطان بياقة قميصه فلكمه القبطان على وجهه، إذ ذاك هب روي وأنطوني فرناندو للفصل بينهما.

احتج فاس: إنه زورقي ويحق لي أن أفعل ما يحلو لي... وحمل برميل ماء الشرب بغضب ورماه في البحر ثم اتبعه بكيس يحوي ما لديهم من فتات السمك المجفف، وقد أمكن انتشال برميل الماء لكن مياه البحر تسربت إلى داخله. وعادوا إلى رشدهم فجأة واجمين.

تكلم أينل سويسا والشابان فرناندو: ليس هذا وقتاً للعراك. صحيح أنك المالك يا فاس لكن الوقت يوجب عليك أن تتبع أوامر القبطان، علينا أن نكابر لنجد اليابسة ونصل إلى ديارنا وعائلاتنا. واتفق الجميع على التزام التقنين، ثم

---

١ عبَّ: أي شرب الماء.

صلوا معاً كـي تمطـر، انهمـر المطـر طوال اليـوم التـالي فجمعـوا كفـافهم لأيـام عدة.

أجل كـان المطـر والعـراك نقيـاً وكـذلك الأجـواء علـى مـتن الـزورق فـأدرك الجميع أن خلاصهم يعتمد جزئياً على رفع بعضهم معنويات البعض. ومرة تحدث إليهم أنطوني فرناندو إذ قال: لا يمكننا أن نستسلم للخوف إذا ما أصيب أحدنا بالإحباط، فذلك يؤثر علينا جميعاً ونستسلم.

مـذ ذاك كـان كلمـا بكـى أحـدهم نادبـاً حظـه لأنـه لـن يـرى عائلتـه ثانيـة، ينـبري لـه الجميـع مؤاسـين، بـالطبع سـترى زوجتـك وأولادك. سـننجو وسـيجدنا أحدهم.

لكـن الأيـام كـرت ونفـذت ميـاه الـشرب وظـل الرجـال ثلاثـة أو أربعـة أيـام محرومين نقطة ماء وقد صاروا كالأموات من شدة التعب وهم مرميـون في بطـن المركـب، وإذا اضـطر الواحـد منهم لعمـل شـيء فإنـه يزحـف علـى يديـه ورجليـه ليـصل إليـه، وبـدا علـيهم الانهيـار التـام، وهـم كـانوا أقـروا رأي القبطـان - إذا شربنا مياه البحر أدمناها فنصاب بالإسهال الحاد.. ثم نموت..

أجـل.. ولكـن مـا العمـل والـشمس الـتي لا تـرحم جففـت حلـوقهم والحنـاجر حتى باتت أصواتهم مجرد همس أجش، كـان أنيل سويسا أول من خـرق الاتفـاق فتناول بهدوء قنينـة فصاح بـه الآخـرون: حـذراً يـا أنيـل ثم ملأهـا وعـبَّ محتواهـا بشره...

أحس بالغثيان ولكـن بالاكتفـاء الآنـي أيضاً، ثم أخـذت أعـراض الإسـهال تظهر عليه بعد وقت قصير، في هذه الأثنـاء بـدأ روي فرنانـدو وفـاس شـرب الميـاه المالحة كذلك فعل فونسيكـا الذي قال في نفسه: إنهـا فكـرة سيئة جداً يجـب أن امتنع عنها لكنني عاجز.

أعد القبطان بنفسه حساء السمك لكنهم تناولوا منه القليل ثم لم يلبث أن دفعهم الظمأ الملحاح إلى القناني أربع مرات أو خمساً ذلك اليوم، وعندما اشتدت حرارة الشمس في الأيام الأربعة التالية أخذوا يعبُّون من المياه المالحة بغير حساب، فصاروا أوهن من أن يعدوا يخنة السمك أو يتناولوا وجبتهم هذه، فكانوا يكتفون بقضم السمك المجفف الذي يعده فونسيكا.

في الثامن عشر من ديسمبر (كانون الأول) كان الرجال الخمسة قد قضوا ٢٤ يوماً في البحر وعائلاتهم لا تعرف عنهم شيئاً. تمدد الرجال الخمسة واهنين على متن الفلوكا الضيقة واستغرقوا في نوم متعب حفل بأحلام مضحكة، إذ ألفى روي فراندو نفسه في اوتيل أمبالا في بروويلا وبعد ما أشبع نهمه من طبق من عصائب الرز بالكاري أثنى على صاحب الأوتيل: طعامكم هذا شهي.

ولم يعد أنطوني فرناندو شبحاً مرتعشاً على متن الزورق يصعب تمييزه برأس ولحية يغطيهما شعر قذر متلبد، كلا يا سيدي! إنه الآن يرتدي أفخر الثياب؟ ويقدم بكل اعتزاز الرز والكاري إلى عائلته وأصدقائه في وليمة الذكرى الأولى لميلاد ابنه.

أما الآخرون فهم في منازلهم أو مع أصدقائهم في أوتيل النجم الجديد في الشارع الرئيسي لمدينة بروويلا حيث الجرار الزجاجية في النوافذ مليئة بالحلوى والسكاكر – إنهم في قهوة سريباتي يشترون الكعك المحلي الطري يأكلونه مع الموز الطازج وجرعات كبيرة لذيذة من الشاي- جيرار فاس نقلته مخيلته إلى قهوة حيث قدم المشروبات الباردة إلى أصدقائه.

وإذ أفاقوا وقد قاربوا الجنون من جراء أحلامهم الجميلة أدرك كل واحد منهم أن لا بد مشرف على الموت لكن التصميم على عدم الاستسلام للخوف لم يفارقهم فصاروا يضرعون من أجل أن تمطر. وانهمر المطر صباح اليوم التالي على الأجساد الخمسة المنطرحة على متن الزورق.

انتعشوا قليلاً فدبوا والألم يعتصرهم وسدوا مصارف المياه ثم غرفوا ما تجمع على أرض الفلوكا وخزنوا منها في عنبر السمك الذي بات خالياً نظيفاً كمية كفتهم أربعة أو خمسة أيام توقف في أثنائها الإسهال وأمطرت ثانية وأخذوا يستعيدون عافيتهم ببطء.

مساء ٢٣ ديسمبر أي قبل عيد الميلاد بيومين امتحنت الرياح العاتية الصيادين النحيلين فراح المطر يجلدهم والريح تولول والأمواج تعلوا الفلوكا ذات القمرة البيضاء وهي تبدو على سطح المحيط كبقعة بيضاء وحيدة وسط محيط أزرق جبار، وراحت الأمواج تعلوا أضعاف ارتفاع الفلوكا. فتجتاح السانتا جود لتعود فتفيض منه بينما الرجال الخمسة جاثمون متلاصقين تحت أوضة الموتور أو ممددين في الأمكنة الضيقة وباتوا في مهب الريح يرتطمون بالموتور تارة وبجانبي الفلوكا طوراً أو ببعضهم البعض فأصيبوا برضوض وكدمات سببت لهم آلاماً مبرحة وما إن كانت الريح تهدأ لحظة حتى يغامر فونسيكا أو أنطوني فرناندو بالخروج لسحب الصنانير التي يكون علق بها سمك فيأكلونه نيئاً، ذلك أن أحداً منهم لم يقو على أكثر من القضم. وسكنت أخيراً أسوأ عاصفة واجهوها في حياتهم فخرجوا من أماكنهم متألمين واهنين جائعين ولكن أحياء من جديد.

صبيحة عيد الميلاد لم يكن لديهم ما يسدجوعهم بكوا جميعاً وهم يفكرون في عائلاتهم وبما كانوا سيفعلونه لو كانوا في منازلهم وتذكر فونسيكا: كانت زوجتي فيلو منا تعتزم خياطة ملابس جديدة لأطفالنا الثلاثة وشراء ثوب جديد لها وسروال جديد لي.

وصلى فاس بصوت مرتفع: لو كنت في بيتي مع أسرتي لكنت قدمت أوراق التنبول إلى والدتي ووالدي وبجلتهما ولاشتريت الدجاج من السوق وتناولنا وجبة عائلية في جو من الحبور.

الحادية عشرة والنصف ظهراً وكان عضهم الجوع لمح أنيل سويسا وأنطوني فرناندو سلحفاة فبدءا ينقران بلطف على حافة الفلوكا لاجتذابها وهي تسبح بمحاذاتهما، قال انطونيو لأنيل التقطها بهذه الصنارة الكبيرة، أجابه هذا لحظة حسناً التقطتها إنها ثقيلة طولا نحو ستين سنتيمتراً ساعدني من الطرف الآخر، وتمكنا من سحب السلحفاة إلى متن القارب وكانت جرة الغاز قد نفذت بعد تسعة أيام من مغادرتهم برووبلا فصنعوا موقداً ذا محرق واحد من وعاء من الألمنيوم قلبوه رأساً على عقب وأحدثوا فيه ثقباً تمر عبره النار التي كانوا يغذونها بقطع من خشب الصناديق المكسرة ووضع فونسيكا وعاءاً أخر مملوءاً ماء على الموقد وراح يسلق قطع لحم السلحفاة.

حل يوم رأس السنة فلم يشعر أحد بالبهجة فهذا يوم الولائم والعائلة والأصدقاء. لكن أنطوني فرناندو بدا مستاءاً بنوع خاص – انتحى بعيداً عن رفاقه وبكى – غير أنه ما لبث أن شرح لهم الأمر: إنها ذكرى مولدي، وليس لدينا طعام ولم يأت أحد إلى نجدتنا، فجأة رأى الرجال البائسون سمكة وانا وهي من النوع الذي يبلغ طوله ٦٠ سنتيمتراً خضراء اللون تشوبها بقع صفر. فالتقطوها وتحولت هذه السمكة بعد سلقها مأدبة عشاء في ذكرى مولد أنطوني فرناندو. وتبادلوا في أحاديث مقتضبة ما اعتادوا أن يفعلوه وعائلاتهم في يوم رأس السنة ثم أدوا الصلاة سائلين الله أن ينقذهم لأعياد مقبلة، وبعيداً في موطنهم أضاءت فيلومنا فونسيكا وبريانتي سويسا والزوجات الأخريات المصابيح في منازلهن وصلين.

هزت المصيبة والد أنطوني فرناندو وهو في الخامسة الستين فأمسى طريح الفراش وفارق الحياة حزناً في فبراير، أما والد فاس فرفض حلق ذقنه قبل أن يعود ابنه.

وأقام الكهنة صلوات خاصة من أجل الرجال المفقودين، وتركت الزوجات خمس شجيرات جوز هند وخمسة مصغرات قوارب وخمس صور صغيرة تمثل الصيادين المفقودين في كنيسة كوداغاما وأضأن ٣٥ شمعة في كنيسة راغاما، وفي المعبد البوذي في كالوتارا نذزن تقديم ما يعادل زنة الرجال الخمسة زيت جوز الهند، وهذا مكلف جداً بالنسبة إلى صيادي الأسماك وفي مسجد إسلامي نذرن ما يعادل وزن الرجال ملحاً.

وأخذت بريانتي النسوة الأخريات إلى كاندة بانسيلا حيث الرهبان ينشدون طوال سبع ليال متواصلة ترتيلة شعرية خاصة تدعى (ست كاي) ذكروا فيها أسماء الرجال المفقودين وأنهم لم يعودوا من البحر، وبطلب من الرهبان أحضرت بريانتي إلى المعبد سبع زهرات مختلفة وخمسة أصناف من الحلوى وجوزة هند كبيرة وقنينة من جوز الهند وعدد من عيدان البخور وأرزاً وتنبولاً.

وكانت تضيء كل يوم مصابيح زيت فيما الكاهن يرتل. صبيحة الخامس عشر من فبراير عام ١٩٨٨ خرج الرجال من الفسحة الضيقة تحت متن الزورق ووقف روي فرناندو وفونسيكا وسط الزرقة اللامحدودة البحر تحتهما والسماء فوقهما يفرك واحدهما ظهر الآخر. مستخدمين مياه البحر وقطعاً خشنة من الشباك لإزالة الملح والسخام المجبول بالعرق.

وفعل أنطوني فرناندو وأنيل سويسا الأمر نفسه قبل أن يصطادا خمس سمكات صغيرات ويقطعانها لتكون قوامهم ليوم آخر.

في التاسعة صباحاً تطلع روي فرناندو نحو الأفق وهتف فجأة انظروا طائرتان وهما كانتا الإشارة الأولى إلى وجود بشرى يرونه منذ شهرين إنهما قادمتان في كاتو ناياك (مطار سري لانكا الدولي وقاعدة جوية): إذاً جرفنا التيار إلى قبالة كولومبو.

بعد ساعتين لمح روي مركباً في الماء، تجمع الرجال حول روي بأجسادهم الهزيلة وشعورهم الطويلة وجلودهم المتقرحة وظهورهم المقوسة وأمعنوا النظر إلى المكان الذي أشار إليه ولاحظ احدهم متهللاً: اعتقد أنه مركب صيد من النوع الذي يصنعونه في نغومبو في حوض كوماري، بكى الرجال فرحاً بصوت خافت.

أمرهم فونسيكا: لنصعد إلى سطح القمرة حتى يتمكنوا من رؤيتنا. كان روي أول من ارتقى السطح، ناوله فونسيكا السروايل المعقودة بعضها ببعض وقطعة من القماش الأحمر وصعد كل منهم بدوره إلى سطح الأوضة مستعيناً بكاحلين وركبة تورمت وعصت على الحركة، وانتصب يلوح ويلوح ويلوح، وتناوبوا مدى ساعة ونصف ساعة يلوحون للحرية بأيد تورمت مفاصلها.

قال روي أخيراً بصوت أجش: لقد رأونا إنهم آتون.. كان ذلك مركب صيد يتقدم نحو السانتا جود ودنى إلى أن بات على مدى السمع منهم لكن صيحات الصيادين على المركب الغريب لم تكن باللغة السريلانكية..!

وتبين لهم وقد صار المركب في محاذاتهم أنه ليس من نغومبو وابلغ الغرباء إلى السيلانيين بالإشارة أن عليهم الإنتظار فعجبوا للأمر وبعد أكثر من ساعة وصل مركب صيد آخر قال فونسيكا لفاس: يشيرون إليك وإلي كي نصعد إلى المركب الأول هيا بنا.

مد صيادو المركب الأول أيديهم لفاس وفونسيكا ورفعوهما إلى المتن في حين رفع الرجال الثلاثة الآخرون إلى المركب الثاني، ولم يتمكن الخمسة من فهم لغة الرجال الغرباء، ثم قدم إليهم أحد الصيادين علبة سجائره فقرأ فاس عليها عبارة (صنعت في اندونيسيا) الأمر الذي صعق له فاس فسقطت السجائر وعلبة الكبريت من يده، وأدرك الرجال على الفور أن مركبهم الصغير لم يكن على مقربة من سريلانكا، بل قبالة با دانغ في سومطرة باندونيسيا لقد جرف التيار السانتا غود مسافة ١٨٦٠ ميلاً خلال ٨٣ يوماً.

كـان الـصيادون يروحـون ويجيئـون وهـم يقـدمون القهـوة الحلـوة والقويـة إلى الرجـال فـإذا بهـا شـهية لذيـذة لكـن فنجانـاً واحـداً لكـل مـنهم مـلأ معـدهم المنقبضة فلم يستطيعوا احتساء المزيد، وفهموا مـن منقـذيهم أنهـم لا يـستطيعون قَطْر (السانتاجود) إلى الشاطئ فبكى فاس وقبل مقدم الزورق وبكل مظاهر الأسى دفعة لينجرف مع التيار من جديد وقبع حزيناً يراقبه مدى ساعة ونصف حتى غاب عن ناظريه وقال مخاطباً إياه: اشتريتك بمال جنيته في بلد أجنبي، وها أنا أتخلى عنك لبلد أجنبي.

ظل مركبا الصيد ثمانية أيام أخرى يصطادان في البحر إلى أن ملآ عنابره ثم أبحرا إلى مرفأ بادانغ ولدى وصولهم إلى الشاطئ بعد ٩١ يوماً، ركع الرجال السيلانيون وقبلوا الأرض.

احتجزت سلطات المرفأ الرجال في سجن محلي سبعة أيام، ثم انتقلوا بالباص إلى العاصمة الأندونسية جاكرتا ليعودوا في طائرة إلى بلادهم.

في الأول من مارس (آذار) في بندارواته، كانت عائلة أنطوني فرناندو وعدد من أصدقائه مجتمعين حول الغداء التقليدي في ذكرى مرور أسبوع على وفاة والده، فإذا بلو كاس فاس والد جيرار يطل من الباب المفتوح مبتسماً حاملاً شيئاً ما في يده وبادر زوجة أنطوني أسونتا: تسلمنا هذه الرسالة إنها من جيرار جميعهم سالمون وفي صحة جيدة في اندونيسيا.

وفي الرابع من مارس هبط الرجال الخمسة في مطار كاتو نايان حيث استقبلهم ثلاثمائة صديق قروي مبتهجين وتقدمت عائلات الرجال الجمع المحتشد، وعندما ترجل الخمسة بحياء ارتفعت الهتافات.

عاود أفراد الطاقم عملهم في البحر مع أصحاب زوارق آخرين ، أما فاس فيحاول حالياً شراء زورق جديد ، لقد أنقذهم ثباتهم وصلابتهم وإيمانهم لكن فيلومنا فونسيكا تقول واثقة بوجود سبب أبسط: القدر هو الذي أنقذهم.

١٥ ت٢- ٢٠٠٥

وقد ولى فصل الخريف

الزايبلين

صباح الأحد ١٦ آب ١٩٤٢ كان ريكاردو كابوفيلا يتمشى على الشاطئ قرب سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا، كان الطقس جميلاً فمر على صاحب كشك لبيع الجرائد فاشترى جريدة محلية وقنينة بيرة، وصار يتمشى على الشط المهجور بذلك الوقت الباكر، فيما لم تتجاوز الساعة التاسعة صباحاً وهو يتمتع بمنظر المحيط الخلاب فيم الأمواج الخفيفة تتلاحق ببطء مشكلة أقواساً واسعة من الزبد الأبيض، ما عدا ذلك عم الهدوء المكان.

انتقى ريكاردو تلة رمال تركها شبان صغار كانوا يلعبون على الشط وقعد عليها ثم فتح القنينة بفتاحة كان يحتفظ بها دائماً بجيبه وهي متصلة بموس صغير، وبدأ يقرأ الجريدة كانت أخبار الحرب عادية إضافة إلى أخبار الإجتماعات الروتينية لدوائر سان فرانسيسكو، أزمات بالتموين، ارتفاع أسعار بعض الحاجيات، فبدأ يقرأ أخبار فتيات الإستعراض، بعد قليل أحس بشيء غريب فالتفت نحو البحر ليشاهد أغرب منظر بحياته، لقد كان على بعد ٥٠ متر منه زايبلين طائر بالهواء ويتحرك بخفة وهو مرتفع فوق سطح البحر بحوالي العشرة أمتار، يتدلى من مقدمته حبل يصل إلى مياه المحيط وينسحب فوقها مخلفاً خطاً من الزبد الناعم.

تجمد ريكاردو واستمر الزايبلين بمسيرته البطيئة، أصاخ السمع فلم يكن هناك أي صوت في الموتورات، شدد نظره على نوافذ أوضة القيادة أسفل الزايبلين فلم يشاهد أي ملاح، فصار يسأل نفسه أي زايبلين هذا؟ أمريكي أم ياباني؟ حاول تبين الذيل ليرى ما إذا كان مرسوماً عليه أحد البيرقين فقام على

رجليه واشرأب برأسه فلمح طرف الخطوط الحمراء للبيرق الأمريكي فأحس براحة شديدة، وقد خشي أن يحط الزايبلين وينزل منه عسكر ياباني فيقتلونه.

وصل الزايبلين إلى الشاطئ ودار قليلاً في الهواء، ورأى ريكاردو ما كتب عليه، البحرية الأمريكية ل- ٨ – عاد يسأل نفسه لم يهبط هنا! إذ كان من سكان المنطقة ويعرف ألا قاعدة عسكرية أو مطار أو حتى نقطة تفتيش، كان شكله غريباً قليلاً ولم يبرز منه أي أسلحة فقد درجت الزايبلينات المضادة للغواصات بالحرب العالمية الثانية على حمل قنابل أعماق كبيرة على جانبي أسفلها وإلقائها على الغواصات.

استمرت الكتلة المنفوخة التي تشبه لعب الأطفال بسيرها الوئيد ولم يلبث ريكاردو أن لاحظ جعدة في وسط الزايبلين[١] نتيجة انخفاض الضغط وكأن عملاقاً داسه.

تدحرج دولاب الهبوط الوحيد على الرمال فارتفع الزايبلين برفق وتهادى وهو يحلق فوق رابيه عبر الطريق الساحلي. ولم يلبث أن لامس الأرض، وأفلتت منه قذيفة عمق تدحرجت على الرصيف. وبعد تحرره من هذا الثقل الهائل قفز بسرعة إلى ارتفاع يقارب الثلاثين متراً، وانسل بعيداً باتجاه منطقة شبه صحراوية فراقبه ريكاردو وهو يشرد يدفعه الهواء، وصار يغير اتجاهه كل قليل، وفجأة لاحظ ريكاردو أن أبواب أوضة الملاحين كانت مفتوحة يتلاعب بها النسيم، فأدرك أن هناك أمراً غير طبيعي، ثم تنبه إلى أنه قد بدأ يتجه نحو منطقته السكنية، وكان الناس يعرضون وقتها أن الزايبلين إذا ما وقع على الأرض وتمزق جزء منه وخرج الهليوم فإنه قد ينفجر ويحترق فحوادث

١- كان الزايبلين يملأ بداخله بأكياس منفوخة بغاز الهليوم الطيار، حيث توضع ضمن الهيكل المعدني الذي يحمل الغلاف الخارجي وتشد إليه للجهة الخارجية بشكل خاص. فإذا نفس أحدها بدا طرف الزايبلين محدباً للداخل وطرياً مما يهدد بالإخلال بتوازنه خصوصاً عند هبوب الرياح.

الزايبلينات كانت معروفة بالثلاثينيات قبل الحرب، وبعدها مع الحرب ببداية الأربعينيات، عندئذٍ هرع ريكاردو إلى بائع الجرائد حيث كان عنده تليفون فاتصل بالبوليس وأخبرهم بما شاهده.

لم يصدق العريف بالكركون الواقع بطرف المدينة ما سمعه بل اعتقد أن من يكلمه هو رجل حشري ومخبول خصوصاً عندما أخبره أن الزايبلين يطير بلا طيارين وأن قمرة القيادة مفتوحة الباب وهناك.. حبل متدلي ينسحب فوق البيوت فاعتقد أن من يكلمه رجل حشاش خلط بين بقرة هاربة وزايبلين! وعندما لم يفهم أغلق ريكاردو السماعة بوجهه، فالتفت العريف ضاحكاً لرفاقه وقال لهم: هل تصدقون هناك رجل حشاش اتصل بي للتو وقال لي إن زايبلين قد فك رباطه وهرب من الجيش وهو هاجم على المدينة ففقعوا بالضحك...

كانت مدام هوراشيا إبلتون في مطبخها في ضاحية دالي عندما سمعت ما خيل إليها أنه سلاسل ثقيلة تسحب فوق السقف. ثم أظلم المطبخ وصارت تسمع صوت صفير غاز وهو ينفّس، فتقدم الزايبلين ببطء ليملأ فسحة السماء التي تظهر من النافذة. وبينما هي تراقب هبوطه بالشارع العام أمام منزل وليم موريس اصطدم مقدمه بكابل كهربائي وصار يدفعه للأسفل فصار تحت ثقله ثم انقطع مصدراً صوتاً مكتوماً وأرسل شرراً بالهواء، فيم تمزق الزايبلين وتدلى منه كيس غاز فوقع على سيارة موريس.

اتصلت مدام أبلتون وهي مذعورة بالإطفائية وقالت لهم أن بالوناً قد قطع كابل الكهرباء وكيس غاز قد وقع على سيارة موريس وأنها لم تعد ترى السماء، ولما لم يفهم رئيس مركز الإطفاء بالنيابة ما قالت صارت تولول وتزعق به: غارة يابانية.. غارة يابانية أيها الأبله هل فهمت الآن.

انتقلت أجهزة المدينة الدفاعية كلها من حالة الاسترخاء إلى حالة الهستريا بغضون ربع ساعة فقط، فقد فهم رئيس الإطفائيين الرسالة الخاطئة فيم لم

يدرك الرسالة الصحيحة السابقة لها، فعجت ضاحية دالي بسرية من الجيش واثنتان من المارينز، وفرق التحقيق من الـ CIA والـ FBI والبوليس المحلي، وجاءت فرق الإطفائية كلها. وفيما تجمع كل هؤلاء بالشارع الذي وقع به الزايبلين والشوارع المحيطة به، ترك الناس أشغالهم وأعمالهم وتجمعوا ليروا زايبلين هادئ مسالم بدا كحوت طائر من الحكايات الخرافية وقد تعلق طرف قمرة الطيارين بمدخنة بيت وليم موريس فوقف هادئاً ساكناً فيما كان الهواء يحركه أحياناً من جهة ذيله ليديره للشمال أو لليمين قليلاً.

بدأ عناصر الجيش والبحرية مزودين بالبنادق ذات السنكي ضرب حزام حول المنطقة وباشروا إبعاد الناس، ورفع الإطفائيون سلالمهم وأحدثوا ثقوباً بالغشاء الخارجي للزايبلين مروراً حتى أكياس الغاز حتى يتسرب الهليوم كي يمنعوه من الطيران ثانية. وتسلق الإطفائي توماس أوبراين قمرة القيادة فلما وصلها لم يجد أحداً. واستغرب أن يرى سقاطة الباب مفتوحة من الداخل، كما لم يكن قضيب السلامة العرضاني الذي يسد المدخل في مكانه، ولمح كاسكيت ضابط بحري مرمية على تابلو الملاحة.

ولما تقدم ليفحص الأجهزة وجد الراديو مفتوحاً ويقوم بالإرسال، وقد تدلى فوق الباب راديو إرسال موصول بهبرلويات الصوت الخارجية، وكانت مفاتيح إشعال الموتور في وضع التشغيل وخطوط الوقود مفتوحة والوقود متوافراً في الخزان!

بعد قليل وبعد التأكد من ألا خطر من الصعود على متن القمرة دخل عدد من ضبّاط طيران البحرية ليفحصوا القمرة. كانوا ثلاثة وبعد ثلاثة أرباع الساعة بدؤوا يتساءلون: هل توقفت المحركات؟ لكنهم وجدوها سليمة! كانت براشوتات الهبوط وقارب النجاة المطاطي بمكانها. ولم يكن أي شيء مكسوراً أو ساقطاً أو في غير موضعه. لا دم ولا وقود ولا ثقوب رصاص ولا

رائحة بارود في التوميغان الكبير، وخلف احد المقاعد قبعت شنتاية القبطان الثقيلة المقفلة التي تحتوي أوامر سرية.

استنفرت عدة أسراب بحرية صغيرة للبحث عن الطاقم، لكن بعد ستة أيام لم يسفر ذلك عن العثور على أي أثر للطاقم المفقود، وبدا كأن أفراده خطفوا بطريقة غريبة من الزايبلين وهو يحلق، ولكن كيف؟ ومن خطفهم؟ ولأي سبب؟

كان الزايبلين جزءاً من دورية زايبلينات دشنت في آذار ١٩٤٢ كشبكة أمن لساحل كاليفورنيا لتنذر بأي هجوم ياباني وتحدد مواضع الغواصات المعادية وتغرقها، وقد أطلقت تلك الدوريات وسط مخاوف محمومة بين المدنيين والعسكريين من غزو ياباني.

بتلك المنطقة وبأوائل الحرب - كانون الثاني ١٩٤٢ دمرت الفرايغيت[١] – تاهو – غواصة عدوة في وضح النهار قبالة فار الونز خارج جسر البوابة الذهبية الشهير بسان فرانسيسكو. وفي اليوم ذاته قصفت غواصة ناقلة النفط – آغويورد – قبالة ساحل سانتا كروز الشعبي المحبب لدى الناس، وفي ٢٣ شباط طفت غواصة يابانية في قناة سانتاباربرا ودنت من الشاطئ وأطلقت أكثر من ٣٠ قذيفة. وفي الثالثة من صباح ٢٥ شباط اشتعلت المدافع المضادة للطائرات عندما حلقت طائرات مجهولة الهوية فوق لوس أنجلوس.

نتيجة لكل ذلك شغلت دورية زايبلينات لغرض المراقبة كنظام دفاع وإنذار مبكر. وكانت الطائرات لـ ٨ ذات المحركين تنتمي إلى السرب الثاني والثلاثين. وقد جاب دائرة قطرها ٨٠ كيلومتراً.

بلغ طول الزايبلين لـ -٨ (٤٦) متراً وعرضه بأعرض مكان فيه ١٤ متراً

١- زورق حربي متوسط الحجم.

وسعته ٣٤٨٠ متراً مكعباً من غاز الهليوم، فكان طائرة جبارة بحجمها قادرة على البقاء لأيام بالجو، وهذا ما لا تقدر على فعله الطائرات العادية حتى بزماننا، فهو لا يضطر للتزود بالوقود كل بضع ساعات ويستطيع الوقوف بمكانه دون إهدار كميات هائلة من الطاقة[١]، كانت مسلحة بقنبلتين للأعماق وتوميغان ضخم من عيار ٣٠ ميليمتراً.

ارتفع الزايبلين وطار من البوابة الذهبية باتجاه فار الونز، ثم إلى منطقة تدعى ميدان السباق، ثم حاذى الساحل عائداً إلى منطقة الجسر، وحاول الملاحان القيام بهذه الدورة قدر ما تسمح طاقته من الوقود البالغة ٥٧٠ ليتراً.

مرت الأيام والحرب دائرة وفي ١٦ آب قبيل السادسة صباحاً بقليل أدار ملاح أرضي في قاعدة (جزيرة الكنز) موتورات لـ -٨، وفحص مكنات القيادة وأعاد فحصها لمدة ١٥ دقيقة، وبعد برهة وجيزة وصل ميكانيكي الطيران جيمس هيل، وكشف على الموتورات قبل التحليق الحربي.

ثم اعتلى الملازم ديويت كودي القمرة واخذ مكانه بها، وتبعه الملازم تشارلز آدمز، ورغم أن الاثنين في رتبة واحدة فقد أعطي كودي القيادة لأقدميته (حسب ساعات الطيران) وكان هذا هو الخطأ القاتل، إذ لا يجوز بعالم العسكرية اعتماد هذه القاعدة بين الرتب الصغيرة فهي لها عيوبها حتى بالرتب الكبيرة لكنها عيوب يمكن تفاديها بجيش صالح وديموقراطي أو تابع لدولة ديموقراطية أما بالرتب الصغيرة فإن هذا قد يشكل خطراً لجهة وقوع خلاف بين الضباط وقد زاد الطين بلة بذلك الإقلاع المشؤوم أنه لم يكن هناك ضابط ثالث.

١- بذلك الزمن كانت الهيلكوبتر طائرة تجريبية غير ناجحة وهي ستظل كذلك حتى نهاية الحرب العالمية الثانية حيث نجح المهندس العبقري الأميركي سيكورسكي بإنتاج أنواع عملية مدنية وعسكرية منها.

كان كودي ٢٧ سنة أحد أفضل الطيارين بالقيادة، فقد سجل ٨٠٠ ساعة طيران بالزايبلينات، أما آدامز ٣٧ سنة والذي فوض له باليوم السابق فقط القيام بالمهمة بعد قضائه عشرين سنة كمجند فقد حلق في كل أنواع الطائرات والزايبلينات البحرية وسجل قرابة ٢٣٠ ساعة طيران.

كان الوضع مضحكاً فبمجرد أن شاهد الإثنان بعضهما أحسا بنفور غريب كان سببه آدمز فهو عسكري محترف ولما عرف أن رئيسه يصغره بعشر سنوات وان أقدميته هي أقدمية الطيران أو كفاءة، أحسن، كأن أحداً قد لكمه أسفل بطنه ببوكس شديد لقد كان من نوع تقليدي من العساكر يعتبر أن فترة الخدمة هي الأساس أما الكفاءة فهي بنظرة ذاتها (الأقدمية)، دخل آدمز المدرسة الحربية وهو مراهق يبلغ ١٧ عاماً ولم يعرف شيئاً في حياته غير القشلاقات وحياة الانضباط القاسية، كان يبدو لأول وهلة بكر لكنه (وكان يعاني من ضعف نظر) رجلاً هادئاً بارد الطباع، أما كودي فكان على النقيض من ذلك، شاباً لعوباً محباً للمزاح والمرح مندفعاً مارس الطيران كهواية جنونية حيث كان سجله مليئاً بالمخالفات للأوامر، لكن انجازاته الحربية وشجاعته جعلته موضع احترام وسخرية بين رؤسائه بآن واحد.

أعطيت الرحلة لـ -٨ بذلك اليوم اسماً رمزياً هو -١٠١ قطر إلى المدرج الصغير-. وضع كودي كاسكيته[1] على لوحة القيادة وحقيبته خلف مقعده، وأدار أزرار التشغيل فهدر أول موتور، ثم التفت إلى هيل الميكانيكي وأمره بمغادرة المركبة.

فتح هيل الباب وقفز إلى المدرج ثم أغلقه خلفه، وراقب لـ -٨ يدرج مسافة ١٣٥ متراً قبل أن يرتفع ويتجه نحو جسر غولدن غيت.

---

١ كاسكيته: أي خوذته (غطاء الرأس).

بعد ساعة وربع كانت الشمس قد سطعت على المحيط وأنارت المنطقة السطحية به بقوة فبانت انكسارات الأمواج السرمدية، تظهر أي حركة على عمق يقارب الثمانين متراً، نظر كودي للساعة.

كانت تشير لـ ٧,٣٨ فرفع سماعة اللاسلكي وفتح خط الاتصال مع قائده بجزيرة الكنز، فبعث برسالة قصيرة: موقعنا على بعد ستة كيلومترات شرق فالواز انتظر. ثم التفت ناحية اليسار فشاهد بقعة رمادية تتموج تحت المياه وبقربها شاهد بقعة بترول فأمر آدمز: وجه الدفة نحو أقصى اليسار وابدأ بدفع الموتور اليميني بأقصى قوة.

- آدمز: لماذا؟

- كودي: نفذ الأوامر أعتقد أني رأيت غواصة يابانية يتسرب منها البترول لا بد أنها التي أصابتها الفرايغيت البارحة.

- آدمز: لا أرى شيئاً أين هي؟

- كودي: نفذ الأوامر هل أنت أطرش.

استشاط آدمز غضباً وصاح به: أنا لا أعمل عندك ولن أوجه شيئاً قبل أن أرى هذه الغواصة أنت لا تفهم شيئاً بالطيران إن....

- كودي يقاطعه بغضب ودهشة: هل جننت أيها الأبله نفذ ما أقوله لك أيها الحمار ستفلت الغواصة منا.

- آدمز يصيح: إذا انحرفنا بسرعة ستتمزق الأقمشة وسيكون هناك خطر بالحريق إذا ما انفلت الغاز قرب الموتورات.

- كودي: أيها الـ..

- آدامز: وأنت تريدني أن اقلع بها بأقصى سرعة.

- كودي يمسك بياقته ويشده نحو الباب ويلطّش عليه بعنف ويخاطبه بشدة: اسمع أيها الأبله أنت لم تقم بهذه التحليقات من قبل أنت جاهل بالطيران لست سوى بيروقراطي أهبل وستنفذ ما أقوله وإلا سأحيلك إلى محكمة عسكرية و...

دفعه آدامز وحاول ضربه فلكمه كودي على وجهه بشدة فوقع يتلوى على الأرض.

توجه كودي وهو يلهث نحو السماعة وفتح خط الإرسال وبعث برسالة: إني أتقصى بقعة بترول مشبوهة انتظر، ومن الغضب نسي أن يشير إلى الغواصة وكان هذا من القدر.

قام آدامز: وقد استبد به الغضب وصار يضرب كودي بشدة فأصيب الإثنان بهستيريا ففتح كودي بلحظة غضب سقاطة الأمان ثم فتح الباب ودفعه للخارج وقبل أن يسقط أمسك بيقاته[1] فدفعه كودي للخارج فشده آدامز معه واندفع الاثنان خارج الباب ليبلعطا[2] قليلاً بالهواء وهما يصرخان ثم هويا من على ارتفاع مئة وخمسين متراً نحو البحر، واستمرا يهويان حتى اصطدما به بشدة هائلة، واندفعا تحت سطح الماء لأكثر من ثمانية أمتار دفعة واحدة وقد جرحهما هذا الاصطدام عدة جروح بأنحاء مختلفة من جسميهما.

تركا بعضهما تحت الماء وحاولا الطفو وما أن وصلا حتى كانت الصدمة قد ضعضعتهما، فأحس كل منهما بخدر شديد وتعب فيما أصيب آدامز بنزيف داخلي حاد وهو الذي تلقى القسم الأكبر من الصدمة إذ كان تحت كودي تقريباً، وما مرت عشر دقائق حتى تجمع حولهما سرب كبير من أسماك القرش

---

١ بياقته: أي قبّة قميصه.

٢ يبلعطا: أي يتحركا داخل مياه البحر.

كان يمر هناك صدفة، وما إن أحست الأسماك الجبارة برعشات الضعف التي زادها الإحساس ببرد مياه المحيط شدة حتى بدأت تتوجه نحو مكان السقوط، وما أن اقتربت حتى شمت رائحة الدم، فهاجت وكانت جائعة لم تأكل منذ أيام.

اقترب السرب منهما وكان حوالي ١٨ سمكة بينها ١٣ كبيرة وبالغة، وما أن شاهد الضابطان المذعوران الزعانف المثلثة حتى بدأ الرعب ينفضهما نفضاً، بدأ كودي بحركة غريزية يحاول السباحة نحو الشاطئ لكنها كانت محاولة مضحكة فقد كانا يبعدان عشرات الكيلومترات عنه فيم عجز آدامز عن الإدراك الصحيح وقد تضرر دماغه من شدة الصدمة فكان يصارع الموج بما بقي له من غريزة الحياة محاولاً البقاء قرب مصدر الهواء ليتنفس بعد دقائق من التحويم حولهما، وبدأت إحدى سمكات القرش الطويلة الشابة الهجوم فعضت آدامز بصدره محاولة انتزاعه، فكانت تلك إشارة البدء، والواقع أن أسماك القرش ليس شريرة كما يعتقد الناس، إنما هي مخلوقات تريد العيش كغيرها والجوع كافر، وبما أنها تكون أسراباً ببعض الأحيان فإذا وجدت فريسة تحاول كل منها الحصول على قطعة قبل أن يسبقها الآخرون ومن الصعب على العاقل لومها لمجرد الجوع الشديد، إنما هو خطأ الإنسان والظروف عندما يضع نفسه أمامها وهي بهذه الحالة، كما أن الصيد (الوحشي) للأسماك بأهداف تجارية بتلك المنطقة أنقص كثيراً من مصادر طعامها.

بدأت الوليمة واستمرت ما يقارب الربع ساعة، بعدها لم يبق من الضابطين سوى نتف من بدلتيهما العسكريتين اللتين كانتا زاهيتين بالنياشين والشرائط المذهبة، وتحولت أناقة اليونيفورمين البحرية إلى خرق بالية يتقاذفها الموج.

صدفة

في أثناء عراكهما وبينما كان كودي يبعث بالرسالة الثانية، مد يده بغضب وشغل الموتورين بوقت واحد بأقصى قوتهما وأدار الدفة نحو اليسار فاستدارت الطائرة بشدة وسرعة غير اعتيادية مما ساهم بدفعهما للخارج بشدة أكبر لدى العراك، وبأثناء ما كانا يتوجهان نحو الباب اصطدمت يد كودي بتكة صغيرة بارزة تستعمل لإرخاء حبل الطوارئ فحل الحبل واتجه للأسفل، وبعد دقائق صارت الطائرة فارغة فتوجهت لليسار بشدة فتمزق القماش على جانبها وانضغطت الأكياس قربه فتمزق بعض منها وبدأت تنفس، لم يكن الكثيرون يعلمون بذلك الوقت أن تلك الأكياس كانت تصنع من أمعاء الثيران بعد تجفيفها، ورغم أن هذه الطريقة جرى تطويرها منذ الثلاثينيات لكن نظام الزايبلين نفسه هو نظام ضعيف فأي ضغط أو حرارة أو انثقاب من الممكن أن يهز هيكله كله.

في قلب البحر

بذات الوقت الذي كان الضابطان يتقاتلان به كانت الغواصة اليابانية تبحر باتجاه منطقة معينة حددتها لها قيادة أسطول الباسيفيكي الأوسط بالبحرية الإمبراطورية اليابانية، والواقع أنها كانت مصابة جراء طور بيد أطلقته طائرة مائية تابعة للبحرية، لكن قبطانها لم يعرف ما إذا كان قد أصاب الغواصة أم لا. فقد حدث هذا ساعة الغروب قبل يوم ونصف من رؤية طاقم لـ -٨ لها. ثم هربت الغواصة وغاصت إذ لم يؤثر عليها الطوربيد إلا قليلاً بهز هيكلها لكن قبطانها اكتشف بعد ثماني ساعات أنها قد بدأت للتو تسرب مخزونها من الوقود، وحاول إصلاحها فعجز طاقمه، عند ذلك أبحر باتجاه تمويهي وارتفع قرب السطح لكي يخفف الضغط عن هيكلها وبالتالي

يخف التسرب، لكنه اضطر لتخفيف السرعة عندما عانى الموتور الكبير من مشاكل ميكانيكية بذلك الوقت رآه كودي، وقد صادف مرور سفينة تجارية اسمها (ديزي غراي) فأخبر أحد أفراد الطاقم القبطان وكان يدعى باكمان عن وجود بقعتين من البترول بذلك المكان مع قليل من اللهب على سطح المياه تحت الزايبلين تماماً. فرفع القبطان المنظار على عينيه فلاحظ أن باب القمرة مفتوح فظن أن ملاحي الطائرة قد أرسلوا إشارات تحذير وهي التي أشعلت بقعتي البترول.

وفي الساعة ٧,٤٢ وهو الوقت الذي بث فيه كودي الرسالة الثانية والأخيرة، كان مراقب بالباخرة التجارية «البرت غالاتين» يبصر لـ ٨ وهو يرسل إشارات (دخان تحذير) فأبصره حسب خط الرؤية من موقعه فظهر له من خلف ديزي غراي ببضعة كيلومترات فعرف أن هذه إشارات إلاّ أنه قد شاهد غواصة تحته فقررت السفينتان بآن معاً مغادرة الخط التجاري اللتين تبحران عليه، لأن كلا القبطانين بهما قد أدركا أن معركة ستنشب عندما تحضر فرايغيتات الأسطول وطائراته البعيدة المدى، ولم يكن أي من هيكلي السفينتين تحتملان موجات الأعماق الناجمة عن قوة انفجار القنابل المضادة للغواصات أو طور بيدات الأعماق خصوصاً الطائشة منها.

عند ذلك أطلق القبطان سايروس براون قبطان ألبرت غالاتين صفارة الإنذار ثم عاد لمراقبة الزايبلين فأبصره يهبط ببطء إلى ارتفاع تسعة أمتار عن سطح المياه، ثم يعود للارتفاع إلى ٤٥ متراً وسط دهشته، فدار حول سحابة الدخان ثم ارتفع ببطء نحو الغيوم.

وقبيل الحادية عشرة صباحاً كانت طائرة لشركة بان أميركان تحلق بالمنطقة، فرأى قبطانها الزايبلين يحلق على بعد خمسة كيلومترات نحو اليابسة، باتجاه جسر البوابة الذهبية، وكان ارتفاعه ثلاثين متراً، وأبصر

الناحيـة المنفوخـة بـشـكل جيـد مـن إحـدى جانبيـه، وبـدا لـه تحـت الـسيطرة الكاملة فاستمر بخط سيره المعهود كما رآه قبطان الطائرة العسكرية ب-٣٨ بالوقت ذاته تقريباً، ولم يلحظ فيه أي أمر غريب، لم ينته الأمر بهذه البقعة المزدحمة تجارياً وعسكرياً قبالة سان فرانسيسكو، بل إن طائرة بحرية صغيرة للدورية، كانت تحلق على ارتفاع ٦٠٠ متر ظهر لها ل-٨ إلى يمينها وسبح بجانبها قليلاً على ذلك الارتفاع الهائل لبرهة ثم دخل بالسحاب ثانية.

استمر الزابيلين الهائم بهذه الألاعيب المضحكة لعدة ساعات حتى ارتفع لذلك الارتفاع الهائل وهناك صادفته موجة هوائية قوية عاكست اتجاهه من الجانب فيم كان قد دفع من الهواء بعكس اتجاهها لجهة جانبه فتمزق قسم منه نتيجة الضغط وبدأ ينفس الهيليوم بطريقة سريعة جداً مع تمزق عدد كبير من أكياسه الداخلية بعدما اصطدمت أغشيتها الرقيقة بحديد الهيكل فهوى بسرعة هائلة وبخلال نصف ساعة كان ماثلاً أمام ريكاردو كابوفيلا.

مرت سنة كاملة قبل أن تعتبر البحرية كودي وآدامز مفقودين، وظل سر اختفائهما محيراً لمدة طويلة لأن أحداً من البحرية لم يجرؤ على تقديم تفسير لما حصل حفاظاً على «سمعة البحرية) وبعد الحرب العالمية بسنين طويلة كشفت تلك السجلات لتميط اللثام عن ذلك اللغز.

وإلى الآن فإن الطائرة ل-٨ هي الطائرة الوحيدة بالتاريخ التي ذهبت وتركها ملاحوها وهي طائرة بالفضاء ثم عادت لوحدها إلى البر وهبطت وهي سليمة إلا من بضعة أضرار، لكنها حينما كانت معلقة فوق مدخنة وليم موريس كانت معلقة بالهواء وطائرة كما يتوجب عليها أن تفعل، كما كانت كل أجهزة ملاحتها سليمة وكذلك الأوامر العسكرية وقمرة القيادة، وبتاريخ الطيران الذي يمتد حتى يومنا هذا ٢٠٠٦ لقرن ونيف لم يحدث لأي طائرة أخرى

ما حدث لـ (ل-٨) علماً بان كل هذا حدث بمنطقة تراقب بها الطائرات أكثر من غيرها لأنها معلنة منطقة عمليات عسكرية.

١٨ أيلول ٢٠٠٦

وشلحات غيوم الخريف تقطع السماء

الحرية

بشارع صغير تجاري في مدينة كورنوول الكندية الواقعة بمقاطعة أونتاريو، أطفئت أنوار المحلات التجارية قرب الساعة التاسعة مساءاً، بعد يوم شاق بالعمل وبدأ عمال محلات الموبيليا والصرافون وعمال السوبر ماركت يصفون حساباتهم وينقلوها إلى خزائن صغيرة، فيم يستعدون لإقفال الأبواب الداخلية والخارجية وتشغيل أجهزة الإنذار، وبعد عدة دقائق كان الشارع كله قد سكن فلم يعد هناك زبائن وكان الليل البارد كفيلاً بإرسال الناس إلى أمكنة أخرى أكثر دفئاً.

تحرك روجية كارون ذو الستة عشر عاماً من مخبئه تحت السلم الخلفي لأحد البنايات وقفز باتجاه تراس صغير هو جنينة أشتال وورود ومشى بين الكراسي والأزاهير حتى وصل لقرب إفريز يقع تحت شبابيك دكان لبيع العدد الرياضية فتمسك بقطع ناتئة من أول شباك أمامه، ونقل خطواته بحذر على حافة الإفريز. وصار يتنقل حتى وصل لقرب شباك صغير غير محصن بالحديد من الخارج، فمد يده وكسر أباجوره الخارجي، ثم أخرج شفرة حادة ليحز بها البللور الداخلي ليخلعه، وما إن وضعها على البللور حتى فوجئ بأنه مفتوح فتمسك بطرف الشباك ودلى نفسه للداخل، وهناك بدأ يتفقد الأدوات التي وجدها فألفى المحل مزدحماً أكثر من العادة بألواح التزلج والبسكليتات والصبابيط الرياضية فشق طريقه وسطها حتى وصل لزاوية بها باب يفتح على أوضة صغيرة كان يظن أن الخزنة بداخلها. عالج القفل مراراً فلم يفتح فأحضر عصا ضغط رياضية وكسره. ثم خلع القفل بشاكوش متسلقي الجبال، وبداخل الأوضة ألفى ظلاماً دامساً وفيم هو يتلمس وقعت يده على لمبدير طويل

فأشعله فوجده يعطي نوراً خافتاً ناسبه فتوجه فوراً نحو الخزنة قرب المكتب وكانت صغيرة قدر نصف شنتاية اليد ، فحملها ليرى إن كان بمقدرته أخذها معه، بذلك الوقت كان أحد الجيران ماراً فسمع ضجة كسر القفل وحين اقترب من الدكان صار يتفحصه فألفى شبحاً يتحرك بين الظلال التي تلقيها أضواء الشارع على المحل فراح لكشك فيه تليفون عند زاوية الشارع وطلب من السنترال رقم البوليس وأخبرهم بما يحصل.

مرت عشر دقائق وروجيه قدر أنه يستطيع حمل الخزنة فخلع فيلده الخفيف ووضعها به مع صباط رياضة وبدلة رياضية خفيفة أعجبته وقفز للخارج وفيم هو يسير على الإفريز وقد ربط حمله بكتفه سطعت عليه أنوار سيارة بوليس وصاح به شرطي يقف بجانبها قف مكانك سنأتي لإنزالك، لكنه كان قارب من التراس فتظاهر أنه توقف وبعد لحظات وبينما أحد الشرطيين بالسيارة يتكلم باللاسلكي قفز روجيه إلى التراس وهرب باتجاه زاوية السلم الذي كان يختبئ تحته وكان بضعة أشخاص تجمعوا على أضواء السيارة والصياح فصاروا يصيحون به وسط غيظ الشرطيين: اهرب اهرب، لا تلتفت.

استمر روجيه بالركض من زاوية لشارع ومنه إلى حارات جانبية واستمر يتنقل هكذا حتى وصل لإحدى الجنائن فتمدد على الأرض من شدة التعب قرب دغلة من الأشجار والزريعة الطويلة، وبعد ربع ساعة تأكد ألا أحد يلاحقه فخرج وتمشى عائداً لبيته، وبعد بضعة أيام خطر بباله أن يتمشى قليلاً بالبدلة الرياضية قرب أحد المنتزهات حيث كان الجو جميلاً ورائقاً، فخرج ليشتري بضعة حاجيات من السوبر ماركت القريبة، وبطريق الرجعة خطر بباله أن يزور أحد أصدقائه وكان عنده موتور أعجب روجية كثيراً بالماضي، فأراد شراءه منه وبما أن غنيمته من السرقة بلغت أكثر من أربعة آلاف دولار بقليل فدخل أحد الشوارع الطويلة التي تطل عليها بنايات الفقراء المسبقة الصنع، وبينما

كان يهم بصعود درج البناية التي يقطن بها صديقه هجم عليه شخصان من الخلف وقيدا يديه خلفه بسرعة، لم يدرك رينيه ما حصل إلا عندما تجمع حوله خمسة من البوليس حاولوا التأكد من هويته وكان أحد الشرطيين الذين حضروا إلى موقع السرقة قد رأى وجهه فعممت أوصافه فلما شاهده قال لهم: هذا هو فأخبروه أنه قيد الاحتجاز. حوكم روجيه وقرر القاضي أن يرسله لثمانية عشر شهراً، بإصلاحية (غويلف) وهي أحد أوسخ السجون الكندية، ورغم أن هذه أول سرقة فلم يكن القاضي رحيماً أبداً.

لم يكن ذلك أمراً شاذاً بكندا فرغم أنها دولة ديمقراطية عريقة لكن عيباً قذراً جداً كان يشوه تلك الديمقراطية، ألا وهو السجون، فهي تقابل بوحشيتها حبوس العالم الثالث. وكان شيئاً عادياً أن يضرب حارس سجيناً على يده فيكسرها دون أن يحصل تحقيق، وليس غريباً أن يطعن أحد المحابيس منافساً له على عينه فيقتلعها ويقيد الحادث ضد مجهول لأن مدير الحبس لا يريد (سمعة عاطلة لمؤسسته)، وبأحد المرات بالسبعينات كشف أحد الصحفيين أن حارسين بأحد السجون كانا يرميان أرغفة الخبز بالأرض ويبولان عليها ثم يجبران المحابيس على أكلها.

كان حبس غويلف قريباً من مقالع حجارة عملاقة تتوزع حوله ومن هناك بدأ روجيه عمله ككسار بأحد المقالع، كان العمل يبدأ صباحاً بالساعة السابعة ولا ينتهي إلا بعد عودتهم بالساعة الثامنة مساءاً وتتخلله ثلاث فترات راحة، ولعشر ساعات يومياً راح روجيه يكد حتى اكتسب جسماً قوياً وعزيمة لا تلين. لذا لم يكن أبداً ينوي الاستسلام لمواعظ الخوري الذي كان يؤم السجن ويظل يثرثر لساعتين ونصف عن الفضيلة والتسامح والحب الأخوي ثم يخرج ليهنئ مدير السجن على إنجازه الحضاري بتصليح الجانحين بعد أن يشاركه بتوبيخهم لأي شكوى يقومون بها، كان ذلك الخوري عالماً بكل

شيء ويشاهد كل شيء ويسمع اعترافات عن أشياء لا يتخيلها العقل البشري ثم يخرج ليشرب مع المدير فنجان الشاي ويصافحه بحرارة الأصدقاء إذ كان الرجلان قريبين لبعضهما فوق العادة، ثم يمضي ولا يعود إلا بموعد العظة القادمة.

الطفولة الضائعة

ولد روجيه كارون بـ ١٢ نيسان ١٩٣٨ لأبوين من الطبقة الثالثة، وكان واحداً من ثلاثة عشر ولداً لأبويه، وهذا العدد كان يبدو غريباً جداً بالعالم الغربي حتى بمقاييس ذلك الوقت، كان والده بالغ القسوة. وامتهن صنع الصبابيط في بعض الأوقات لكن عمله الرئيسي كان بأحد معامل الورق القريبة، وغالباً ما كان يسرق الأدوات والمسامير من المعمل إلى المنزل اعتقاداً منه أن أفراد عائلته يحتاجون إليها أكثر من صاحب المعمل الذي يملك ثروة طائلة.

وعندما كان الأب يحادث أولاده عن طريقة جديدة ابتكرها لسرقة الورق من المعمل كان روجيه الشغوف يتلقى أول دروسه بالسرقة وحيلها.

كان الأب محقاً فقد كانت العائلة تنتعش قليلاً من كميات الورق التي تبيعها لبعض تجار القطاعي لكنه كان غبياً فأنى لبضعة دولارات كندية إضافية بالشهر أن تساعدهم، وكان يرد بكل غباوة على كل من ينصحه بالتوقف عن إنجاب الأولاد: اللّه منحني إياهم واللّه سيمنحني رزقهم.

كانت نتيجة هذه الثرثرة الدينية الغريبة عن العالم المتحضر، عذاباً دائماً للأسرة بالبحث عن لقمة العيش، وليس من الغريب أن الإنسان مهما فتش عن أي سند لهذه العقيدة بالإنجيل فلن يجدها بتاتاً، وذات مرة قال روجيه لأحد رفاقه وهم يستريحون: لقد كانت طفولتي معتمة. ولا أذكر أني كنت سعيداً

قط. لكني نشدت العزلة. إلا أن المشاكل، ما فتئت تقف لي بالمرصاد. ففي المدرسة كانت المعلمات يضربنني مهما حاولت بذل جهدي بالتعلم وفي مؤخر الكنيسة حيث كنت أقف كان الكهنة يضربونني، فإذا رنمت عالياً فهذه قلة أدب، أو واطئاً فهذا غلط، وعندما أرنم وسط فهذا ليس كافياً. وفي المنزل كان أخوتي يضربونني عند حصول أقل مشكلة، وأحياناً لكي يفشوا خلقهم من مشاكل الحياة.

المرة الثانية

تركت تلك الخبرة أثراً في أفكار كارون كما في جسده وعندما أطلق في مقابل تعهد بعدم حمل السلاح ومعاودة السرقة خرج من الحبس خالي الوفاض مفلس وخشي العودة إلى عائلته إذ اعتقد أن أخوته وأباه سيضربونه، تسكع فترة بالشوارع وتشرد كما فشل بإيجاد عمل له فتكسير الحجارة لا يعتبر صنعه رائجة وهو لم يكن ينوي العودة إليها.

وبصباح أحد الأيام لاحظ أن الدولارات القليلة التي كانت معه قاربت على النفاذ، وفيم كان يجلس بإحدى الحدائق يفكر فيما يجب أن يفعله شاهد رجلاً يبدو من ملابسه أنه محامي أو سمسار بورصة، كان يحمل شنتاية فاخرة وضعها بجانبه، فصار يراقبه وبعد حين التفت الرجل لمراقبة باقي الحديقة فغافله رينيه وسرق الشنتاية بعدما لا حظ ألا أحد يراقبه، ولما فتحها بإحدى مداخل البنايات الخلفية وجد بداخلها أزرار قميص ذهبية وحوالي خمسمائة دولار. باع أزرار القميص بدكان يشتري الأشياء المستعملة واشترى بندقية وقد قرر العودة لهوايته القديمة، ولم ينتهي ذلك النهار إلا وكان يهاجم سوبر ماركت، إذ استغل لحظات كان الزبائن بها قلة وأشهر البندقية بوجه الكاشير مهدداً: أعطني كل ما بالصندوق وإلا فجرتك. كان الكاشير أشد

منـه جنونـاً لدرجـة لا تـصدق فقـد هاجمـه عوضـاً عـن أن يعطيـه المـال فـدارت معركة بين الرجلين أطلق بها روجيه الرصاص محاولاً إخافة الموظف المهستر وبأثناء عراكهما كسر الموظف قنينة على رأس روجيه فأدمت رأسه، وعندما أراد إطلاقها مرة ثانية انحشرت الخرطوشة.

حـاول إخراجهـا لكـن الرجـل عـاود هجومـه فاسـتخدم روجيـه البندقيـة كهراوة وقد وصف الحادثة فيما بعد: فر الرجل على الرصيف أمام محله. وركضت أنا عبر ممر ضيق أفضى بي إلى منزل. وهناك وجدت فتاة يابانية جميلة في مثل سني فأخذتها من ذراعها وقلت أرجوك لا تجزعي. وأعدك بأنني لن أطلق النار على أحد إذا فعلتم ما آمركم به وسأغادر المكان فور ذهاب البوليس.

تلاشي الخوف من عيني الفتاة إلى حين عندما سألتني: أتسمح لي بشرح ما يجري لجدي وجدتي وهززت رأسي بالإيجاب. ولكن سرعان ما فتح الباب على مصراعيه ليدخل عدد من البوليس، وفي يد كل منهم مسدس مصوب نحوي. وهكذا قضي على حريتي التي دامت إثنا عشر يوماً.

حمل كارون أولاً إلى سجن (دون) ثم نقل إلى سجن غويلف لتلقي العلاج السايكولوجي، وهنا كان لديه الخيرة، لكن العودة إلى الحبس معناها التعرض للجلد ثانية وهو يقول عن ذلك: هزتني رعشة من البرد والخوف وهم يسألونني ما إذا كنت أقبل بالعلاج السايكولوجي قبل ترحيلي، فقد سمعت كثيراً من الروايات الرهيبة عن السياط وكيف أن واحداً منها خصى أحد الفتية وآخر شل سواه. وكان يعتمل في صدري خوف من نوع آخر وهو ألا أستطيع كتمان خوفي.

ويتحدث مطولاً عن عمليات التعذيب التي تعرض لها أثناء فترة سجنه الأولى: لقد أقحموني وسط أوضة واسعة مدهونة بالكلس الأبيض يتدلى من سقفها

شريط في أسفله لمبة، وكان في طرف الأوضة القصي تجويف معدني على هيئة رجل، مجهز لربط إنسان بالحائط، وتدلت من مسمار كبير عند حائط الأوضة ثلاث سياط من الجلد القاسي، وصادف أن أحد أطباء السجن كان يجري على الحيوانات اختبارات على أثر الغازات المختلفة في السلوك العنيف. ويصف روجيه كيف كاد يختنق عندما أخذ على حين غرة وألبس (قميص المجانين) الذي يكتف يدي الإنسان أمامه بربط الأكمام الطويلة باتجاه الخلف بشواطات، كما تم تكميم فمه وأنفه بقناع. لكن روجيه قاوم لدرجة اضطر الطبيب إلى الاستعانة بستة حراس لشل حركته.

وبعد الاختبار السابع عليه خلال ثلاثة أسابيع لم يعد روجيه يحتمل، كان في الثامنة عشرة لكنه أحس بأنه قد عاش تجارب ثلاث حيوات بكل مآسيها الرهيبة.

الطاقة

داخل أوضته التي يشاركه بها أربعة مراهقين اثنان منهما مصابان بالشيزوفرينيا أحدهما بنوع – الهياج الجمودي[1] – والثاني من النوع الشمعي[2]، كان هناك شباكان عاليان يدخل منهما النور وعليهما قضبان ثخينة من الحديد ترتفع للأعلى بشكل رماح، كان يسمح للشبان الأربعة بالعيش محلولي الوثاق، ومن دون قمصان ولا يسمح لهم بالخروج إلا لقاعة تطل

---

١ نوع من أنواع الشيزوفرينيا يجمد صاحبه كالصنم إلا إذا تحرش به أحد أو قال كلمات معينة فإنه يهتاج ويهاجم المتحرش أو أي أحد أمامه ثم يعود لحالته الأولى.

٢ الشيزوفرينيا الشمعية هي جمود صاحبها مع قيامه بحركات بطيئة كالأكل الذي قد يستغرق نصف ساعة ليتناول عدة لقيمات ثم يجمد، أو تفوهه بكلمات بسيطة تحمل معاني رمزية وتكون متفرقة وغير منظمة. وهذا النوع يكون قليل الأذى ومسالماً بشكل عام، ويحب أن يأخذ بجسمه أوضاعاً تحمل معاني رمزية أو تقليد لبعض الأفعال.

شبابيكها على جنائن حول المستشفى ولمدة أربع ساعات فقط بالنهار أثناء تناول وجبتي الإفطار والغذاء أما العشاء وهو صحن شوربة فيجب أن يتناولوه داخل الأوضة. وكانت أوضة روجيه التي يقبع بها تتصل بتلك القاعة بدهليز عالي السقف وبه طاقة عالية وعليها أيضاً حديد، وطوال أيام كان رينيه ينتهز فرصة ألا أحد يراقبه ليقتلع من حديد شباك بالقاعة قطعة ظل يحاول ليَّها ألوف المرات للأمام والوراء وجهات عدة، حتى تمكن من كسرها أخيراً، ثم أعادها لمكانها، وعند جرس الانصراف الثاني، اقتلعها وخبأها تحت قميصه ولم ينتبه أحد من الممرضين لذلك كان قد خبأ لفات من الشراشف أخذها من الأسرة وربطها ببعضها تحت ملابسه، وقبلها غافلهم فأخذها من أوضته عندما خرج آخر واحد منها وغطى الفرشات بالشراشف العلوية ورتبها، فيم كان الرفيق الثالث بالأوضة وهو من نوع عدواني يراقبه شزراً ولا يتكلم، وقد استطاع روجيه السيطرة عليه وجعله يسكت عن أي شيء يفعله بعد أن لاحظ أنه يحب قطع الكيك التي تحضرها إدارة المستشفى وتوزعها على (المجانين المطيعين)...! وبالليلة الفائتة أخذ روجيه حصته من الكيك وخبأها تحت ملابسه وعند الظهر وقبل الغداء أعطى رفيقه الشكاك واحدة فصار وديعاً ومطيعاً وانمحت نظرات الشك عنده وحين مغادرة الأوضة جعل الثلاثة يخرجون قبله، ثم وكالمجنون أخذ الشراشف وربطها ببعضها البعض، ثم لفها حول جسمه تحت قميصه الفضفاض، وبطريق الرجوع وقف عند فسحة صغيرة قبل الدهليز الموصل لأوضته واستلقط اثنان من المجانين يعرف من فترة وجوده أن الأول إذا أنزل أي إنسان له بنطلونه للأسفل فإنه يصاب بنوبة هستيريا ويركض تجاه الطاولات لينبطح على أحداها وهو ينظر نظرات شك لمن حوله ويصير يقاوم من يريد إعادته لأوضته، أما الثاني فإذا قال له أحد أنت خشخيشة فيجن جنونه ويصير يضرب كل من حوله ولا يهدأ إلا بسرنكة منومة، فاقترب من

أحدهما وقال له: انظر ما سأفعل يا خشخيشة وركض نحو الثاني فشد له بنطلونه بيديه الإثنتين حتى أنزله للأرض...

أصيبت المستشفى بهستريا بالربع ساعة القادمة فالمجنونين ضربا عدداً من المجانين وهؤلاء بدورهم اهتاجوا واختلط الحابل بالنابل وسط الصياح والجعير وولولة المجانين والعقلاء وهم يضربون بعضهم البعض ويكسرون الطاولات والكراسي فيم يحاول الممرضون تهدئتهم.

بذلك الوقت انتهز رينية فرصة هذا الهرج وركض نحو الدهليز وخلع قميصه وفك الشراشف، وكان قد أخفى الحديدة التي اقتلعها من الشباك سابقاً فربطها بطرف أحد الشراشف ولوح بها ثم رماها نحو حديد الطاقة بلحظات كان المرضى بها يصرخون على بعضهم بشدة، فلم تعلق فانتظر حتى عاد الصياح ثم أعاد الكرة فشبكت الحديدة بالعوارض الناتئة فشد الشراشف وتسلق الحائط حتى وصل للطاقة فتمسك بحديدها، ورفع الشراشف ولفها حول الحديدة ثم أخفاها بطرف الشباك. وبدأ يتنقل من شباك لآخر حتى قطع أربعة، فوصل لطرف سقيفة فوقف على إفريزها، ثم أخرج حديدة عالج بها القفل حتى فتحه بطريقة تعلمها من بعض المحابيس، ففتح الباب واختبأ خلفه.

بعد نصف ساعة كانت المستشفى قد هدأت، وخلا وسطها بما فيه قاعة الطعام حيث أن كل الأطباء والممرضين كانوا مشغولين بإعطاء المرضى سرنكات مهدئة. ففتح روجيه باب السقيفة ودلى نفسه للأسفل ثم قفز بهدوء، وما إن لامس الأرض حتى تسلل عبر الدهليز إلى قاعة الطعام ومنها إلى أوضة صغيرة للحرس فألفى بابها مفتوحاً فدخلها ولدهشته الشديدة وجد علاقتي مفاتيح تتدليان من عليقة خشب خلف كرسي المكتب فالتقطهما فوجد بالأولى ثلاثة مفاتيح وبالثانية اثنين. فصار يجربهم على الأبواب ففتح باب أوضة

الحراسة ثم خرج لروشن خلفي ومنه إلى باب حديدي جانبي للمستشفى بدا مهجوراً وقد غطت نصفه النباتات فصار يجرب المفاتيح به ولدهشته فقد فتح أحدها. فخرج منه ليرى نفسه بحارة صغيرة بين البيوت تحيط بها الجناين الصغيرة فهرب لا يلوي على شيء.

لم يكتشف هروب روجيه إلا عند المساء عندما تنبه الممرض الذي جلب العشاء لأربعة أنهم كانوا ثلاثة بالأوضة التي يقيم بها روجيه. وذلك بعد ست ساعات من فراره، وما إن وصل الخبر لمدير المستشفى حتى أمر بقلبها رأساً على عقب، لكن بدون جدوى وقرب منتصف الليل اضطر لإبلاغ البوليس عن فراره فحضر اثنان منهم لمكتب المدير ليأخذوا مواصفات روجيه لكنه أخبرهم أن مواصفاته عندهم فهو محكوم سابق.

مرت أيام طويلة على روجيه وهو يتسكع متنقلاً من دغلة لجنينة لمداخل البنايات المهجورة وفتك به الجوع والعطش.

هذه المرة كان خالي الوفاض لا يملك بنساً واحداً وحينما خطر له فكرة شراء سلاح ومعاودة السرقة بالقوة ضحك من الفكرة، إذ ليس لديه مال حتى ليدفع أجرة الباص للانتقال لمكان آخر أكثر ملائمة، وبعد ثلاثة أيام من فراره وصل لمقر مصنع كبير مهجور يطل على شارع رئيسي يتقاطع معه شارعين كبيرين بينهما أرض واسعة غير مبنية فصعد للطابق الثاني ووقف وسط قاعة كبيرة مهجورة يجيل النظر من شبابيكها الكبيرة للخارج فوقع نظرة على محل جاتو كبير يبيع الخبز الفرنسي الفاخر المحلى والفطائر فأحس برغبة جنونية بالهجوم عليه والانبطاح وسط الفترينة والتهام كل ما بها من الفطائر والجاتو، وهبت نسمات خفيفة حملت معها أريج مداخن المحل الكبير مما زاد من عذابه نظر إلى السماء فألفاها رمادية ممشحة بالغيوم وفجأة أحس بأنه عطشان فصار يدور بين الحطام عن شيء يبل به ريقه فوصل لأوضة

مكتب مهجور قديم وجد بطرفه براد متسخ ففتحه فوجده فارغاً، لكن كان ممدداً لداخله بربيش ماء صناعي ينقط ماء ولما فتش وجد درج البراد السفلي مائلاً وقد تجمع به الماء فرفعه من مكانه وشرب.

حل الليل ورينيه يراقب الدكان كالمجنون وكان به طاولات للزبائن يقدم عليها الجاتو مع المشروبات، وبعد انتصاف الليل بقليل بدأ العاملون بإطفاء الأنوار تدريجياً وقد فرغ البوفية من زبائنه، تسلل عبر حطام المكنات والعدد، ولما وصل للشارع المفتوح لفحت وجهه نسمات الليل الباردة المنعشة فسار سريع الخطى نحو البوفية ولما وقف عند الباب وجد صندوق الكاشير مفتوحاً والأخير واقف عند زاوية باب يتكلم مع فتاة وهما منشغلان بتركيب جلالة صغيرة للزينة عند الطرف الآخر للبوفية، فدخل واختبأ تحت طاولة البار ومد يده إلى الصندوق فأخذ الرزم المالية ثم فتح خزنة الفترينة وأخذ علبة كرتونية كبيرة من رف سفلي وعبأ بها بسرعة ما يقارب العشرين قطعة جاتو وفطائر لكنه لم يتمكن من إحكام إغلاقها إذ كان بعيداً عن مكان كرار الخيطان، ونظر تحت البار فوجد علب بيرة تنك ملفوفة مع بعضها فأخذ صندوقين وفر هارباً إلى زاروبة صغيرة ومنها إلى شارع آخر كبير من الناحية الثانية للأبنية ومنه عاد للمصنع المهجور وهناك وقرب ساعات الفجر الأولى تمكن أخيراً من النوم تحت تأثير الشبع والسكر، فقد شرب صندوقاً ونصف من البيرة وإزدرد خمسة عشر قطعة فطائر وجاتو، وأحس لأول مرة بحياته بآلام التخمة فوجدها لا تختلف عن آلام الجوع.

الصباح

أشرق صباح اليوم التالي وضج الحي بالحركة لكن روجيه ظل نائماً لقرب العصر عندما استفاق على صوت أولاد يلعبون، فأفاق وأفطر إفطاراً

متأخراً من بقايا عشاءه الماضي وفيم كان يشرب البيرة وينظر للشارع أخرج كدسة المال الذي سرقه الليل الفائت فعد فوجد ١٦٢٥ دولاراً وكان مبلغاً محترماً بمنتصف الخمسينات فخرج وصار يبحث عن مأوى فبعد أربعة أيام من النوم بين الحطام وعلى الأرض وعلى كراسي الجناين كان جسمه مكسراً، فوجد بمنطقة شعبية امرأة عجوز تؤجر شقق صغيرة للعمال الوافدين وأصحاب الحرف فطلبت منه ١٥ دولار بالشهر فوافق فوراً.

قطن روجيه عدة أسابيع بتلك الشقة المزرية المطلة على أحد الحارات الهادئة وبأثناء ذلك حاول البحث عن عمل لكن كان ذلك صعباً فقد كان يتجنب الإجابة عن العديد من الأسئلة عن ماضيه كما لم يكن يعرف أي مهنة حقيقية حتى شكت به إحدى النساء بمكتب لتأمين التوظيف عندما طلبت منه هويته فتذكر أنها محجوزة بالسجن فارتبك ثم قام يتمشى قليلاً ويذرع الكوريدور، وعاد لها وأخبرها أنه سيبحث عنها فهدأت روعه ودعته لتناول فنجان من الشاي لترى ما يمكنها عمله لأجله. ولما قامت لتحضير الشاي أبلغت مكتب البوليس المحلي بأن هناك مشبوهاً لديها وكانت معتادة على مثل هذه الحالات وبخلال ربع ساعة كان روجيه الذي يشرب الشاي ويحاول الإصغاء إلى ثرثرة المرأة، قد حوصر من البوليس فحانت منه التفاتة للخلف فشاهد للمرة الثالثة بحياته المسدسات مصوبة نحوه.

مرة ثانية

أعيد روجيه للعلاج مرة أخرى بل وصاروا يعطونه مهدئات أكثر وبعد عدة أسابيع أخرى لم يعد يحتمل وبينما كان يقوم باستراحة بجنينة المستشفى حسب العلاج الجديد لمكافأته بعد أن أظهر تجاوباً معه غافل الحراس وقفز من فوق السور المحصن بالأسلاك الشائكة فجرح نفسه بخدوش كثيرة ورمى

نفسه للشارع وبدأ بالركض، لكن هروبه هذه المرة لم يدم أكثر من نصف يوم فقد فضحته ملابس المستشفى التي لم يستطع التخلص منها فألقي القبض عليه وهو يسكر بإحدى الخمارات، بعد أن قال لصاحبها أنه إذا قدم له مشروباً ببلاش فسوف يرقص له رقصة الأسكيمو، فقدم له الزبائن من السكارى ١٤ مشروباً على حسابهم وهم يكادون يموتون من الضحك.

قبض عليه مرة أخرى ليوضع بإصلاحية كينغستون، وكان يوم ذاك في الثامنة عشرة وهو الأصغر سناً بين ١١٠٠ سجين، وهناك كان الضرب بالسياط هو الحل لكل المشاكل الموجودة أو الوهمية. ومع الوقت أخذ ينسحب من عالم الأشياء ولم يعد يأبه للقذارة والضرب والإهانات ولا للضوء المنبعث على الدوام من لمبة كريهة بشكل يبعث على الكآبة والسأم الرهيب.

وأشد ما كان يغيظه هو حارسين بالنوبة الليلية وكان لديهما هواية منع المحابيس من النوم فكانوا يقرعون على قضبان القواويش بهراوتيهما مما كان يثير جنونهم ويسبب لهم عذابات لا تطاق بعد يوم العمل المضني الطويل القاسي.

وصف روجيه نفسه فيما بعد: في البدء لم ألاحظ أني بت قليل الكلام، لكن صمتي أخذ ينمو باطراد واستغرقت في عالم الأدب عن طريق الكتب التي كنت أحصل عليها من مكتبة الحبس، فصعدت مع السير ادموند هيلاري إلى قمة جبل إفرست وانحدرت إلى الكهوف بحثاً عن كنوز مخبوءة وذهبت إلى القارات المفقودة، وبحلول شهر آذار ١٩٥٧ كان انسحابي من عالم الأحياء قد تم.

أقصر طريق

ذات يوم عام ١٩٥٩ شاهد كارون أحد رفقاء الحبس يحاول أن يقتل محبوساً آخر جرب الإعتداء عليه فدفعه إلى نوبة غضب هستيري، فصاح قائلاً:

لا تفعل وإلا أعدموك! وكانت تلك الكلمات أول ما يتفوه به خلال سنتين. وبعد ثلاث أشهر زارت الملكة إليزابيث الثانية كندا لتدشين سفينة فأطلق كارون بموجب عفو عام.

وعاد إلى بلدته كورنوول ووجد عملاً في اقتلاع الأجزاء البالية من السكة الحديد، لكنه ما لبث أن ترك العمل لأنه لم يطق الإهانات القاسية التي كان يلقيها الناظر عليه بعدما اكتشف انه محبوس سابق. وكان والده بتلك الآونة مصاباً بالسرطان وفواتير المستشفى مرهقة. وهذا حدا بكارون على اختيار الطريق الوحيدة التي يعرفها لتحصيل المال بسرعة. ألا وهي السرقة. واقتحم حانوتاً محلياً لكن الشرطة قبضت عليه... وبالطريق للحبس صار يحدث نفسه ويقول: يا لي من لص خائب.

وعندما اُقتيد إلى دائرة الشرطة راوده خوف أليم من العودة إلى الإصلاحية واستطاع أن يفر بالقفز من نافذة في الطبقة الثانية. ووجد طريقه إلى بلدة فردريكتون. وهناك عمل بعضاً من الوقت في تنظيم المهرجانات ثم في حصاد القمح، ولم ينقضي وقت طويل حتى سرق سيارة فقد كان عمله وقتياً وما لديه من مال ينفذ بسرعة.

لم يعرف ماذا يجب أن يفعل بتلك السيارة فهي كبيرة على إخفائها وهو لم يفكر قبل سرقتها كيف سيتصرف بها ولما حاول بيعها لأحد المكنسيانية بلغ عنه البوليس وبعد ملاحقة مريرة في الغابات وجد نفسه وراء القضبان من جديد.

ومرت السنوات الثلاث التالية مثل كابوس متعدد الألوان. فكان كارون ينتقل من سجن إلى آخر، ولما حاول الهرب بعدما علم بوفاة والده، أعيد إلى حبس كينغستون الهمجي، والمضحك أن الأسماء الرسمية لهذه الأماكن كانت (الإصلاحية).

وحدث في تشرين الأول ١٩٦٢ أن محبوساً بكينغستون طعن كارون بمدية صنعها بنفسه، إلا أن كارون، محافظة منه على عهد قطعه الأسرى على أنفسهم بألا يفشى أحدهم سر الآخر، لم يعترف باسم المعتدي بل أصر على أنه طغى نفسه. وعل أثر ذلك أرسل إلى مستشفى للأمراض العقلية يحوي جناحاً للسجناء. ويصف تلك الفترة بقوله: في الأسبوعين الأولين أجبرت على ابتلاع ١٢ حبة دواء يومياً كان نصفها لمعالجة الجرح الذي خلفته المدية. أما النصف الآخر فأدى إلى تشنجات عضلية قوية كانت تعذبني كل ثلاثين ثانية. وعلمني مريض متمرس كيف أخبئ حبوب الدواء ثم اقذفها بالمرحاض، شرط أن أتظاهر بأعراض التشنج كلما دخل المعالج السايكولوجي الأوضة.

تنقية الذات

بعد خمسة أشهر في مستشفى بنتانغويشن العقلي، أعيد كارون إلى الحبس إذ لم يقم أي دليل على (جنونه). وحاول الفرار وهو في الطريق إلى الإصلاحية، فحكم عليه بالحبس سنة كاملة في الحبس الإنفرادي. وكان عذاب ذلك النوع من العقوبات سايكولوجياً أكثر منه جسمانياً، ولهذا يقول كارون: كان علي أن أقضي عاماً آخر محنطاً ضمن أوضة لا يدخلها نور الشمس بل تضيئها لمبة ليل نهار. ولم يكن هناك فراش أو ملاءة أو وسادة. وكان علي ارتداء يونيفورم فضفاض يغطيني من العنق حتى القدمين ويغني عن قميص. ويضيف: كان الحراس يختلسون النظر من فرجة في السطح ويخيفونني حتى الجنون.

نقل كارون في العام ١٩٦٤ إلى سجن آخر في مقاطعة مانيتوبا. ويقول إن دفاتره كانت العامل الوحيد الذي حال بينه وبين الجنون، إذ كان قد بدأ الكتابة عن أي شيء يعجبه لمجرد الهروب من الواقع، ويصفها: إنها خمسة

دفاتر مهلهلة كانت تحوي مجموعة هائلة من المعلومات التي دونتها. وهي كانت تأشيرة دخولي إلى عالم جديد من كشف الذات في محاولة لمعرفة الدوافع التي حدتني على تدمير نفسي. وعلى رغم معرفتي الضئيلة بالكتابة، إلا أن قوة خفية حملتني على ملء هذه الصفحات كأنما هي منقذي من الغرق وسط بحر جامح، ويدور في خلدي آنذاك أن تلك المحاولة الأولية سوف تتحول مع الوقت إلى آلاف الصفحات المخطوطة.

إن تبدلاً كان يطرأ على حياة كارون. ذلك أن تنقية الذات على الورق كانت عوناً له على الاكتفاء الذاتي. ولاحظ المسؤولون في السجن ذلك التبدل وسمحوا له باستعمال ماكينة كاتبة داخل زنزانته.

بحلول عام ١٩٦٧ نقل إلى حبس آخر، وبعد عام إلى حبس أكثر قسوة. وبعام ١٩٦٩ أطلق مقابل تعهد. وهنا كان الحدث الفاصل بتاريخ حياته المزرية فكالعادة خرج من الحبس وبجيبه بضعة مئات من الدولارات دون أن يحاول أحد مساعدته ولما حاول الاتصال بإخوته وجدهم ينبذونه ويعاملونه كمجرم لا كفرد من العائلة، أثرت به هذه المعاملة كثيراً، فقرر لأول مرة في حياته العودة للسرقة لكن مع التخطيط المسبق هذه المرة فانضم إلى عصابة تفكر بالهجوم على مركب يعبر نهر الساندلورنس ويحمل المال عادة من وإلى مونتريال بغرض سلبه والقفز بالنهر مع الغنيمة والعبور لأميركا، كان كل شيء يسير حسناً بل أنهم وزعوا الأدوار واختاروا زمن التنفيذ لكن أحدهم أخطأ وأخبر عضواً بعصابة أخرى بينها وبين عدد من أفراد الأولى عداوات مرة على أمل أن يضمه إليهم، عوضاً عن ذلك أفشى ذلك الرجل السر للبوليس وعند موعد التنفيذ قبض البوليس عليهم بالجرم المشهود ورغم أن العملية كانت جريمة التخطيط والمحاولة للسرقة لكن الحكم جاء كالعادة قاسياً جداً وأشد من الجريمة نفسها فقد صدر حكم على روجيه بـ ٢٥ سنة بحبس كينغستون بالذات.

بدخوله الحبس هذه المرة الأخيرة كان روجيه قد حاول الهرب ١٣ مرة ولم ينجح إلا بواحدة نجاحاً كاملاً أفسدته عليه الظروف فيما بعد، فقد نعتته الصحف آنذاك بـ (الكلب الأحمق) ووصف خلال محاكمته الأخيرة كرجل بلا ضمير وحالة ميؤوس منها.

الكاتب

بعد مضي مدة بالحبس الأخير الطويل أرسلت فرقة (جيش الخلاص) الخيرية وهي منظمة مسيحية سلفية علبة حلويات مغلفة بالسكر إلى كل محبوس مع دعوة للصلاة، بمناسبة عيد الميلاد ١٩٧٣ ويذكر روجيه ما حصل: كنت وحيداً وراودتني رغبة في أكل تلك القطع المغرية. لكنني وضعتها جانباً. وكان الحارسان الليليان على عادتهما يسخران مني بطرق مفاتيحهما على باب القاووش كلما أردت النوم، وكانت أعصابي مرهفة بحيث كان ذلك الصوت يخرجني عن طوري ويحملني على الصراخ احتجاجاً. غير أن الحارسين كانا يقهقهان إمعاناً في الهزء.

وذات ليلة حملت قطع الحلوى وأخذت أشكل بها كلمات بذيئة تعبر عن نفاذ صبري تجاه ذينك الحارسين، لكني دفعت الثمن غالياً. فقد أخذا مني غطاء النوم وصادرا علبة الحلوى عنوة. إلا أن ذلك أمدني بعبرة ثمينة وهي أن للكلمة قوة عجيبة. بعد ذلك طلبت من معلم الحبس أقلاماً وأوراقاً للكتابة وقاموساً وبدأت الكتابة على نحو لا يعرف الملل، حتى ظهرت على أصابعي القروح، غير أني وجدت في الكتابة سبيلاً لتنقية الذات. وعلى رغم أن حياتي المدرسية لم تدم إلا سبع سنوات لكني قرأت آلاف الكتب في الحبس وأظن أني اكتسبت مقداراً كبيراً من الكلمات. وأخيراً طرأت على ذهني فكرة وهي تدويني لكتاب عن حياتي في الحبس.

وجد روجيه متسعاً من الوقت للتأمل في الأخطاء التي انطوت عليها حياته.

وجاء اليوم ١٧ نيسان ١٩٧٣ وهو تاريخ لن ينساه البتة فهو اليوم الأول من الشغب الذي حصل داخل حبس كينغستون، لم يعد المحابيس يحتملون المعاملة الوحشية طوال سنين فتمردوا، واحتل ٦٠٠ منهم الجناح الرئيسي. حاول روجيه وسط العراك الصاخب أن يتفقد أوراقه الثمينة فوضعها ضمن غلاف عازل كتب عليه، مخطوطة، لكنها صودرة منه بقوة السلاح عندما نقل الأسرى إلى سجن ميلهافن لمحاولة تقسيمهم بغية السيطرة عليهم.

وبقي روجيه هناك حتى تبين أنه لم يكن له دور في أحداث الشغب، وفي تلك الأثناء جرى تنظيف كينغستون وإعادة ترتيبه وبناءاً على توصية من روجيه عثر معلم الحبس على المخطوطة وأعادها له.

الحرية

منذ إعادة المخطوطة إلى روجيه تولدت لديه قناعة بأن الحظ إلى جانبه، وقرر نشرها ولم يثنه عن ذلك أن ثلاثاً من دور النشر الرئيسية في كندا أعادتها إليه وأخيراً بعد إدخال تعديلات كثيرة عليها نشرت عام ١٩٧٨. وبيع من الكتاب بالسنة الأولى نحو ٨٠٠٠ نسخة مجلدة.

ثم أصدرت دار كندية أخرى طبعة شعبية لقيت رواجاً في بريطانيا واستراليا ونيوزيلندة، أما بالنسبة إلى كارون نفسه فالكتاب حول مجرى حياته كلياً، فقد تم إطلاقه عام ١٩٧٨ بدلاً عن احتجازه حتى العام ١٩٨٣، ولئن أطلق هذه المرة أيضاً في مقابل تعهد إلا أن مراقبة الشرطة له لا تعدو كونها مسألة شكلية. وهو الآن يعمل حلقة وصل بين الإصلاحيات والجمهور.

وكونه ممثلاً لآراء السجناء يظهر روجيه مراراً على شاشة التلفزيون وفي نوادي الشباب ومنظمات الخدمة الإجتماعية. وهو يحدث الجمهور عن الحاجة

إلى برامج مدروسة يمنح بموجبها الأسرى حرية وقتية قبل اعتاقهم نهائياً، كما يدعو إلى إنشاء لجان شعبية يتاح لها تفقد الحبوس والمؤسسات التابعة لها والتحدث إلى المحابيس والحراس. وعلى الرغم أن روجيه قفز من موقع الخاسر إلى موقع الرابح إلا أنه لا يزال يحمل حبسه داخل ذاته فهو لا ينسى أولئك الأشخاص الذين حمل إليهم الأذية، ولا الأبرياء الذين جر عليهم الخوف. ولا ينسى كذلك أنه مدين لأولئك الذين وصفوا ثقتهم به وعندما منح روجيه أعلى جائزة أدبية بكندا عام ١٩٧٩ كان رجلاً فضي الشعر في الحادية والأربعين.

كان ذلك الحادث بالنسبة إلى شخص عد مجرماً خطيراً وهو بعد في السابعة عشرة، نهاية رحلة طويلة وشاقة على درب العذاب، لكن روجيه يصف رحلته بالكلمات الآتية: لقد كانت رائعة... رائعة كما الوصول إلى قمة إيفرست.

الأحد ٢٤ أيلول ٢٠٠٦

طبيب في قبضة إرهابي مسلح

كان يوماً صاحياً مشمساً في مدينة أورينسي شمال غرب أسبانيا ، فقد كان ذلك اليوم بالروزنامة ٥ (حزيران) يونيو ١٩٧٨.

كان الوقت صباحاً والناس يمشون على مهل إلى أعمالهم، وقلة منهم كانت تعبر الشوارع، بينما جلس العديد من الناس على البرندات الأسبانيولية التقليدية ذات الدرابزينات الحديدية المشغولة وقد توزعت عليها أصيصات[1] الزرع العسلية اللون وهم يفطرون أو يشربون الشاي ويراقبون المارة بهدوء أسبانيولي جبلي حيث أن أهالي هذه المناطق يحتاجون لزلزال ليغير لهم من طبعهم الهادئ الرصين.

رن جرس التليفون بدارة مانويل كاباليرو وهو طبيب ومعالج سايكولوجي شاب عمره أربعة وثلاثين عاماً ، يعيش حياة رتيبة ، رفع مانويل السماعة وكان على الطرف الآخر رجل عرفه باسمه جوليان رودريغز وأخبره أنه يتصل به لمقابلته بشأن الإعلان المنشور بالجريدة المحلية عن بيع حصة من فيلا حجر الصوان بضاحية قرب أورينسي، وكانت والدة مانويل العجوز المقعدة تملك جزءاً منها ، وكان مانويل بالاتفاق مع والدته المريضة قد نشر إعلاناً صغيراً بجريدة محلية محدودة الإنتشار عن بيع حصة والدته من هذه الفيلا الضخمة التي كانت تؤول لأجداده قبل الحرب العالمية الثانية عندما كانت عائلته ثرية ، لكن الزمن تغير ولم يعد لا هو ولا والدته قادرين على تحمل تكاليف مكان

---

١ أصيصات: جمع أصيص، حوض صغير فيه نبات للزينة أو للرائحة.

فخم وكئيب مثل هذا ، ففضلا بيع هذه الحصة وهي ليست قليلة ، فعدد أوضها كان ثلاثين.

اتفق مانويل وجوليان على اللقاء في أوتيل بوسط البلد ، واتفقا على العاشرة والنصف كموعد للقاء.

وضع مانويل السماعة فرحاً خصوصاً وقد كان صوت المتحدث يميل للجدية الزائدة وهي صفة تلازم الأقلية الأرستقراطية من أبناء البلدة.

وفيم يكمل شرب فنجان الشاي لبس بدلته وأكمل هندامه على عجل وهو ينظر لساعته وقد قاربت العاشرة إلا ربعاً ، وأدرك أنه قد يتأخر على موعده فصفق الباب خلفه ونزل على عجل دون أن يخبر زوجته بشيء.

وفي الطريق حاول إيجاد تكسي فلم يفلح فصار يلعن المواصلات، وأخيراً وجد نفسه قرب محطة الترامواي القديمة في طرف البلد فوقف ينتظر الترامواي بقلق وعينه على ساعته ولم يكن يحب التأخر على مواعيده وكان هذا ضد طبيعته المنضبطة ، مرت الدقائق ثقيلة وهو يتلفت ثم لم يلبث أن أطل الترامواي المتهالك القديم يتهادى على السكة ، ركبه مانويل على عجل ولم يهتم بالجلوس كثيراً فترك مقعده لامرأتين عجوزتين وحاسب الكرتجي الختيار. وبعد أقل من عشر دقائق كان قد وصل إلى الشارع العتيق الذي يقع فيه الأوتيل، نزل من الترامواي وقطع الشارع ودخل إلى البهو المطل على المطعم والكافيه فخطر بباله أنه لا يعرف الرجل فتوجه إلى مكتب الإستقبال ليسأل إن كان هناك أحد قد أودع اسماً بالإنتظار ، ولما سمع الموظف باسم جوليان رودريغز حتى دور في الدفتر الموجود أمامه قليلاً ثم أجاب مانويل الأوضة رقم ٢٠٢ يا سيدي.

صعد مانويل الأصانصير حتى وصل الطابق الخامس وهناك وفي آخر دهليز خفي الإضاءة استطاع أن يتبين رقم الأوضة المتطرفة، وطرق الباب عدة طرقات خفيفة وانتظر.

كان الرجل الذي فتح باب الجناح كما اكتشف مانويل فيما بعد أنيقاً، ويتكلم بلهجة جعلت كاباليرو يظن أن الرجل مثله من مقاطعة غاليسيا، ودخل الاثنان فوراً في موضوع العقار الذي تبلغ قيمته حسب أسعار السوق ٦٠ مليون بيزتا (نحو مليون دولار) آنذاك، وكان من المفروض أن تبلغ حصة والدته أقل من ثلاثين بالمائة، وأبدى رودريغز اهتمامه بشروط البيع فيم كان يصب له كأساً من الشاي قبلها مانويل من باب المجاملة وهو الذي انتهى من شرب الشاي لتوه. وفيم هما يتجادلان عن مساحة الفيلا وحالتها لاحظ مانويل بأن مضيفه قد بدا عليه وكأنه قد تذكر شيئاً ما، فنهض من مقعده قائلاً: سأقدم إليك عرضاً، واختفى داخل أوضة النوم، ثم عاد بعد لحظات وقدم إلى ضيفه ورقة مطوية فدهش مانويل، وفيم هو يفتحها دار مضيفه ليقف خلفه.

وفتح كاباليرو الورقة وقرأ فيها العبارات الآتية مطبوعة على المكنة الكاتبة: هذه سرقة بالإكراه. افعل ما أقوله لك لئلا تتعرض للخطر..

وارتسمت على وجه كاباليرو شبه ابتسامة وأدار رأسه نحو مضيفه، فرأى فوهة مسدس مصوبة نحوه من مسافة متر فقط. جمد مانويل لبرهة ثم لاحظ أن المسدس حقيقي ورفع رأسه ليلتقي بوجه مضيفه وقد اختفت الابتسامة عن وجهه، فلاحظ فوراً أن وجه المدعو جوليان قد تحول إلى سحنة جدية شرسة وجامدة ترسل نحوه نظرات تحمل قسوة مفاجئة وأمره رودريغز بأن يركع على ركبتيه فلم يجد مانويل مفراً من التنفيذ، ثم تغيرت لهجته فجأة إلى أسلوب من يخاطب شخصاً أدنى منه، واستطرد أسند رأسك إلى الطاولة وضع يديك خلف ظهرك.

وسرعان ما وجد كاباليرو معصميه مقيدين بحبلين من خيوط النايلون تم إعدادهما من قبل. وأمر رودريغز أسيره بدخول أوضة النوم حيث قيد كاحليه، ثم غشى[1] عينيه بشريط لاصق، وفتح أزرار قميصه. وأحس كاباليرو بأن رودريغز يضغط صدره بجسم صلب مربع الشكل، وفجأة أدرك حقيقة ما يحدث له: لقد أصبح آخر ضحية لنوع جديد من أساليب الخطف في أسبانيا، حيث يطلق المخطوف لكي يجلب فديته بنفسه بعد أن تكون ثبتت في جسمه قنبلة موقوتة.

وبينما كان كاباليرو يفكر في مصيره، لف رودريغز حبلاً حول عنقه وآخر حول أسفل أضلاعه، ووصل الحبلين بالقنبلة، وبعد ذلك لف المسلح حول صدر الطبيب بضع طبقات محكمة من الشريط الطبي اللاصق، غطى بها القنبلة والحبل الذي يدور أسفل أضلاع الضحية.

لن تنفجر إلا إذا...

رفع رودريغز قطعتي الشريط اللاصق من فوق عيني الطبيب، ووضع أمامه ورقة أخرى مطبوعة على الآلة الكاتبة، تنبئه بأن جسمه ثبتت عليه قنبلة، وتطلب دفع عشرة ملايين بيزيتا (حوالي ١٦٥ ألف دولار) قبل الساعة الرابعة من عصر اليوم التالي. وتقرر أن القنبلة ستنفجر تلقائياً بعد فترة تراوح بين ٧٥ ساعة و٩٠ ساعة من تثبيتها على جسم كاباليرو، وأضاف النص: ونحن الوحيدون الذين نستطيع رفعها من دون أن تنفجر. وفي حال إبلاغ الشرطة أو عدم دفع المبلغ المطلوب، فسوف تتخذ إجراءات انتقامية ضد أسرة كاباليرو.

---

١ غشّى: أي غطّى.

نشف ريق مانويل وهو يلاحظ المدة القصيرة لموعد جمع المال وبدأ يفكر بأن هذا الرجل مقامر جريء لأبعد حد، ولكن بحياته هو، فسأله وهو يجاهد للسيطرة على صوته: هل هذا الشيء مأمون؟

فمد رودريغز يده ونقر القنبلة بشدة مرتين بأصابعه ورد موضحاً: إنها لن تنفجر قبل موعدها إلا إذا أصابتها صدمة بالغة. غير أن فيها أدوات استشعار خاصة تجعلها تنفجر إذا أصابها بلل، أو إذا فصلت عن الجسم أو نزع منها الحبل الملفوف حول الرقبة، وأضاف سأتصل بك هاتفياً في الثالثة عصر غد لأنبئك بمكان وضع الفدية. وعليك أن تبقى هنا حتى الثامنة، ثم تنصرف وتسدد أنت حسابي في الأوتيل.

ثم جر رودريغز ودفعه نحو خزانة الملابس الحائطية وحبسه هناك بعد أن أعاد تكميمه، وظل هناك حتى ما بعد العصر يسمعه وهو جالس يتفرج على التلفزيون ولا يصدق في نفسه كم بلغت برودة أعصاب هذا الرجل، وحاول قدر الإمكان ألا يفكر في القنبلة محاولاً قدر ما استطاع وبجهد جبار إبقاء أعصابه هادئة وهو يتعرق داخل الخزانة التي كانت حرارتها لا تطاق بسبب الملابس المتكدسة بها في جو حزيران المتوسطي الحار.

وفجأة سكت صوت التلفزيون، فأصاخ مانويل سمعه فصارت تصله أصوات حركة وكركبة وفجأة.. سمع صوت انصفاق الباب بخفة، وتوقفت الحركة، وكانت الساعة السادسة والنصف عندما غادر رودريغز جناحه في الأوتيل.

وبعد خمس دقائق، كان كاباليرو قد تخلص من قيوده غير المحكمة بعد أن كان قد تحملها إثر تهديد رودريغز له، وأخذ يفحص نفسه، وبدت له الكتلة الملتصقة بجسمه أكبر قليلاً من حجم علبة السجائر، ورأى وسط صدره وصلة سدادة بارزة فوق حافة الشريط اللاصق خيل إليه أنها ميجروفون،

وقال في نفسه هل هذا نوع من أجهزة التنصت؟ نرى هل يراقبونني عن طريقه ليكتشفوا أي محاولة مني لخداعهم؟

وفي السابعة والدقيقة الأربعين مساءاً غادر كاباليرو الأوتيل وكاد أن ينهار من الرعب، وبلغ بيته بعد خمس دقائق، وبينما كانت يده تدير مقبض باب شقته الواقع في الطابق الخامس، كان رأسه يموج بخضم من الأفكار المتضاربة، وصار يحدث نفسه قائلاً إنني قنبلة موقوتة تسعى على قدمين. هل يصح أن أبقى قريباً من الناس؟ ودار بخلده أفراد عائلته وعاد ليقول لنفسه لعل الأجدر بي أن أخرج إلى الجبال حيث أنتظر انفجار هذا الشيء اللعين! لا- لا. هذا جنون... لقد كان رودريغز واثقاً من أنه لن يقع أي حادث عن طريق المصادفة. ومهما يكن الأمر فربما كانت هذه القنبلة خدعة زائفة.

ووجد البيت خالياً من زوجته سيسيليا ومن أطفاله الثلاثة الذين تتراوح أعمارهم بين الثالثة والحادية عشرة. واستبدت به الحاجة إلى الحديث مع أحد الناس، فالهواجس عادة تنتابه وصار يحسب حساب كل حركة يتحركها خوفاً من القنبلة، فغادر البيت وذهب إلى شقة قريبة يسكنها أعز صديقين له، وهما فيلكس وزوجته لورديس، وما إن أخذ كاباليرو يروي ما حدث له حتى جاءت سيسيليا قادمة من السوق بالصدفة لزيارة جارتها لورديس وإخبارها عن موضة الربيع الجديد في الأسواق، فسألته عن نتيجة اجتماعه بالرجل الذي عرض شراء البيت، فأجابها مانويل: لقد كانت مثل جهنم، ثم تنهد ونقر سترته بإصبعه فوق المكان البارز وقال: لقد ثبتوا في جسمي قنبلة يا سيسيليا...

الانتظار الصعب

أحست سيسيليا بالحذر يوشك أن يسيطر على كيانها كله، لكنها تمالكت نفسها بسرعة وهي تفكر: إن زوجي يحتاج إلى معونة، لا إلى عويل.

وقص مانويل ما حدث بعبارات مختصرة، وأصر على أن يتفاهم الأربعة كتابة حول جميع الأفكار والتعليمات الخاصة برودريغز وبطريقة التعامل معه، موضحاً شكه في أمر الميغروفون، إذ كتب لهم: من الجائز ألا يكون هناك شيء، ولكن يفترض أنه حقيقي.

وخلال المناقشة المكتوبة التي أعقبت ذلك، انتهى هؤلاء إلى نتيجة واحدة، هي أن كل ما يمكنهم عمله هو أن يحاولوا الحصول على نقود الفدية، وبمعاونة صديق لكاباليرو له صلات وثيقة بأعيان مدينة أورينسي، وضعت الترتيبات لجمع مبلغ عشرة ملايين بيزيتا من البنوك فور فتحها أبوابها في الصباح. وأصر فيليكس وزوجته لورديس على قضاء الليلة مع كاباليرو وأسرته.

وعندما ظهر اليوم التالي، عاد فيليكس إلى شقة كاباليرو يحمل شنتاية سفر من الجلد البني مليئة بنقود الفدية: أوراق مالية من فئة الألف بيزيتا (أقل من عشرين دولار)، وفي الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والثلاثين عصراً رن جرس التليفون. وجاء صوت رودريغز يعطي تعليماته: انطلق بالسيارة ٧٧ كيلومتراً غرباً على طول الطريق الرئيسية بين أورينسي، وفيغو حتى تبلغ بلدة بوينيارس، وبعد ثمانية كيلومترات أخرى، سترى نافورة مياه حجرية وراءها علبة بيرة فارغة فيها تعليمات أخرى. وكان على كاباليرو أن يذهب وحده.

وبعد العصر بقليل أوقف مانويل سيارته قرب نافورة حجرية بسيطة، وكاد قلبه أن يسقط بين قدميه حينما لاحظ أولاداً يلعبون قرب النافورة ويتراششون بالماء وتعلو ضحكاتهم المضحكة فيم كانوا يعبئون الماء في كانتينات بلاستيكية، وأحس بمفارقة عجيبة، الأولاد يضحكون ويلعبون بالماء فيم هو لم يستحم منذ يومين وأعصابه تحترق مع حر آخر النهار.

اقترب من النافورة وهو يسأل نفسه هل عثروا على العلبة ورموها في مكان ما وهم يلعبون؟ ولشدة دهشته وجدها كما وصف له رودريغز تماماً، فأدخل إصبعه وصار يدور داخل العلبة فعثرت إصبعه بشيء ملفوف ومطوي فقربه من فتحتها ثم صار يحاول إخراجه بعصبية فوقع على الأرض، فإذا هو ورقة بيضاء، فضها فقرأ فيها تعليمات جديدة تأمره بوضع النقود تحت صخرة قريبة شرح له الطريق إليها وعرفه أن اسمها هو صخرة بيتهوفن!!...

وكانت هذه الصخرة موجودة فعلاً في تلك المنطقة بمكان قريب؛ وكان اسمها كذلك لأنها تشبه رجلاً جالساً يعزف بيانو.

ولم يصدق مانويل ذلك حينما أخبره به خضري من ضيعة مجاورة وقف عنده ليشتري قنينة ماء، وعندما وصل إليها وكانت بمفازة يتم الوصول إليها من طريق ترابي ضيق يمتد بين أشجار اللوز والزيتون المشلوحة هنا وهناك، وحينما وصل إلى منطقة ريفية ساحرة تطل على جبال بعيدة وقبلها وادي واسع، فيم غيمات صغيرة مشلوحة هنا وهناك بالسماء، أبصر عن يساره عندما نزل من سيارته التي أوقفها وسط مرجة واسعة هي فسحة معشوشبة بين الأشجار، أبصر صخرة كبيرة عند سفح تلة بعيدة عن الوادي، وكان شكل تلك الصخرة غريباً ولافتاً للنظر لمن يراها لأول مرة، قطع مانويل المسافة نحوها مشياً وسط أرض شديدة الوعورة ومليئة بالصخور الصغيرة المتناثرة، وبدأ يحس بتعب هائل وهو يحمل الشنتاية التي تزن ٥ كيلوغرامات، ورغم وزنها الخفيف نسبياً وبسبب الإرهاق الدائم والتوتر سرعان ما أخذ يلهث بشدة. وكان الشريط اللاصق الضيق يضغط على صدره على نحو جعل أضلاعه تؤلمه، فيما كانت علبة القنبلة تحفر لحمه حفراً موجعاً، ثم بدا يعرق، فتذكر تحذير رودريغز من انفجار القنبلة إذا أصابها بلل، وبعد أن مضى متعثراً نحو ٦٠٠ متر، شعر بأنه لا يستطيع أن يستمر، واستبد به الغضب والغيظ والاشمئزاز فعاد إلى السيارة.

تعليمات جديدة

وصل كاباليرو إلى بيته في الثامنة والنصف مساءاً وقد انهارت معنوياته، وبعد ثلاث ساعات رن جرس التليفون وجاء صوت المجرم عبره آمراً: تكلم.. ولانت لهجته قليلاً حين سمع رواية مانويل وقال: سأحاول أن أجد مكاناً يسهل الوصول إليه أنتظر تليفون أخر مني.

وجاء هذا التليفون في الثالثة والنصف صباحاً ليقضي على ما تبقى من أعصاب مانويل الذي لم يتمكن من النوم إلا لساعة واحدة متقطعة وهو جالس على الكنبة إذ خاف أن ينقلب إذا نام بالسرير فيضغط على العلبة بثقله أو ينفصل بغير قصد أحد الكابلات الدقيقة أثناء تقلبه بحالته القلقة تلك.

أنبأه رودريغز بالتعليمات الجديدة التي ستكون في علبة سردين فارغة سيجدها ملقاة إلى جانب آرمة على الطريق وتبعد ثلاثة كيلومترات عن وسط ميناء فيغو على المحيط الأطلسي.

وانطلق مانويل إلى المكان حيث قضى أكثر من نصف ساعة وهو يبحث في غسق ما قبل الفجر عن الآرمة حتى وجدها، وأنبأته المذكرة بأنه بلغ نقطة مراقبة للتأكد من أنه أحضر الفدية، وأمرته بأن يتبع ممراً ضيقاً حتى يبلغ حقلاً تغطيه الحشائش الطويلة، وهناك يضع نقود الفدية في شنتاية رياضية سيجدها أمامه وسط الممر، وعليه بعد ذلك أن يعود إلى السيارة وينتظر ست دقائق! يرجع بعدها إلى الشنتاية ليأخذها وهي ملآنة بالنقود إلى موقع نهائي يلقيها فيه بالقرب من مدينة أورينسي، وهناك يجد لفافة من رقائق الألومنيوم تحتوي التعليمات اللازمة لمنع انفجار القنبلة الموقوتة ونزعها.

تقدم مانويل نحو الحقل الذي أضاءه نور الصباح وسط نسائم باردة لفحت جسمه المتعرق المكدود، وبعد أن قطع الممر الضيق صار وسط الحقل يصارع الحشائش العملاقة التي به وهو يكافح للبقاء واقفاً من شدة الإنهاك، وبعد

بحث قليل وجد الشنتاية الرياضية ووضع بها النقود كما أمره الإرهابي وفي طريق العودة تعثر فصار يشتم ويلعن بلغة لم يتعودها من قبل، وبعد ست دقائق خالها دهراً، عاد ليأخذ الشنتاية وبطريق عودته للسيارة تلمسها فوجد سحابها مثبتاً بعدة لفات من السلك، وبدت له الشنتاية خفيفة على نحو غير عادي وهو يحملها عائداً بها إلى السيارة، وعندما تحسسها بيده اليمنى بدت له لينة بحيث لا تتناسب مع صلابة ملمس رزم الأوراق المالية!..

وقال في نفسه: لقد خدعت.. إن رودريغز أخذ الملايين العشرة، ولكن ما الذي في هذه الشنتة؟

من الجائز أنها قنبلة أخرى قد تنفجر على الفور واستبد به مزيج من الغضب والرعب، وتعالت دقات قلبه المتسارعة، فترك السيارة والشنتاية بيده ووقف على جانب الطريق وأشعل سيجارة وصار يفكر فيم يجب أن يفعل ثم لم يلبث أن رماها من يده بعصبية، وصار يحاول كالمهستر فتح الشنتاية، ولما لم تفتح معه بسبب عصبيته والأسلاك المربوطة حول سحابها، مد يده إلى تابلوه السيارة وأخرج موساً مطوياً وفرده وصار يمزقها فانهالت منها كباكيب من أوراق الجرائد، ولما وجدها فارغة والأوراق مبعثرة على الأرض أخذ يدور على أي ورقة يمكن أن يكون بها تعليمات لإبطال القنبلة، وبعد نصف ساعة من التدوير وفرد أوراق الجرائد، مزق الشنتاية، ودور بكل ثنية من ثناياها عن أي شيء يدله على معلومات، وفي النهاية انهار يائساً على صندوق سيارته الخلفي، لم يكن هناك شيء...

الخدعة

أدرك مانويل أن رودريغز قد خدعه، و أنه كان موجوداً بذات الحقل بين الأعشاب وخرج بعد ذهابه، واخذ المال ورَسْتَقَ أوراق الجرائد بالشنتة، وأغلقها

ولف السلك، إذ انه من المستحيل بخلال ست دقائق أن يكون قد جاء من مكان بعيد ودخل الحقل الذي يبدو كغابة من سيقان الأعشاب الطويلة ثم فعل كل هذا وعاد أدراجه، وأحس مانويل بالألم، فالخدعة كانت متقنة وعلى يد رجل قذر عديم الضمير والإحساس، لم يترك له حتى قصاصة ورق يريحه بها من عذابه، وصار يسأل نفسه كيف يمكن لإنسان أن يكون وضيعاً لهذه الدرجة مع شخص لم يؤذه من قبل وليس بينهما سابق معرفة! ومهما كان رودريغز هذا فقد كان داهية رهيباً، فقد كان من المفروض أن يكمل معه مشوار (المعلومات)، وبما انه لم يكن من المتوقع أن يفعل ما فعله. بست دقائق فقط..، فقد كان يقامر بشدة فلو كان البوليس موجوداً وحاصر المكان لوقع رودريغز بالفخ، لكن جرأته لم يكن لها حدود.

كان التعب قد هد مانويل من قلة النوم، وفقد من وزنه سبعة كيلوغرامات في يومين فقط، وامتقع وجهه بعد أن ملأته شعيرات لحيته غير المحلوقة، وأحس في صدره بألم لا يطاق نتيجة الضغط المستمر من علبة القنبلة.

وبعد أن بلغ مانويل حافة اليأس أراد ركوب سيارته، وداخلها أدار المارش عدة مرات فلم يدر موتورها، نظر إلى عداد البنزين فوجده مملوءاً بعدة ليترات فأدرك أنها قد تعطلت. لم يكن لديه القدرة لمحاولة (تسكيجها) كما كان يفعل عادة فتركها ووجد سيارة تكسي، حتى بلغ ساحة بها عدد من أكشاك التليفون فطلب من الشوفير التوقف عندها.

مد يده وحاسبه ثم نزل من التكسي واستمر فترة طويلة يبحث عن تليفون غير معطل فغالب الأكشاك كانت من أوائل القرن العشرين.

تمكن أخيراً من الاتصال بزوجته وأنبأها ما حصل ولما سألته ماذا ينوي أن يفعل، تهاوى على المقعد الصغير بالكشك وهو يقول لها: لا أدري لم أعد قادراً

على التفكير، وبعد فترة من الصمت سألته: هل ما زلت على الخط؟ مانويل: نعم. سيسيليا: يجب أن نبلغ البوليس.

ركب مانويل تكسي آخر وعاد إلى أورنيسي فيم كانت سيسيليا تبلغ البوليس واشترطت عليهم بالمركز عدم القيام بأي شيء قد يزيد من الخطر الذي يتعرض له زوجها منذ يومين.

وصل مانويل إلى إدارة شرطة أورنيسي في التاسعة والدقيقة الأربعين صباحاً، حيث قابل أندرياس وكارلوس[1] الخبيرين المتخصصين في تعطيل المتفجرات وعضوي وحده تعطيل المتفجرات التابعة للبوليس الوطني.

شيء ما

وفي أوضة تحت الأرض وقف الخبيران يرتديان ملابس سابغة واقية من الحريق ودروعاً من ألياف الزجاج تحمي جذعيهما وخوذات من البلاستيك ذات أقنعة واقية. شفافة لحماية الوجه، وأخذا يفحصان الشريط اللاصق الملفوف حول جذع مانويل، والتقطا صوراً عديدة بالأشعة، ثم مرت ساعات طويلة من الانتظار حتى عودة دورية بوليس قد ذهبت للتفتيش عن لفه السيلوفان التي كان من المفروض أنها تحتوي على إرشادات تعطل القنبلة التي وعد بها رودريغز، وسرعان ما جاء الخبر: لم يجدوا أي تعليمات، ولا وجود لأي ورقة سيلوفان. عندئذٍ انتقل الثلاثة إلى أستوديو للتصوير في دهليز المبنى، وقع عليه الاختيار لأنواره الكثيرة القوية. وحرصاً على حرية الحركة، قرر الخبيران أندرياس وكارلوس أن يخلعا اليونيفورمات الواقية ويعملا وأكمامهما مشمرة، وكان أندرياس رجلاً ضخماً من أهالي غاليسيا، يبلغ من العمر ٣٦ سنة، وقد وقف يفرك ذقنه برهة ثم قال: حسناً يا دكتور، هلا بدأنا العمل في هذا الشيء.

١- الاسمان مستعاران.

وسأله مانويل بقلق: هل سبق لكما أن عطلتما جهازاً مماثلاً؟ فرد الشرطي بهدوء كلا ، وعلق زميله كارلوس مازحاً: إذا انفجر هذا الشيء فسنطير جميعاً إلى العالم الآخر.

وخفض مانويل عينيه المحمرتين، وهز رأسه قائلاً: لنبدأ.

كانت الساعة قد قاربت العاشرة والنصف صباحاً وكان ذلك ثالث يوم والقنبلة معلقة على جسم مانويل. امسك أندرياس بمبضع جراح وبدأ يقطع بخفة طبقات الشريط اللاصق الذي يغطي الصندوق المثبت على صدر مانويل فيم كان الأخير جامداً كالصخر.

وبعد قرابة ساعة من العمل الدقيق بالمبضع تم خلالها قطع بضع طبقات من التوال قال أندرياس بهدوء: ها.. هنا شيء ما!.. إذ كان مبضعه قد لمس جسماً شبيهاً بالزر يحتمل أنه فتيل تفجير، وإذا نزع عنه الشريط اللاصق وحرره، فقد يؤدي ذلك إلى تفجير الشحنة الناسفة فكر أندرياس قليلاً ثم قال لهما: قد يكون هناك فتيل آخر بظهر الجهاز.

لم يكن ينقص مانويل إلا أن يسمع هذا الكلام فأسلم أمره وأصغى للخبير.

كارلوس لأندرياس: وماذا تريد أن تفعل!؟

فتش أندرياس قليلاً بكيس عدته، ثم غاب قليلاً وسط دهشتهما ، ولما عاد كان بيده شيء صغير غامض. بدأ أندرياس يدفع ببطء شديد شريطاً من البلاستيك الرقيق الصلب بين صدر مانويل والقنبلة وقال له: أمسك هذا الشريط بقوة، وادفع الكتلة كلها بعيداً عن جسمك. ونفذ الطبيب السيكولوجي بما بقي له من قدرة أعصاب على الاحتمال، وما إن فصل العلبة الغامضة، حتى أسرع أندرياس بشريط توال وألصق قطعة البلاستيك بالعلبة ثم توجه لمانويل: يمكنك أن ترخي يديك الآن.

ولا يتذكر مانويل على الإطلاق رد فعله عندما قال له أندرياس ذلك، لكن كارلوس وأندرياس يؤكدان أن أندرياس قد كرر الطلب ثلاث مرات، إلا أن مانويل ظل جامداً كالتمثال من غير أن يبدر منه أي رد فعل، وأخيراً وخزه أندرياس بطرف المبضع الخلفي غير الحاد، فصحا فجأة من صفنته.

الحقيقة

وبعد أن أزيلت جميع الشرائط اللاصقة، فحص الخبيران التوصيلات الظاهرة، وقررا أن الحبل الرمادي الملفوف حول رقبة مانويل ليس أداة للتفجير كما زعم رودريغز. وقال أندرياس: سنخلعه الآن، فجمد مانويل في مكانه ثانية بينما راح أندرياس يجذب طرفي الحبل ببطء من ثقبهما على جانبي القنبلة.

ثم جاء دور التوال الملفوف حول صدر مانويل، فقد تولى الخبيران إنزاله على مهل وهو متصل بالقنبلة، حتى استقر على الأرض. وفي الساعة الثانية عشرة والنصف بعد الظهر أي بعد ثلاث ساعات من دخوله إدارة الشرطة، خطا مانويل خارج حلقة الموت وأصبح حراً.

بدأ الخبيران فوراً فحص العلبة وبعد أقل من ربع ساعة جاء الجواب عندما أبصرا على حافتها الخارجية غطاءً فوقها من الجهة التي لم تلامس جسم مانويل، تبين لهما أنه غطاء دبلاوي، فقد كانا غطاءين متراكبين فوق بعضهما، وعندما فك كارلوس الغطاء العلوي وجد تحته أشرطة ودارات كهربائية عرف بعد فحصها، وجهات اتصالها بالكابلات الدقيقة المتصلة بها بأنها قنبلة حقيقية وكانت ستنفجر فعلاً لدى وقوع أي صدمة عنيفة عليها، لقد كان رودريغز صادقاً بتهديده لمانويل عندما حذره من أن إمكانية الإصطدام بشيء تحمل الموت.

وفي موعد لاحق من اليوم نفسه وضع الخبيران الجهاز في حقل خال، خارج مدينة أورينسي وفجروه لاسلكياً، وكان فريق من التحقيق الجنائي قد قدم من مدينة بامبيلونا الكبيرة الواقعة في مقاطعة نافارا، وسط إقليم الباسك الثائر والمشهور بالإرهاب، ليعاينوا هذا النوع الجديد من الإرهاب، فحاولوا إيجاد أي أثر لبصمات عليها ففشلوا، وعندما اقترح أحدهم فك القنبلة ومحاولة إيجاد بصمات داخلها علها تهديهم إلى شخصية رودريغز، لكن أندرياس استوقفهم قائلاً: أعرف أنكم خبراء من مدينة كبيرة لكن هذه القنبلة فيها وصلة خفية هي فخ للذي يحاول فكها وسوف تنفجر، وقد صنعها وركبها ذلك الذي يدعو نفسه رودريغز بطريقة ماكرة بحيث يصعب كشفها. سأله أحدهم باستغراب كيف!

أندرياس: إن حافة الغطاء السفلي الحامل للدارات والمتوضعة عليه الكابلات هو بالواقع كابل ودارة كاملة بذات الوقت ولو شده أحد فسوف يفصله عن الكابل الداخلي المتصل به من تحت أحد الدارات بوصلة مخفية بعناية.

أخذ الخبير الزائر المندهش يتجسس طرف العلبة فلم يلاحظ شيئاً، ثم أخذ يحرك الطرف بإصبعه فلاحظ أنه كابل رفيع مجلتن بعناية فائقة، ثم أضاء بيل صغير جداً وأرسل شعاع ضوئه إلى ما تحت دارة دله عليها أندرياس ومع فحصها بمكبرة شاهد طرف الكبل المخفي فالتفت وقال لهم: إن هذا الرجل لا يستاهل الحبس حتى لو عثرنا عليه!

أندرياس: ولم؟ فأجابه الخبير: لأنه يجب أن يكون رئيساً علينا.

وفي موعد لاحق من اليوم نفسه وضع الخبيران العلبة في حقل خارج مدينة أورينسي وفجروها بوسيلة لاسلكية، بعد أن وضعوا فوقه غطاءاً كاتماً من الفايبر غلاس وزنه عشرة كيلوغرامات، إطار الانفجار إلى ارتفاع أربعة طوابق.

لم يعثر على رودريغز رغم البحث المكثف وعرض عدد كبير من صور المجرمين السابقين على مانويل مرات عدة وبات يعتقد أنه من أميركا اللاتينية، أو مجرم مستجد، رغم أن الشبهات حامت حول عدد من الأشخاص الذين يشبهونه، لكن لم يثبت دليل قاطع على أحد منهم. ويحاول مانويل كاباليرو اليوم أن ينسى محنته البشعة التي استمرت ٤٣ ساعة متواصلة، ولكنها تركت في نفسه ندوباً عميقة، من آثارها كما يعترف هو نفسه: إنني أصبحت شديد الحذر من الغرباء، ويضيف بأسف: علي أيضاً دين مقداره عشرة ملايين بيزيتا يجب أن أسده.

لؤي الفردوسي ٦-٣-٢٠٠٦.

عريف المارينز

مـرا أسـبوعـان والـرجـل محتجـز بمكـانـه تحـت الـصخور علـى طـرف الـوادي السحيق، وقـد أدرك أن أحـداً مـا لـن يـأتي لنجدتـه، لـكـن شيئاً مـا في أعماقـه كـان يصرخ بـه — أريد العيش.

كـان عمر عريف المارينز كـارل بيل ٢٢ عاماً وهو من فرقة الرماحة[1] بالبحرية وبذلك اليوم الحار كـان في ورطة كـبيرة لم يكـن يظن أبداً أنه سيقع بها.

على جرف الوادي الـكـبير الـسـاكـن ووسـط الـهـدوء الغريـب الـذي لا يقطعـه سوى زقزقة بعض العصافير هنا وهناك وصوت ماء جار بعيد، بدأ كـارل يزحف تحت صخرة كبيرة ليهرب من حر فترة بعد الظهـر، فيمـا كـان كـاحلـه ينـبض بضربات من الألم عند كـل حركـة يقوم بها، أما يده اليمنى فكـانت تغزه كـل حين إذا حركها بحركـة مفاجئة، وبـدا وجهـه ممزقـاً بعـد أن عـبر منطقـة مليئـة بنباتات الشوك والزعرور البري فشوّهت وجهه وأعطته منظر من خاض معركـة.

توقف لحظة ليلتقط أنفاسه فألقى نفسه عالقاً بأعلى جرف صخري عمودي شديد الانحدار كـأنه الحائط وقد أحاطت به الجدران والجـروف الـصخرية مـن كـل النواحي، ألقى نظرة إلى الأسفل فوجد الوادي يمتد تحته وأرضه الـصخرية تنبسط، تزينها حجارة صغيرة وتتناثر الأعشاب والنباتات البرية فيها.

---

[1]- حملة البيارق بالاستعراضات العسكرية، وأثناء الاحتفالات الرمزية برفع بيرق الفيلق وطويه وترتيبه، وبما أنه يرفع على رمح فقد درجت العادة على تسميتهم بالرماحة مما يعني أنهم ضباط تشريفات.

وطوال الأيام الماضية كان يحاول الوصول لأعلى الحائط عساه يجد طريقاً بين الصخور يوصله لمخرج من علقته ولكن عبثاً، وكان مع مرور الأيام يدرك أن حتى قدرته على المحاولة سوف تتلاشى ويهده التعب، كان أكثر ما يخشاه هو أن يصل لحد الإستسلام للواقعة مما يعني طيه بالنسيان بهذا الوادي وموته من الجوع والعطش والتعب.

انتبه إلى شيء صغير يتحرك أسفل جسمه فحدق به فألفاه نملة من النوع الكبير كان طولها حوالي ١,٥ سنتيمتراً، ولم تلبث أن تبعها عدد أكبر من النملات، كانوا يمشون بخط مستقيم ويحومون حوله، أمسك بإحداها وتأملها، ودفعه الجوع لوضعها بفمه! ثم بدأ يمضغها، تكسرت قشور حراشفها بفمه مفرقعةً بأصوات نخرت رأسه نخراً، وبدا له طعمها مراً، فأخذ واحدة أخرى، ثم ما لبث بعشر دقائق أن أكل ما يقارب العشرين منها.

أحس بمرارة بحلقه ولسانه وبدا له وكأنه قد أكل وجبة من الحنظل، لكنه كان مجبراً فمنذ أيام عديدة لم يذق طعاماً وقد فتك به الجوع حتى صار وجهه يبدو كالجثث المتربة.

بعد عن المكان وجرجر نفسه إلى ناحية أكثر ظلاً تحت الصخرة ثم رمى بنفسه على كومة من الأعشاب الطرية والأقل جفافاً وأراح ظهره المتعب ورجليه اللتين تنتفضان بالتعب وإحساس التعضيل، فرمى بهما أسفله واستلقى وتمنى أن يظل كذلك إلى الأبد، لكنه لم يلبث أن أدرك أنه لا يمكنه إلا أن يتابع ما بدأه، فإذا نام بذلك المكان فحركة واحدة منه بالليل قد تلقيه أسفل الوادي.

خارج الوادي كانت سيارته وفركونة التخييم تقبعان بلا حراك، وهو يدرك الآن أنه إذا لم يسرقهما أحد فقد كانا قرب نهر صغير إذ ربما يعثر عليهما أحد ويبلغ السلطات عنه، أو ربما قوة حراسة الغابات قد تجدهما أو

تهتدي له فيما بعد ، لكنه قدر الإحتمال الأسوأ فبعد شهر كامل من فقدانه حتماً فإن كل من كان يعرفه قد فقد الأمل نهائياً بالعثور عليه حياً.

خارج المعسكر

في الثلاثاء ١٤ حزيران ١٩٨٣ كان كارل يتمشى خارج معسكر للتخييم الصيفي اشترك به كسراً لملل الحياة، لكن المفارقة أن المعسكر نفسه قد أصابه بالملل فالطبيعة هامدة ساكتة ومل من ورق الشدة والألعاب الرياضية والسيرنة حول موقع المخيم، كان كارل جندياً جسوراً من عساكر المارينز ممكن أن يفعل شيء بأي وقت، وحين انضمامه للمارينز ظن أن ذلك سوف يجعل حياته مليئة (بالآكشن)، لكن الواقع كان غير ذلك فحياة المارينز مملة وصعبة بأغلب أعمالها، أما هو فقد أسندت إليه أكثر الأعمال رتابة – أعمال التشريفات – تخيل نفسه يرحل لبلدان عديدة يتبختر ببدلة البحارة الأنيقة لكنه اكتشف أن الالتحاق بالجيش ليس نزهة نظر حول المعسكر فألقى المنطقة محاطة بالتلال التي هي سفوح متدرجة من مناطق جبلية وعرة، كان المعسكر قرب مدينة سان دييغو الحدودية بين كاليفورنيا والمكسيك، بأقصى جنوب غرب الولايات المتحدة، وكان المعسكر يقبع قرب سد كبير ينحدر من أسفله للجانب نهر صغير يتدفق منساباً بين الصخور الوعرة، وحينما نظر إليه ألفى المنظر مغرياً فقد أراد أن يعرف أنّى ينتهي النهر وماذا يوجد خلف تلك التلال التي كانت تتوازى مع النهر وتحف به أينما سار.

ترامت أشجار وشجيرات الصنوبر على حافة الوادي، ولما بدأ بالسير بالمناطق المتعرجة خارج المعسكر صار جليد الربيع الضعيف يتكسر تحت قدميه مصدراً قرقعاته الخفيفة مما ذكره بموطنه الأصلي بميشغان بأقصى شمال الولايات المتحدة.

بدأ الوادي يضيق مع سيره مغرياً إياه بالمتابعة فكان كلما مشى وجد نفسه محصوراً بين التلال والوادي الذي يضيق تباعاً، وبعد حوالي الساعتين وجد نفسه يسير على درب متعرج وعر وضيق يتلوى بين الصخور الحادة وكان واضحاً أن ألوف البشر قد ساروا عليه منذ أزمان سحيقة فقد كانت أرضه مختلفة عن باقي الجوانب حولها فهي ممهدة وحجارها صغيرة أو رملية، ويتناثر هنا وهناك بحص صغير أملد، من كثرة الدوس عليه، توقف قليلاً عدة مرات ليستريح وحينما كان ينظر حوله كان يحس بالبعد عن الناس والوحدة وقد بدا هذا الأمر لذيذاً خصوصاً بعد أيام طويلة من الإختلاط معهم بالمعسكر وقبلها حياته مع باقي الضباط والعساكر المليئة بالأوامر والنواهي.

ملأ رئتيه بالهواء النقي المشرب برطوبة ورائحة النهر الآتية مع النسائم التي تهب عبر المغازات. استمر كارل يسير حتى وصل لكوع قوي كان الوادي يستدير ليمتد خلفه فيم انقطعت التلال ليظهر جبل حاد عملاق بخلفية المنظر، وبدأ تشويقه لمعرفة إلى أين يمتد الوادي يزداد، فاقترب بحذر من ذلك الكوع متمسك بالصخور الناتئة، وحانت منه التفاتة للأسفل فوجد الوادي قد أصبح عمودياً وشاهقاً بطريقة لم يلحظها من قبل أما النهر فقد بدا تحته تماماً، وما أن قطع الكوع حتى تبدى له وادي آخر شديد الانحدار وقد نمت على جانبيه الغابات متسلقة صخوراً وعرة، وهنا تغير المنظر فقد اختفت التلال وحل محلها جبال حادة الأطراف، وحصر النهر بقناة ضيقة وصار صوته الهادر يصل من بعيد وهو يعبر أرضاً غطتها الحجارة بالكامل فبان من تحته سلسبيلاً نقياً كالكريستال يخترق جنة خضراء موشحة بعدد هائل من الأوراق بلون الحنة والورود الصفراء النابتة على أغصان بعض الأشجار وهنا وهناك تناثرت ورود بلون الزهر البنفسجي. لفت نظره قلة العصافير، لكنه فهم السبب فقد لاح عن بعد صقر يحوم قرب قمة جبل وتناهت إلى سمعه أصوات صرخات صقور أخرى

حادة ومدوية الصدى بين فلقتي ذلك الشرخ الطبيعي العملاق.

أحس بالتعب إثر عبور الكوع فحاول إيجاد مكان ليستريح به، إنما بدا ذلك أصعب مما تخيل، إذ لم يجد أي صخرة أو علوة أو دكة للجلوس عليها وإنما كانت تقابله أطراف مكورة بكل مكان أو مبوزة، عدا عن أن الحائط الذي بجانبه كان شبه زاوية قائمة.

استمر يسير بحذر قرابة النصف ساعة حتى أحس بتعب شديد وتعضيل بكتفيه ورجليه، وعندها شاهد أمامه على بعد ما يقابل ٥٠ متراً دكة حجرية تعلوها عريشة فبدا له المنظر رائعاً، فبدأ يتساحب تجاهها ممنياً نفسه بالقعود عليها وإسناد ظهره للعريشة وبعد عدة أمتار لاحظ زاروبة ماء تسيل وكان قد بلغ العطش منه مبلغاً شديداً فغب منها لخمس دقائق حتى ارتوى، وتابع طريقه وعند طرف صخرة ملساء وضع قدمه ليرفع نفسه قليلاً للأعلى فزلت قدمه فجأة على الطرف الأملس لحد الطريق وهوى للأسفل.

لوح بيديه بسرعة عساه يمسك أي شيء يمنعه من السقوط فوقعت يداه على فرع شجرة تنوب صغيرة فتوقف وهو متدلي للأسفل وقد أحس بخطر السقوط، وبعد لحظات تبين أن هناك طريقاً آخر تحته مخفياً بين الأشجار لم يكن قد لاحظه من قبل، بدأ يصعد للأعلى حتى عاد لقرب الدرب فأمسك بكلتا يديه طرف صخرة غرانيتية وشد نفسه للأعلى ولم يلبث أن انزلق ثانية ليهوي نحو الأسفل. وبلحظات حط جسمه بعنف هائل على طرف الطريق السفلي فتلقى الصدمة بجانبه الأيمن، ولم يلبث أن أطلق صرخة مدوية رن لها الوادي أتبعها بأنين مكتوم قوي، تلفت حوله فشاهد نفسه ليس على طريق كما كان يظن بل على نتوء طويل يشبه الإفريز بارز من الجبل ومحاط بالصخور حاول رفع نفسه فأحس للتو بألم رهيب يعصف بكاحله الأيمن ويده اليمنى، فسحب نفسه للخلف وأسند ظهره للحائط المليء بأوراق النباتات الذابلة واليابسة فأحس

بالراحة لأول مرة ما يقارب الساعتين ونصف لكنها معجونة بالألم.

في عش الصقر

بقي كذلك لما يقارب الساعة ونصف ثم انتبه إلى أن الألم قد خف وأنه لم يعد يستعر إلا إذا اصطدمت يده ورجله اليمنى بشيء أو قام بجهد عليهما، فاتكأ على جنبه الأيسر ولاحظ أن وجهه مبلل فظنه العرق فمسحه بكمه وإذا بالكم يتمشح بالدماء، فحص وجهه فألقاه موشحاً بالخدوش فاستغرب فهو عندما سقط لم يصطدم وجهه بالأرض، رفع رأسه للأعلى فأبصر نباتات من الزعرور البري والأشواك مختفية بين أجمة الأشجار ولا تظهر إلا لمن يدقق النظر بها، فعرف أنه لدى سقوطه قد انسحب عليها دون أن يحس لشدة تركيزه على خطر وقوعه للأسفل.

نظر أمامه فلاحظ المفارقة العجيبة فقد كان الإفريز الصخري العريض البارز يطل على منظر طبيعي خلاب بميلان زاوية وقد بدت الجبال تحيط بالمكان، فيم إنساب النهر متعرجاً ليخرج من الوادي عن بعد ملتفاً إلى جهة مجهولة.

حاول كارل أن يقيس المكان فوجد الوادي يمتد إلى ما يقارب الستة أو سبعة كيلومترات إلى منطقة جبال جرداء عالية ينتهي عندها ولم يكن قد قطع منه سوى ما يقارب الكيلومتر ونصف من شدة الوعورة، ولام نفسه على هذا العمل فصار يحادث نفسه: لم أتيت إلى هنا لوحدك؟ ولكنه ضحك فوراً عندما تخيل أصدقائه الجبناء وهو يعرض عليهم القدوم إلى منطقة موحشة كهذه، فحتماً لم يكن أحد ليهتم بعرضه ذاك عاد لمحاولته قياس عرض الوادي حسبما تعلم بالطرق العسكرية بالتقدير، فوجده يقارب ثلث الكيلومتر بعد أن حسب عرض كل شجرة وبالتالي المساحة التي تحتلها.

العلقة

اقترب الوقت من العصر وبدأت حرارة الجو تخف تدريجياً ، لم يكن يحمل سوى شنتاية بها غذائه وبعض قطع الحلوى الجافة ، وجاكيت وكانتينا ، إضافة إلى كيس النوم وقنينة وسكي، أراد لبس جاكيته ولما حاول ذلك اكتشف أن يده اليمنى مجروحة فمزق تيشيرته وسكب عليه قليلاً من الويسكي ولفه عليها ، أما رجله فبعد ما فحصها ألفاها قد بدأت تتورم لدبل حجمها العادي أما لونها فقد بدا قرمزياً من شدة الرضة.

لبس كارل جاكيته وقعد يفكر بأن زملاءَه بالمعسكر والذي كان يسمى لتون لن يخطر ببالهم غيابه قبل صباح الغد لأنهم قد لا يلاحظون غيابه وإذا حصل فسيظنون أنه قد تأخر بالرجعة ، بدأ كابوس يضغط عليه مع اقتراب فترة الغروب بأنه قد يعلق بذلك المكان يوماً آخر حتى يتبين رفاقه غيابه ، ولما فكر بأنهم قد يعتقدون أنه قد ذهب (لسيران) باليوم التالي بدأت مخاوفه تزداد ، نظر للأعلى فشاهد الجرف عالياً لحوالي العشرة أمتار فحاول الوقوف والصعود إليه ، لكن ألم رجليه منعه من ذلك فكر بأن يأكل لكنه لم يكن جائعاً. صرخ عدة صرخات استغاثة رنت بالوادي، ثم أطلق عبارات استنجاد طويلة تعمد إطالتها ورفع طبق صوته بها كالسوبرانو انتظر ثم انتظر، ولا جواب....!

ومع حلول المساء بدأت درجات الحرارة تزيد من انخفاضها لكنه لم يحس بالبرد ، فصار يحدق بالجبال المحيطة به وقد بدت ككتل عملاقة رمادية ويحاول أن يحزر من سيتذكره أولاً. لكنه لم يصل لنتيجة. استغرق كارل بتفكير عميق لم يستفق منه إلا عندما انتصف الليل فأحس بلسعة برد قوية تطرق جسده من خاصرته ، لف نفسه وتكور عساه يحس بالدفء لكن البرد عاد مع نسمات حادة ، ففتح كيس النوم وانسل داخله ، ثم تذكر قنينة

الويسكي التي كان أحضرها معه، فأخرجها وصب لنفسه بغطاء بزبوزتها[1] قدحاً وشربه، ثم عاود الكرة عدة مرات، وأغلقها ثم تمدد محاولاً النوم، ولم يلبث أن أحس بالدفء، وبعد قليل غلبه التعب والنعاس فاستغرق في نوم خفيف.

الشمس

طلعت الشمس على كارل باليوم التالي لكنه لم يحس بها وعند بداية الصباح غطته بالكامل وبعد أن كان نومه خفيفاً ومتقطعاً خلال الليل، أثر به دفء الشمس وأعطاه حرارة غامرة عند الصباح فهدهدته زقزقة العصافير فاستغرق بنوم عميق هانئ.

بعد منتصف الصباح اقترب منه جسم غريب يتحرك بين الأحراش فانتبه على صوته وتلفت حوله فتذكر ما جرى له، ثم أعادت الحركة انتباهه إليه فأخذ يراقب حرشاً صغيراً قريباً، وإذا بالحركة تشتد متشنجة للحظات ثم خرج من الدغلة سنجاب أميركي أحمر كبير بدا يحدق بكارل بنظرة تشبه نظرات الأطفال الصغار فضحك ثم اقتعد وكانت حركته كافية لجعل السنجاب الكبير يختفي.

مسح كارل الوادي بنظراته عساه يشاهد أحد يمر بتلك البقعة لكن المكان كان خالياً وبعد عدة دقائق بدأ يطلق صرخات استغاثة اتبعها بنداءات طويلة ممطوطة، ظل كذلك لعدة ساعات حتى تعب ومع اقتراب حر الظهيرة الحارقة عم الهجير الوادي كله لكن مع نسمات منعشة كانت تتتالى بين الحين والآخر قادمة من جهة النهر مضفية جواً من الانتعاش على المكان.

---

1 بزبوزتها: أي غطاؤها الخاص.

حاول الوقوف والتسلق لكن عبثاً إذ لم تكن رجله اليمنى قادرة على حمله، أما يده اليمنى فقد كانت تؤلمه بشدة لدى محاولته التقاط أي شيء . عند العصر أحس بالجوع فأخرج قليلاً من اللحم المقدد الذي يحمله وأكله مع تفاحة، لقد مضى عليه ٢٤ ساعة لم يذق بها أي طعام، ومع ذلك فقد كفاه ما تناوله، وبدأ يرتب المكان حوله حتى يكون مريحاً فكوم القش وأوراق الأشجار والأغصان الرفيعة حتى شكل ما يشبه المقعد وجعل المسند هو كيس النوم، أستغرقه هذا العمل حوالي الساعتين فقد كان عملياً لا يستطيع تحريك جانبه الأيمن، وقد اتسمت حركته بالبطء الشديد وهو يتوقف كل قليل كي يصيخ السمع عساه يسمع أي إشارة أو حركة تدل على وجود إنسان قريب منه. لكنه اكتشف أن ذلك كان أوهاماً.

ثلاثة أيام مضت وكارل يكرر هذه العملية يحاول الصعود إلى الطريق فلا يستطيع ثم يستريح ويرسل عبر الوادي صرخات استغاثته، لكنها كانت تذهب مع الرياح.

باليوم الرابع قرر أن يفعل العكس وكان الطعام قد نفذ منه وكذلك الماء ولم يبق سوى القليل من الويسكي وكان لا يستسيغه بلا ماء. فقرر النزول باتجاه النهر وتجريب حظه، واعتبر أنه قد يجد طريقاً أسفل الوادي كذلك يمكنه الشرب وملء الكانتينا. كان هناك زاروبة صغيرة قريبة من مكانه لا تتسع لمرور إنسان لكن الأشجار الصغيرة نبتت فقدر أنه إذا تمسك بها وعبرها فقد يجد طريقاً للنزول إلى الأسفل اقترب من أولها فوضع رجله على حافة صخرية وأمسك بأول شجرة، ثم بدأ ينقل نفسه من واحدة لأخرى، فيم بدا منظر الوادي أمامه يتقلص تدريجياً كلما التفت لأنه كان ينزل باتجاه الأسفل.

وقرابة العصر كان قد قطع بضعة مئات من الأمتار نزولاً واقترب من النهر حتى بات يعلوه بعدة أمتار. وبينما كان يفتش على محل يستريح به لاحظ كومة

كبيرة من أوراق الأشجار اليابسة المتراكمة عبر السنين فقرر القعود عليها، وما أن فعل حتى زلق جسمه واندفع نحو الوادي وهو يزحط فوق الأكمات، وما هي إلا أقل من دقيقة حتى وجد نفسه يقع من فوق رابية إلى مياه النهر البارد فجأة.

النهر البارد

بدا أن النحس قد لزق به فقد سقط بالضبط وللمرة الثانية على جانبه الأيمن فأحس بالألم ينفجر ويعصر يده عند اصطدامها مباشرة بحجر أسفل قاع النهر والذي اكتشف لدهشته أنه ليس عميقاً كما كان يظن. وبينما كان التيار يجرفه بين الصخور الملساء لاحظ أن ارتفاع النهر يقارب المتر ونصف وأنه لولا التيار الجارف لاستطاع الوقوف بالمجرى والتخويض به، لكن قوة الماء كانت تكفي لدفع زورق كبير، استمر التيار يحركه كما يشاء حتى صادف مخاضة مدومة بالماء فاقترب منها وجاهد كي يسبح إليها لكنه فشل بذلك بينما جرته إليها دوامة قوية من الماء ملقية به داخل لجتها. وما أن أحس بضغط الماء يخف عنه حتى جاهد للوصول للضفة وكانت الجنوبية، وهناك ارتمى كالقتيل متعباً بعد أن جرفه التيار ما يقارب الكيلومترين، فلاحظ أنه قد غادر القسم الأول من الوادي واقترب من منطقة الجبال العالية التي تظهر عندها نهايته.

بقي كارل لمدة يومين آخرين وهو منسطح تحت مجموعة من الأشجار وقد بدأ منظره يتغير فهو لم يستحم أو يحلق ذقنه كما أضناه الجوع أما طريقة النوم على الأرض فقد جعلته يحس أنه مكسر أكثر مما هو مستريح، لم يكن ذلك القسم من الوادي أكثر بشرية من الأول بل لم يبدو أن أي أثر للحياة البشرية به حاول جاهداً أن يبصر بين الأشجار أي أثر لمعسكر تخييم أو أي أغراض استعملها البشر متروكة لكن الوادي كان طبيعياً بالكامل لدرجة

أثارت دهشته وغيظه بآن معاً فاستغرب كيف لم يأتِ أحد بهكذا مكان قبله.

الشفق

باليوم السادس عرف كارل أن أحداً ما سوف يأتي للبحث عنه فكميونه الصغير وفركونة التخييم الخاصة به ما زالا مصفوفين على جانب الطريق، وخطر بباله أنه من المستحيل ألاّ يكون أحد قد انتبه إلى اختفائه فخمسة أشخاص يعرفونه مباشرة.

شرب من النهر عند الظهيرة ثم زحف عائداً إلى مكانه وحانت منه التفاتة نحو الأعلى فانتبه إلى أن هناك ممراً بين الصخور يتعرج ممتداً بين طيات الجبل وكان هذا الممر لا يرى إلا بزاوية لأن الأشجار تغطيه وتتعرج حوله، فأمضى يومه كله محاولاً الصعود إليه لكنه لم يقدر فقد تورمت رجله لحد بعيد حتى بات يشك بأنهم إذا أنقذوه فسيقطعوها له خشية انتشار الغرغرينا وتسمم الجسم كله، وبات عاجزاً عن تحريك نصفه الأيمن، كما أن الفاصل العمودي الحجري بين ضفة النهر والممر كان بغاية القسوة.

أربعة أيام مضت وكارل يحاول تسلق الجرف باتجاه المنفذ لكن بلا فائدة، أقعده الجوع والتعب، إذ نفذت قطع الحلويات التي كان يخبئها ويأكلها على فترات متباعدة وبعد عشرة أيام أخرج قنينة الويسكي وشرب آخر ما بها وكان قدر غطاء بزبوزتها بمرة ونصف، فاستطاع لآخر ليلة أن ينعم ببعض الدفء وبعض النوم بعز برد الليل، ومع إشراقة شمس اليوم العاشر وبعد أن بدأ النهار يدفأ، كان كارل يحاول كسر عدد من الأغصان الصغيرة لعمل سرير مريح وهو عمل يفعله منذ ثلاث ليالي وقد أوشك بحركته البطيئة أن يكمله، وفجأة تناهى إلى سمعه وسط طقطقة الأغصان صوت حفيف غريب..

توقف لفترة وصار يحاول التقاط أي صوت غريب فصار يسمع صوت حفيف يقترب ويبتعد كل حين فجلس وحاول أن يحدد مصدر الصوت.. وللتو أدرك أنه يستمع إلى هليكوبتر..

أصابته نوبة من الهستيريا فترك كل شيء وهرع يحاول الوقوف على رجله السليمة وما أن تمكن من ذلك مستنداً على جذع شجرة حتى اقترب صوت الهيلكوبتر وكان واضحاً أنها تطير ضمن دفتي الوادي وتقترب من منطقته بالذات، بدأ يقفز نحو ضفة النهر فيما صوت الطائرة يقترب، اعتراه خوف شديد أن تمر قبله، وما إن وصل إلى الضفة حتى أحس بفرح شديد فقد كانت تبعد عنه حوالي المئتي متر، فقرر أن يقف ساكناً ويلوح لها عند ما تقترب لمدى خمسين متراً، قدمت الطائرة نحوه كأنها فلوكا تشق البحر وسط ضباب الصباح الخفيف الذي يتلاشى وفجأة لاحظ أنها لا تسير بخط مستقيم بل بزاوية وقدّر أنها إذا استمرت هكذا فستمر فوقه قرب سفوح الجبل العالية، فأراد أن يبدأ بالتلويح لكنه لاحظ أن لون الطائرة برتقالي فاتح ولما أمعن النظر بها قرأ شعاراً عريضاً بالأسود من كلمة واحدة (rescue) - إنقاذ – استمرت الطائرة ترتفع نحو الأعلى فصار يلوح بجنون ويصرخ حتى آلمه صدره بشدة، لكن الكتلة البرتقالية الفاقعة استمرت تطير دونما أدنى مبالاة به، ثم قطعته واستمرت تطير قاطعة الوادي تاركة إياه ليصرخ كالمجانين ويضرب ضفة النهر بأحد الفروع بغيظ يحرق الأعصاب حرقاً.

انهار على الضفة وهو يحدق بالماء بحرقة وألم وبدأ يفكر لأول مرة بأنه قد نسي أن عليه الإعتماد على نفسه للخلاص من ورطته الرهيبة.

العبور

لعشرة أيام أخرى ظل كارل يحاول إيجاد مخارج عبر الصخور فزحف عدة مرات نحو شقوق كبيرة اعتقد أنها ستنقذه وتقوده خارج الوادي، لكنه دائماً كان يفاجأ بأن هناك صخوراً كبيرة تسد هذه المخارج عند نهاياتها، أو أنها مجرد زواريب خادعة ضمن الجبل، وهو لا يستطيع إلا إبصار طرفها فيجره الأمل الخادع لها، حتى أنه ذات مرة عثر على حبل قديم من الكتان المهترئ تركه متسلقون أتوا إلى هذا المكان قبل عشرات السنين، فلما قاسه وجده طويلاً كفاية ليعمل منه أنشوطة (كاوبوي) تساعده على الخروج من مأزقه، فأخذه وتسلق إحدى هذه الزواريب فلما وجد صخرة كبيرة تسد الطريق بمنتصفه لوح الأنشوطة وحاول رميها ليطوق بها طرفاً حاداً فوق تلك الصخرة الملساء ثم يزحف فوقها ليقفز لخلفها ثم يتابع طريقه، لكنه اكتشف بعد عشرات المحاولات التي هدت له ما بقي من حيلة أن بطولات الكاوبوي هذه تحدث بالسينما وإلا فيجب عليه أن يكون كاوبوي حقيقي ليفعلها، إذا فشلت محاولاته كلها.

عصر أحد الأيام وبينما كان يستريح قرب ضفة النهر بعد أن شرب منه كمية هائلة من الماء ليعبئ بها معدته الفارغة، كان قد ابتعد عن مكانه الأخير بعدة مئات من الأمتار، فألقى بنفسه على شاطئ الضفة وصار يقول لنفسه: لقد مر علي عشرون يوماً وأنا هنا آكل النمل والأعشاب فهل يقدر لي الخروج؟ إنني متعب.

لاحت منه التفاتة نحو نوع جديد من الأشجار لم يصادفه من قبل بالوادي فلاحظ أن ورقه كان عريضاً ومتعدد الألوان بين الأخضر الفستقي إلى الغامق إلى الكريما حتى أن بعض أوراقه بدت من أطرافها بلون الحناء وفجأة لاحظ شيئاً يتدلى من بين الصخور القريبة على الضفة الثانية دقق النظر به فوجده

حبلاً طويلاً مضفور الألوان من النوع الذي يستعمله متسلقو الجبال، وألفاه مربوطاً بعدة مواضع بشناكل من البولاد فأدرك فوراً أن هذا المكان ليس مهجوراً بالكامل كما كان يظن بل إن عدداً من الناس قد سبقوه إليه بالفعل.

عرف أن عليه أن يعمل عملاً جنونياً فقد كان عبور النهر سباحة بحالته المزرية نوعاً من الجنون، لكنه سأل نفسه: ما هي فرصتي بالنجاة إن بقيت هكذا منذ عشرين يوماً لم آكل طعاماً حقيقياً، إذ أضعت هذه الفرصة فقد أصاب بانهيار أكبر مما أنا عليه الآن، أحجم قليلاً عن محاولة عبور النهر الهادر وخشي أن يجرفه التيار ثم عاد يحدث نفسه: ربما يجرفني التيار إلى مكان فيه عمار وينقذني، لكنه تذكر الصخور الحادة والكبيرة بالمجرى، وقدر أنه حسب قوة جريان الماء فإن ضربة واحدة بها قد تكسر ضلوعه، أو أي عضو فيه.

كان لا بد من المغامرة فقرر بتصميم رهيب أنه وقبل نهاية هذا اليوم فهو سيحصل على هذا الحبل اللعين حتى لو فقد حياته. وقف عند حافة صخرية ورمى نفسه وسط الأمواج لم يكن النهر عريضاً إذ كان عرضه يقارب الثمانية أمتار وسطياً، وللتو بدأ يجدف بين الأمواج فلاحظ بسعادة هائلة أن تياراً بدأ يجرفه نحو الضفة الثانية ملتفاً به حول عدد من الصخور الملساء المنثورة قرب بعضها بوسط المجرى وعندما اقترب من الضفة الثانية بحوالي الثلاثة أمتار بإحدى اللحظات بدأ يجدف بيديه بجنون وبكل ما أوتي من قوة، فوصل لقرب مخاضة سريعة الماء لكنها قليلة العمق فعثرت رجلاه بالقاع ولدهشته لم يكن عميقاً فتمكن من الوقوف ولم يكن عمق الماء سوى ثلاثة أرباع المتر.

شق طريقه والماء الدافق بقوة يصل لخصره حتى وصل للضفة الأخرى، وقد أعطته برودة الماء نشاطاً عجيباً وقوة هائلة، فقرر استغلالها وللتو بدأ يتسلق الجرف المائل حتى وصل لموضع الحبل، فامسكه وعاد للتسلق وقرب الغروب

أوصله لدكه قعد يستريح عليها، ولما مد بصره بين الأشجار وجد أنها جزء من طريق ضيق جداً يبلغ طوله حوالي الثمانين متراً وهو ينتهي بطريق مسدود من الجانبين فاسقط بيده وانهار من شدة التعب والعطش وغاب بنوم عميق.

الزمن الماضي

لم يكن كارل يعرف أي شيء بالحياة قدر أنه من المارينز، فقد والدته وهو بالخامسة، وكانت ردة فعل أبوه المصدوم ببساطة أن تخلى عن العائلة لأنه عجز عن الاهتمام بها لوحده، فتربى مع أخيه وأخته ببيت جدته، كان يحبها كثيراً وقد خشي مراراً بمحنته هذه أن يكون سبباً بحزنها وقلقها إذا طال غيابه أو مات.

ولما أفاق بصباح اليوم التالي صارت تتقاذفه هذه الأفكار، وفيم هو مقتعد بين الأشجار لاحظ أن مستوى النهر قد زاد وكذلك سرعته وقد ازداد صوت هديره لدرجة مخيفة ومع مرور ساعات ذلك النهار باتت محاولة العودة ضرباً من الجنون المطبق، اختفت الصخور عند المجرى الرئيسي وكذلك الضفاف الحجرية وصار النهر أضعاف حجمه القديم أو بالأصح الطبيعي، وبعد منتصف النهار بقليل صار يهدر بجنون وهو يصطدم بالصخور الكبيرة التي بقيت بالمجرى وبالضفاف الحجرية الضخمة التي كان يتطاير مائلاً عليها منثياً ليتحدب فوقها عائداً إلى المجرى الأصلي، تذكر كارل السد وفهم للتو أن الماء المتجمع خلفه قد أطلق بغرض توليد الكهرباء، فتساءل هل يا ترى يوجد خلف هذه الجبال الكبيرة مزارع ترويها مياه السد.

لكن تلك الجبال بدت بعيدة المنال بكيلومترات عديدة وبحروف ناتئة منها لعرض النهر تسد عليه الطريق بكل المنافذ.

سبعة أيام بلياليها قضاها وهو على الضفة الشمالية يراقب النهر الذي بدا عاجزاً عن عبوره فكلما فكر في ذلك كانت نظرة واحدة للنهر الجارف تكفي لإعادة صرف النظر عن هكذا فكرة، فقد كان واضحاً أنه سيغرق لدى أول محاولة فتعبه الشديد لم يكن ليسمح له بالسباحة وسط ذلك الموج العنيف.

الانحسار

باليوم الثامن بدأت مياه النهر تنزل تدريجياً لكنها لم تعد كما كانت، فانتظر يومين بدون فائدة، وباليوم التاسع والعشرين لعلقته بالوادي كان اليأس قد أخذ منه كل مأخذ فاقترب من إحدى الممرات الجبلية الوعرة ونظر عبر شق صغير بين الصخور فشاهد الممر يتعرج بين مفازات الجبل وقد تناثرت على أرضه كسرات الصخور الغرانيتية الصلبة وقد نبتت بينها الأعشاب والورود، فأخذ حجراً غرانيتياً حاداً وأخذ يحاول تكسير الممر لفتحه.

أيام طويلة مضت وهو يتنقل ببطء بين النهر ليغب من مائه ويرجع إلى الشق وبطريقه كان أحياناً يلتقط بعض النملات ليأكلها وقليلاً من الحشيش، وبعد أن تمكن من حفر الممر صعد عبر المغازات فاخترق الجبل، حتى وصل لأطراف مجموعة من التلال.

وبينما كان يجتاز أحد المنعطفات أحس بدوخة شديدة فوقع أرضاً بالحال وهو يتنفس بشدة والألم يعتصر صدره وسيطر على عقله كابوس بأنه قد أصيب بنوبة قلبية، فقضى نصف نهار وهو يتظلل بأحد زوايا الجبل، ثم تابع طريقه، ولما كان يحاول نزول منحدر شديد عند أحد التلال تناهت إلى سمعه أصوات فأصاخ السمع فإذا بها أصوات حقيقية وليست هلوسة، فصرخ بصوت

متعب: ساعدوني.. ساعدوني، شابان أتيا لقرب مكانه ومن على مرتفع قريب سأله أحدهما: منذ متى وأنت هنا؟ فأجاب: منذ (١٤) الشهر.

الشاب مشجعاً إياه وقد أدرك محنته: حسناً عشرة أيام ليست بالأمر الكثير مادمت حياً فسنطلب لك الإسعاف.

كارل: أنا هنا منذ ١٤ حزيران.

نظر الشابان لبعضهما وهما لا يصدقان فردَّ أحدهما: يا ربي أنت هنا منذ الشهر الماضي....؟!

صعق الرجلان فقد كان ذلك اليوم هو ٢٤ تموز أي أن كارل أمضى أربعين يوماً ضائعاً بين مغازات جبال سان دييغو وهي جزء من جبال سييرا نيفادا الكاليفورنية العالية.

بعد ساعات عدة وقبل مغيب الشمس بذلك النهار كان من سخرية الأقدار أن ذات الطائرة التي أتت للبحث عنه ببداية ضياعه هي ذات الطائرة التي شاهدها بأواخر عصر ذلك اليوم وكان نفس الطيار يقودها فنزل منها منقذان وضعاه على حمالة رفعته إلى أرض الطائرة ومن هناك إلى مستشفى جنوبي بحيرة تاهو القريبة.

هناك وجد المعالجون كاحله مكسوراً ومتورماً وقد توضع نهائياً بطريقة غير طبيعية، وقد فقد من وزنه ما يقارب الخمسة وعشرين كيلوغراماً من شدة الجوع فبات حوالي ٧٠ كيلوغرام فقط، أما سبب آلام صدره المبرحة فلم تكن نوبة قلبية، بل جيباً هوائياً داخل الرئتين.

بتلك الليلة تلقى كارل أحلى تليفون سمعه بحياته كانت جدته على الطرف الآخر تكلمه بصوت متهدج: لقد أخبروني بأنك مفقود لكني لم أفقد الأمل أبداً.

أغمض كارل عينيه وأحس براحة شديدة.

الجدة: كارل هل ما تزال معي.

كارل: نعم جدتي وأنا أحبك.

١٣-١ أيلول- ٢٠٠٦.

الفهرس